



المشروع القومي للترجمة

# الإمبراطورية العثمانية

## وعلاقاتها الدولية

L'une de pages de L'histoire / صفحہ من صفحات التاريخ

في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر

تأليف: أنيئل ألكسندرو فنادولينا

ترجمة: أنور محمد إبراهيم



## الإمبراطورية العثمانية

### وعلاقاتها الدولية

في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر

تأليف : نينل الكسندروفنا دولينا

ترجمة : أنور محمد إبراهيم





## المقدمة

جاء اتساع الإمبراطورية العثمانية نتيجة استيلاء الأتراك العثمانيين في الفترة ما بين القرن الرابع عشر وبداية القرن الثامن عشر على أجزاء كبيرة من البلقان والشرق الوسط وشمال إفريقيا ، وبذلك ضمت الإمبراطورية في بنيتها العديد من بلاد وشعوب متباينة في مراحل نموها الإجتماعي والإقتصادي والسياسي ، فضلاً عن تباين هذه البلاد والشعوب فيما بينها من الناحية العرقية والدينية.

لقد بدا واضحاً للعيان أن الإمبراطورية العثمانية قد أخذت في التخلف منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر عن الدول الأوروبية المتقدمة، التي بدأت الرأسمالية فيها تتطور بخطى متواثبة . وما لبثت الإمبراطورية العثمانية تتعرض لهزائم منكرة في حروبها ، في الوقت الذي تعاظمت فيه حركات التحرر الوطني داخل الشعوب المقهورة واشتدت نزعات الاستقلال لدى الحكومات الإقليمية .

كان لنظام الدولة في الإمبراطورية العثمانية وتقاليدها المؤسسات فيها دورهما في الحد من تطور النظام الرأسمالي في اقتصاد البلاد . على أن التطور في هذا النظام قد حدث بالفعل ، وإن جرى هذا بصورة بطيئة ، وخاصة في الأقاليم الأوروبية للإمبراطورية ، تلك الأقاليم التي كانت وثيقة الصلة بالسوق الأوروبية. وكان هذا التطور هو التربة التي ساعدت على تكوين جماعات قومية داخل الشعوب الخاضعة ، وكذلك على نمو حركات التحرر الوطني . لقد ظهرت هذه العمليات أول مرة بين اليونانيين في الربع الأخير من القرن الثامن عشر لأسباب عديدة ، ثم ما لبثت أن ظهرت بين الصرب والبلغار وشعوب أخرى . وفي الستينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر أخذ الوعي القومي لدى الشعوب المسلمة في الإمبراطورية العثمانية في التشكل على نحو فعال ، وكان من بينها الشعوب العربية والأكراد والأتراك أنفسهم .

لقد أدى ضعف الإمبراطورية العثمانية والتعقيدات بداخلها إلى زيادة حدة صراع الدول الأوروبية من أجل إخضاع الإمبراطورية إقتصادياً والتقسيم الإقليمي " للتركة العثمانية " وظهر بشكل حاد على الساحة ما عرف باسم " المسألة الشرقية " ، تلك المسألة التي جذبت الاهتمام نحوها وخاصة في فترة الإنتفاضة اليونانية في عشرينيات القرن التاسع عشر ثم في فترة الصراع التركي المصري من عام ١٨٣١ إلى ١٨٤١ .

لقد ظهر كم هائل من الكتب التي تناولت تاريخ المسألة الشرقية سواء باللغات الأوروبية أو الشرقية، كما نشر عدد كبير من المصادر حول هذا الموضوع في القرنين التاسع عشر والعشرين . على أنه ولأسباب عديدة فإن الكتابات التاريخية لم تتناول بشكل كاف على الإطلاق دور الإمبراطورية العثمانية نفسها في الصراعات الدولية التي نشبت في القرن التاسع عشر ، إذ جرت العادة على بحث هذا الدور من زاوية كونه أثراً معرقلاً للطموحات السياسية للدول الأوروبية . فضلاً عن أن تاريخ الدبلوماسية العثمانية لم يحظ بالدراسات الكافية .

وفى غضون ذلك ، فإن الإمبراطورية العثمانية ، على الرغم من كل ما آلت إليه من ضعف وتخلف وما عانت من مصاعب داخلية ، واصلت وجودها باعتبارها شريكاً مستقلاً في العلاقات الدولية ، وكثيراً ما استغلت بنجاح التناقضات بين الدول الأوروبية .

ويقوم مؤلف هذا العمل بمحاولة لدراسة الدبلوماسية العثمانية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر من داخلها ، أى من وجهة نظر الأهداف السياسية الخارجية ومهام الحكومة العثمانية ، وتلك المناهج التي استخدمتها الدبلوماسية العثمانية من أجل تحقيق هذه الأهداف .

ظلت الإمبراطورية العثمانية طوال فترة ازدهارها وقوتها تنظر إلى العالم الأوروبى باعتباره عدواً لها — "داراً للحرب" ، وكانت ترى أن إقامة علاقات ثقافية وسياسية وطيدة معه أمر يمس هيبتها . وفى الوقت نفسه مثلت قوة الإمبراطورية العثمانية وعقائدها الدينية أسباباً لعزلة الدولة ، وهى العزلة التى انعكست بشكل واضح على جميع مجالات الحياة فيها .

لقد انخفضت العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية والدول الأوروبية إلى الحد الأدنى . وقد أدت هذه السياسة إلى صعوبة تعرف الأوروبيين على الحياة الداخلية للإمبراطورية ، ولهذا فعندما بدأ الباب العالي(\*) فى نهاية القرن الثامن عشر فى إدراك مدى ما وصل إليه من تخلف عن أوروبا ، واضطر تحت ضغط ظروف السياسة الخارجية إلى الدخول فى علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية . فإنه قد حقق بذلك خطوة هامة على طريق قيام تعارف مشترك أوثق بين أوروبا وتركيا .

شهدت الإمبراطورية العثمانية فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر قيام نظام دبلوماسى جديد كان مؤسسه وأكثر ممثليه وضوحاً هو رجل الدولة العثمانى الشهير مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ - ١٨٥٨) ، الذى ارتبطت باسمه أول

(\*) انظر قاموس المصطلحات



فترة للإصلاحات الداخلية دخلت تاريخ البلاد وعرفت باسم " التنظيمات " . وقد اعتبرت مشكلات السياسة الخارجية التي واجهت الإمبراطورية العثمانية في تلك الفترة واحدة من الأسباب الحافزة للبدء بهذه الإصلاحات . وعلى هذا فإن دراسة الدبلوماسية العثمانية يمكن اعتبارها واحدة من المداخل التي تسعى إلى توضيح أسباب وطابع تلك التغيرات التي حدثت في البلاد في تلك الفترة الصعبة من تاريخها .

لقد بات من الممكن دراسة هذا الموضوع بفضل دراسة المصادر التركية التي أصبحت متاحة أمام الباحثين بعد نشرها في تركيا على مدى الخمس وعشرين سنة الأخيرة .

إن قيام المؤرخين الأتراك المعاصرين بنشر عدد لا يستهان به من الوثائق التركية وبصورة رئيسية من أرشيف الدولة في تركيا ومن المجموعات الشخصية المتعلقة بحياة ونشاط الدبلوماسي مصطفى رشيد باشا ، قد سمح لنا بأن نوجه دراستنا تحديداً للدبلوماسية التركية ، أهدافها ، مناهجها ، إمكاناتها وما أسفرت عنه من نتائج .

على أننا وقبل أن نشرع في وصف الوثائق ذاتها ، نود أن نذكر هنا بضع كلمات حول نشرها . لقد قامت الجمعية التاريخية التركية في عام ١٨٥٤ بنشر واحدة من أكثر الوثائق شمولاً وغنى من ناحية المضمون ، وقد أعدها المؤرخ التركي رشيد كاينار ، الذي قام على مدى عشر سنوات بجمع وثائق ومواد أخرى حول مصطفى رشيد باشا (انظر المرجع ٤٨) .

إن مؤلف رشيد كاينار ، الذي تزيد صفحاته عن ٦٥٥ صفحة ، يتميز بالتعقيد على نحو كبير ، فإلى جانب المواد التي كتبها مصطفى رشيد باشا بقلمه وكذلك معاصروه فإن الكتاب يضم بعض الوثائق الرسمية ، إلى جانب عدد من المقتطفات من السجلات والمؤلفات التاريخية التركية كتبها مشاركون في صنع هذا التاريخ وشهود عيان على ما جرى فيه من أحداث .

يضم كتاب كاينار أيضاً اقتباسات من المؤلفات الخاصة بالنشاط الإصلاحي والدبلوماسي لمصطفى رشيد ( ٢٨ صفحة من الكتاب ) ، وبناء على الحسابات التي أجريناها على عدد الصفحات ، فقد شكلت المواد ذات الطابع الدراسي للمصادر حوالي ٨٠٪ تقريباً من إجمالي صفحات الكتاب . وهي تقارير السفارات والتقارير المرفوعة للسلطان والتي أعدها مصطفى رشيد وكذلك محاضر اجتماعات المجالس ومحاضر المباحثات الدبلوماسية التي أجراها كبار رجال الدولة الأتراك مع السفراء الأوروبيين وخطابات وتقارير رجال الدولة وموظفي الباب العالي . ومعظم هذه الوثائق تنشر للمرة الأولى .

وبفضل ما نشره كاينار أصبحت هذه المواد متاحة للمرة الأولى أمام الباحثين الذين لا يملكون إمكانية العمل في الأرشيف التركي . كما أن العديد من هذه الوثائق محفوظة ، وفقاً لما أعلنه كاينار نفسه ، في مكتبته الشخصية .

وتشكل التعليقات التي وضعها المؤلف والتي تمثل وصفاً موجزاً للوضع التاريخي والأحداث التي يدور حولها الحديث - ٨٦ صفحة - تشتمل على التقديم والمدخل - ٣٩ صفحة - وقد أشار كاينار في المقدمة إلى أنه لم يسع لإضفاء أى تقييم ذاتي على الوثائق معتبراً أن هدفه اقتصر على نشر المصادر فقط .

لا يحمل الجزء الأكبر من هذه الوثائق أية تواريخ<sup>(١)</sup>، كما أن نصوصها نشرت بالأحرف اللاتينية ، وغابت الصور الأصلية للوثائق وهو ما يقلل بطبيعة الحال من القيمة العلمية لهذا المرجع .

بداية فإن المختصين الذين لم يتسنى لهم العمل في دور المحفوظات التركية لا يستطيعون أن يقيموا هذا المصدر من زاوية وفرة ونوعية النص . ومن هنا جاءت أهمية تقييمه بالنسبة لنا من خلال ما كتبه عنه المؤرخ التركي والخبير البارز في شئون السجلات التركية أرجيومين كوران في عام ١٩٥٦ (المرجع ٢١٤) .

وحول دقة قراءة نصوص كاينار كتب كوران قائلاً: " على الرغم من وجود بعض الكلمات التي جرت قراءتها على نحو خاطئ ، فإن نصوص الوثائق المنشورة هي نصوص صحيحة تماماً " .

وحول وفرة التقارير التي رفعها السفير مصطفى رشيد والموجودة في هذا المرجع، يؤكد كوران على بعض الخلل الذي وقع فيه المؤلف ، ويخبرنا أن أرشيف الدولة المركزي في أسطنبول يحتفظ بتقارير مصطفى رشيد التي أرسلها من باريس ولندن والتي تعود إلى عامي ١٨٣٦ و ١٨٣٧ ، وهي تقارير لم يضمها مؤلف كاينار . وقد نشرت هذه التقارير فيما بعد على مدى الفترة من ١٨٥٤ وحتى ١٨٦٣ على يد المؤرخ التركي م. جاويد بايسون (المرجع ٤٦) .

إن طبعة كاينار يشوبها بعض النقص المحدود ، فلا نجد فيها بيبليوجرافيا موحدة تضم المراجع المستخدمة ، كما أن الحواشي البيبليوجرافية تحتوى على العديد من الأخطاء (انظر المرجع ٤٨ ص ٣ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ١٦٠ ، ٥٢ ، ٦١ ، ١٥٠ - ١٥١ وغيرها) .

١- من المحتمل أن يكون تاريخ الورد إلى إدارة الباب العالي مكتوباً على الوثائق ولكنه لم يذكر في الكتاب .



كما لم يشير مؤلف الكتاب في أحوال كثيرة إلى المعلومات التي صدرت قبل نشر الوثائق . وقد أشار كوران إلى ذلك أيضاً، الأمر الذي جعل من الصعب أحياناً التحقق مما إذا كانت هذه الوثيقة أو تلك قد نشرت من قبل أم أنها تنشر للمرة الأولى . من ناحية أخرى فقد جرى ذكر بعض أسماء رجال الدولة الأوروبية بشكل خاطئ<sup>(١)</sup> ، ولم تصاحب بعض الأسماء الأخرى أية إيضاحات بشأنها<sup>(٢)</sup>.

تعود المواد المعروضة في الكتاب إلى أحداث وصلت إلى ذروتها عام ١٨٤٦ . أما الأعوام الأخيرة من حياة مصطفى رشيد باشا فالمواد الخاصة بهالم تنشر به.

تتناول تقارير السفارات الأخيرة التي كتبها مصطفى رشيد عن الأعوام من ١٨٣٤ وحتى ١٨٣٧ ثم من ١٨٤١ وحتى ١٨٤٥ ، إلى جانب المواد الأخرى التي نشرها كإينار الموضوعات التالية:

(١) جهود الباب العالي الدبلوماسية وخاصة ما قام به مصطفى رشيد بهدف إعادة الجزائر إلى كيان الدولة العثمانية بعد أن استولت عليها فرنسا في عام ١٨٣٠ .

(٢) سياسة الباب العالي وعلاقاته بالدول الأوروبية (روسيا ، إنجلترا ، فرنسا ، النمسا وبروسيا) بخصوص الصراع التركي المصري (شغل مصطفى رشيد إبان فترة الصراع منصب السفير لدى فرنسا وإنجلترا ، ثم أصبح وزيراً للخارجية منذ عام ١٨٣٧) .

(٣) التنافس التركي الفرنسي في تونس .

(٤) الخلاف التركي اليوناني بسبب الأقاليم التي يسكنها اليونانيون والتي ظلت داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية بعد حصول اليونان على استقلالها عام ١٨٣٠ .

(٥) الثورة في لبنان في أربعينيات القرن التاسع عشر وتدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية فيما يتعلق بالأحداث الجارية في هذه المنطقة ، ونشاط الإدارة التركية في تسوية الأزمة اللبنانية .

١- على سبيل المثال ، ورد إسم الكوماندر الإنجليزى نيبير على أنه تامبير (٤٨ ، ص ٣٦٣) ، كما تحول اسم القائم بالأعمال الروسى فى باريس أ. ب. كيسليف إلى بوكسيليف (ص ٥١٤) وكذلك اسم السفير الروسى لدى أسطنبول أ. ب. بوتينيف أصبح مرة بوتنيف (ص ٤٦٢) ومرة أخرى بوتنيف (ص ٤٦٦) إلى آخره .

٢- على سبيل المثال ، لم يول المؤلف الاهتمام اللازم لاسم قانى بك ، الأمر الذى ترتب عليه أنه أخطأ فى صفحة ٣١ ، فذكر أن اسم المتحدث مع السفير الإنجليزى هو مصطفى رشيد باشا بدلاً من قانى بك (٤٨ ، ص ١٢٠ ، قارن ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٦ - ٩) .

٦) إلقاء الضوء على عدد من المشكلات مثل: إنشاء سفارات عثمانية دائمة في الخارج في ثلاثينيات القرن التاسع عشر المحاولات التي بذلت لمواجهة تدخل الدول في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية في الأربعينيات من القرن الماضي ، دور مصطفى رشيد في عقد الإتفاقية التجارية بين تركيا وإنجلترا في عام ١٨٣٨ وموقفه من هذه الإتفاقية ، إلى جانب بعض المشكلات الأخرى .

وتشغل المواد ذات الصلة بالنشاط الإصلاحي لمصطفى رشيد و"التنظيمات" الإصلاحية بوجه عام حيزاً كبيراً من الكتاب الذي وضعه كاينار (١٤٨ صفحة). وقد قمنا باستخدام هذه المواد في كتابنا هذا فيما يتعلق منها بالمشكلات الدبلوماسية فقط .

وما تزال المصادر التركية التي أوردها كاينار في كتابه نادرة الاستخدام حتى وقتنا هذا ، وحتى ما يستخدم منها فإنه موجه فقط لإلقاء الضوء على التنظيمات الإصلاحية<sup>(١)</sup>.

يعود تاريخ تقارير السفارات التي كتبها مصطفى رشيد من باريس ولندن إلى فترة سفارته الأولى ( من سبتمبر ١٨٣٤ وحتى ابريل ١٨٣٥ ) وكذلك إلى فترة سفارته الثانية ( من سبتمبر ١٨٣٥ وحتى أغسطس ١٨٣٧ ) وقد قام بنشرها م.ج.بايسون بدءاً من عام ١٩٤١ . ولم يتجاوز ما نشره فيها حتى عام ١٩٦٣ أكثر من ٦٥ تقريراً (المراجع ٤٥ ، ٤٦ ) ، ضم كاينار منها في كتابه عدداً محدوداً للغاية .

ومن اللافت للنظر أن الجزء الأكبر من التقارير التي نشرها بايسون مؤرخة إما بواسطة المرسل ، أو بواسطة إدارة الباب العالي يوم وصولها . وقد ذكر م.ج. بايسون أن جزءاً من هذه الوثائق كان مُشفراً ثم جرى فك شفرته من قبل الناشر . وقد نشرت هذه التقارير كلها ، كما حدث في طبعة كاينار ، بالأحرف اللاتينية دون نشر للأصول .

سنشرع الآن في تحليل مضمون المصادر التركية ذات الصلة المباشرة بموضوع كتابنا .

تمثل تقارير مصطفى رشيد من لندن وباريس في الفترة من ١٨٣٤ وحتى ١٨٤٥ الجزء الأكبر من المصادر المذكورة . وإلى جانب هذه التقارير ففي حوزتنا تقارير

١- استخدم كل من أ. د. نوفيثشيف ( ١١٠ ) ، ف. ش. شعبانوف ( ١٤٦ ) ، س. شو ( ١٩٨٥ ) في بحوثهم مواداً مقتطفة من كتاب رشيد كاينار .

مصطفى رشيد التي رفعها للسلطان<sup>(١)</sup> ، وتقارير الباب العالي المرفوعة للسلطان وكذلك عدد من الخطابات والمذكرات وملحوظات مصطفى رشيد ومن بينها ، رد مصطفى رشيد على مذكرة الكاتب الفرنسي م. ديستريل الموجهة ضد مصطفى رشيد وسياسته الداخلية والخارجية ( المصدر ١٥٩ ) . ويظهر لنا مضمون الرد ( غير المؤرخ ) أن مصطفى رشيد وقف إلى جانب القضاء على نظم الإجراءات الحكومية في الإقتصاد والإحتكار وشراء السلع إجبارياً بأسعار متدنية ، وأن كبار رجال الدولة كانوا يناصرونه في آرائه ( ٤٨ ، ص ١٢٩ ) .

وتعتبر هذه الوثيقة إحدى أهم الوثائق التي استندنا إليها في هذا العمل لنصل إلى استنتاج مفاده أن اتفاقية التجارة التركية الإنجليزية عام ١٨٣٨ قد عقدها الجانب التركي ليس فقط بتأثير ضرورات السياسة الخارجية وإنما عن وعي ، وبغرض خلق ظروف موضوعية لتنمية الإستثمار الرأسمالي في اقتصاد البلاد .

تعتبر تقارير السفارات التي وضعها مصطفى رشيد هي مصدرنا الرئيسي في هذا الكتاب . إن تحليلها والمقارنة بينها وبين المصادر الأوروبية يسمحان بالوصول إلى عدد من الاستنتاجات ، بما في ذلك الاستنتاجات المتعلقة بالنشاط الموجه والفعال للدبلوماسية التركية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر ، وكذلك الحرفية الرفيعة للسفير التركي مصطفى رشيد التي تجلت على مدى نصف عام منذ وصوله الأول إلى باريس عام ١٨٣٤ إبان المباحثات التي دارت بينه وبين وزير خارجية فرنسا بشأن الجزائر ( ٤٨ ، ص ٧٢ - ٧٧ )

تمثل تقارير مصطفى رشيد التي أرسلها من لندن خلال عامي ١٨٣٦ - ١٨٣٧ أهمية بالغة ، فهي تعرض لنا كيف حاول رشيد الحصول من بالمرستون على دعم مؤثر أكبر للسلطان محمود الثاني في صراعه مع محمد علي ، وتدل هذه التقارير على أن بالمرستون كان يميل إلى السماح بوقوع صدام مسلح بين جيش السلطان وبين جيش محمد علي ، كما تدل على أنه حاول أيضاً في عام ( ١٨٣٧ ) دفع السلطان نحو هذا العمل ( ٤٦ ، رقم ١٧ ، ١٨ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ ) .

إن مثل هذا الموقف من جانب بالمرستون ليس له - كما هو معروف - أي صدى في المراجع التاريخية . فالمراجع الأوروبية لا تناقش سوى مسألة ما إذا كان السفير

١- يرجع تاريخ أحد هذه المصادر إلى خريف ١٨٣٧ عندما جرى تعيين مصطفى رشيد باشا وزيراً للخارجية للمرة الأولى . وتتناول المذكرة الثانية ( مطلع عام ١٨٤١ ) الاختلاف في وجهات النظر بين سفراء الدول الأوروبية لدى إسطنبول بخصوص الشروط التي جرت مناقشتها بشأن إخضاع والى مصر المتمرد محمد علي . وقد جرى عرض مضمون هذا الاختلاف بالتفصيل في كتابنا .

الإنجليزى فى أسطنبول بونسونبى هو الذى قام - بعلم من بالمرستون - بحث السلطان على الدخول فى الحرب ضد محمد على ( انظر المراجع ٦٣ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ١٢٤ ، الجزء الأول ص ٣٠١ ) .

إن أهمية تقرير مصطفى رشيد هذا تكمن فى تضمنه معلومة تفيد تصريحات بالمرستون الموجهة ضد سياسة فرنسا فى مصر . كما أنها دليل نادر للغاية ، إذ أننا نجد فى جميع الوثائق الأخرى المتاحة لنا ، والتي يرجع تاريخها للفترة التى سبقت وتلت أغسطس ١٨٣٧ ، أن موقف الممثلين الرسميين لإنجلترا ، بما فيهم بالمرستون نفسه ، تتلخص فى التأكيد المستمر للباب العالى على أن الجزائر تعد إستثناء ، أما بالنسبة للقضايا الأخرى فإن فرنسا سوف تدافع عن مصالح السلطان ، إذ أنها تقف معها إنجلترا ضد السياسة الشرقية لروسيا .

للأسف فنحن لا نملك معلومات كافية تمكنا من الحديث عن أسباب هذه التغيرات التى طرأت على موقف بالمرستون وخاصة فى أغسطس عام ١٨٣٧ ، على أن هناك بون أدنى شك دور محدد فى هذا التغير يرجع لنشاط الدبلوماسى التركى مصطفى رشيد الذى نجح فى الحصول على تأييد إنجلترا فيما يتعلق بإشعال الحرب التركية المصرية ( انظر ٤٦ ، رقم ١٤ ، ص ٦٥ - ٧٠ ، رقم ١٥ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ) .

وتؤكد التقارير الواردة من لندن أن تعيين مصطفى رشيد فى منصب وزير الخارجية كان مؤشراً على التقارب التركى الإنجليزى ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٩٣ ) .

وتؤكد ذلك المذكرة التى رفعها الوزير الجديد للسلطان محمود الثانى فى خريف عام ١٨٣٧ ( ٤٨ ، ص ٨٤ - ٩٣ ) . وتحتوى هذه الوثيقة الهامة على اقتراح صاحب المذكرة بالتوجه ناحية إنجلترا من أجل تصفية الصراع التركى المصرى .

وقد استطاع مصطفى رشيد أن يدعم وجهة نظره بالحجج من جميع النواحي . ومن أجل هذا عرض رشيد السياسة الخارجية لإنجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا للتحليل وعرض لمواطن التقاء المصالح والإختلاف ، وكذلك موقف هذه الدول من أعدائها - السلطان ومحمد على . وفى معرض محاولته لإقناع محمود الثانى بالموافقة على خطته ، سعى مصطفى رشيد لتقوية الشك لدى محمود الثانى فى سياسة روسيا . وفى الوقت نفسه راح يقدم له النصيح بألا يفسد علاقته بروسيا وإنما يعمل فقط على ألا يلجأ للحصول على أى مساعدة عسكرية منها بموجب معاهدة أونكيار إيسكيلسى ، التى كانت دول أوروبا الغربية تقف ضدها موقفاً معادياً . أما فيما يتعلق بإنجلترا ، فقد أثبت مصطفى رشيد للسلطان أن ما تقدمه للباب العالى من مساعدة أمر لا يخلو من غرض ، فإجلترا ، التى تعادى محمد على ، تقف فى الوقت نفسه ضد روسيا

بسبب الخلافات المتعلقة بمصالحها في إيران وربما في الهند أيضاً . كانت الإشارة إلى الاهتمام المفروض لإنجلترا ، بداهة ، برهان دامغ لإقناع السلطان بقبول اقتراح مصطفى رشيد بشأن سبل تصفية النزاع التركي المصري .

على أن الباب العالي وبعد أن اتفق مع رأي وزير خارجيته وغير من توجه سياسته الخارجية لم يتخل تماماً عن تحالفه مع روسيا ، وإنما على العكس من ذلك ، سعى ألا يفسد هذا التحالف بأي شكل من الأشكال ، ولهذا قدم لها مكاسب ملموسة . وهناك العديد من الوثائق التي تدل على اهتمام الباب العالي بتأييد علاقات الصداقة مع روسيا تعود إلى الفترة من عام ١٨٢٤ وحتى ١٨٣٩ . وتشتمل هذه الوثائق على تقارير السفارات التي رفعها مصطفى رشيد من كل من باريس ولندن في الفترة من عام ١٨٢٤ وحتى ١٨٣٩ . وتشمل هذه الوثائق على تقارير السفارات التي رفعها مصطفى رشيد من كل من باريس ولندن في الفترة من ١٨٢٤ وحتى ١٨٣٧ ( ٤٨ ، ص ٦٥ ، ٤٦ ، رقم ١٥ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ، رقم ١٦ ، ص ٤٩ - ٥٣ ، رقم ١٧ - ١٨ ، ص ٧٦ - ١٧٨ ، ١٨١ - ١٨٣ ) وكذلك محضر اجتماع الباب العالي الذي عقد في النصف الأول من عام ١٨٣٩ ( ٥٣ ، مجلد ٦ ، ص ١٧ ) بعد رفض إنجلترا لتوقيع مشروع الاتفاق التركي الإنجليزي ضد محمد علي ، وأيضاً خطة السلطان حول بعثة مصطفى رشيد إلى لندن عام ١٨٣٨ ( ٤٨ ، ص ١٤٢ - ١٤٤ ) .

وتسمح مذكرة مصطفى رشيد التي تتضمن تقييماً للعلاقات الدولية في تلك الفترة أن نحكم على مدى الدرجة الرفيعة لأهليته وموهبته الدبلوماسية .

وتكتسب تقارير مصطفى رشيد من لندن وباريس عام ١٨٣٩ أهمية كبيرة . ففي تلك الفترة التي سبقت تعيينه وزيراً للخارجية نجح في التوصل إلى توقيع إتفاقية تحالف مع إنجلترا ، وهي الإتفاقية التي كانت موجهة ضد محمد علي . وتدلل هذه التقارير على موقف إنجلترا من الإستعدادات التي تمت للصدام المسلح بين السلطان والجيش المصري ، وعلى الرغم من رفض بالمرستون توقيع مشروع الاتفاق التركي ، فقد وعد مصطفى رشيد في مطلع يونيو ١٨٣٩ بتوجيه أسطول بحري عسكري نحو منطقة الصراع والتدخل في مجريات الأحداث ، في حالة ما إذا تعرض جيش السلطان للهزيمة أي ، وكما ورد على لسان مصطفى رشيد ، أنه اعتزم أن يتبع " سياسة الحذر " تجاه هذا الأمر ( ٨٤ ، ص ١٥٤ ) .

لم تلق المراجع التاريخية الأوروبية الضوء على محتوى اجتماع سفراء إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا المعتمدين لدى إسطنبول برئاسة وزير خارجية الباب العالي مصطفى رشيد من أجل إعداد شروط تسوية الصراع التركي المصري في نهاية عام

١٨٤٠ والربع الأول من عام ١٨٤١ . وتؤكد محاضر هذه الاجتماعات ( ٤٨ ، ص ٣٤٣ - ٣٧٢ ) اهتمام إنجلترا بإضعاف محمد علي وفرض شروط يمكن من خلالها إخضاع السلطان وإفقاده إمكانية ممارسته لسياسة مستقلة . وهذه الوثائق تشير أيضاً إلى أن موقف السفير الإنجليزي بونسونبي كان متعنتاً إلى حد أن مصطفى رشيد اضطر إلى الكتابة بشأن هذا الموقف إلى السلطان باعتباره أمراً مرفوضاً دعا إلى اعتراض سفراء الدول الأوروبية الأخرى أنفسهم عليه أيضاً ( ٤٨ ، ص ٣٧٤ - ٣٨٠ ) .

إن تقارير مصطفى رشيد تشكل مادة خصبة لدراسة النزاع التركي اليوناني وخاصة النزاع الإقليمي في النصف الأول من أربعينيات القرن التاسع عشر وكذلك لدراسة التنافس الفرنسي التركي في تونس في تلك الفترة ذاتها . إن هذه المادة الوثائقية قد أتاحت لنا أن نتعرف على صفحات تكاد تكون مجهولة من تاريخ نضال اليونانيين ، الذين بقوا داخل كيان الإمبراطورية العثمانية ، من أجل العودة إلى اليونان وبور الدول الأوروبية في الخلاف التركي اليوناني ، وعلى معلومات غير معروفة تتعلق بسياسة باي تونس ، الذي استغل التنافس الفرنسي التركي في الحصول على قدر كبير من الاستقلال عن الباب العالي .

ويفضل المطبوعات التركية توفرت لدينا وثيقتان تضمنان التعليمات التي أرسلت لسفيرين<sup>(١)</sup>:

١- إلى روح الدين أفندي ، وكان يشغل منصب نائب السفير إبان توجه مصطفى رشيد لقضاء إجازته في إسطنبول ، وقد أرسلها الباب العالي في الربع الأول من عام ١٩٣٥ ( ٤٥ ، رقم ١٢ ، ص ٤٥٣ ، ٤٨ ، ص ٧٧ ) .

٢- إلى مصطفى رشيد الذي عين سفيراً لدى باريس في سبتمبر عام ١٨٤١ ( ٤٨ ، ص ٣٩٣ ، ٤٩٢ ) .

أما الوثيقة الأولى فتعود أهميتها لما تحويه من تقييم للجزائر باعتبارها " مكاناً لا طائل من ورائه " ، وأما الثانية فتقيم التحالف الأنجلوفرنسي من وجهة نظر مصالح العلاقات الدولية للباب العالي .

وهناك استشهاد شهير ورد في وثيقة ثالثة تضم أيضاً تعليمات ( غير مذكور بها المرسل إليه ) وتتعلق بأمور تخص الجزائر ( ٤٥ ، رقم ٧ ، ص ٤٩ ، الملاحظة ٢ ) .

ويعتبر سجل المؤرخ التركي أحمد لطفي الذي يضم بين دفتيه الأحداث التي

١- من الأمور غير المؤكدة حتى الآن ما إذا كان مصطفى رشيد قد تلقى تعليمات عند أول تعيين له باعتباره سفيراً لدى باريس عام ١٨٣٤ ، وكذلك عند انتقاله للعمل في كل من باريس ولندن عام ١٨٣٦ .



وقعت في الفترة من ١٨٢٥ إلى ١٨٤٩ واحداً من المصادر التركية الهامة، ففي هذا السفر نجد تسجيلاً لبعض المناقشات التي دارت بين كبار رجال الدولة الأتراك والسفراء الأوروبيين حول مشكلات العلاقات الدولية (مثل المناقشة التي دارت بين قاني بيه والسفير بونسونبي) ، كما نجد محاضر لاجتماعات الحكومة التركية ، وقد قام لطفى بتقييم الإتفاقية التركية الإنجليزية التي عقدت عام ١٨٣٨ ورأى أنها وثيقة مفروضة من الخارج ، ولكنه أشار أيضاً إلى أن عدداً من أعضاء حكومة السلطان قد أقروا نظام الإحتكار ورأوا أن القيود ضارة بالتجارة وأن التجارة الحرة تساعد على رخاء البلاد والرعية .

لقد تركت المصادر التركية سابقة الذكر بعض الثغرات في عرضها للموضوع ، كما أنها لم تقدم بشكل كامل كل التيارات في العلاقات الدولية المتشابكة للإمبراطورية العثمانية . وينطبق هذا بالدرجة الأولى على تاريخ النزاع التركي المصري ، على الرغم من أن كثيراً من الكتابات التاريخية ومن بينها كتاب لطفى قد تناولتها بشكل مسهب للغاية .

على أن كتاب لطفى يترك أسباب النزاع الذي كان قائماً بين أنصار التوجه الروسى والإنجليزى داخل حكومة السلطان والشكوك التي راودت كبار رجال الدولة الأتراك ومن بينهم مصطفى رشيد نفسه دون توضيح ، وقد كان لهذه الشكوك - بداهة - دورها في تصرفاتهم في أوقات مختلفة . كما ظلت أيضاً أسباب الانتقاد الشديد الذي صرح به بالمرستون في أغسطس ١٨٣٧ حول موقف فرنسا تجاه مصر وحول أسباب التغييرات التي طرأت على سياسة إنجلترا تجاه النزاعات التركية المصرية في هذه الفترة بالتحديد دون تفسير .

لا نعرف على وجه التحديد أستاناداً على لطفى درجة استحسان مصطفى رشيد لشروط الاتفاقية التجارية المعقودة بين إنجلترا وتركيا عام ١٨٣٨ وموقفه المتأخر منها بعد أن أصبحت سارية المفعول . ولم يحدد الكتاب بشكل قاطع عدداً من التواريخ الهامة مثل تاريخ وصول مصطفى رشيد إلى لندن لعقد المعاهدة العسكرية بين إنجلترا وتركيا ضد محمد على . كما لم يشر إلى تاريخ اجتماع حكومة السلطان الذي جرت فيه مناقشة المشروع الإنجليزي لهذه المعاهدة والذي كان مصطفى رشيد قد بعث به من لندن ، كذلك لم يؤرخ للنسخة الإنجليزية من المعاهدة ، وهي النسخة المحفوظة في أرشيف السياسة الخارجية الروسية ( ١٦ ، المخطوطين ٧٥ ، ٧٦ ) .

لم يحدد لطفى أيضاً بشكل تام أسباب تنحية مصطفى رشيد باشا من منصب وزير الخارجية في باريس ١٨٤١ بعد النجاح التام تقريباً في إنهاء النزاع التركى المصرى ومكافأته بالنجمة الماسية ، وظل مجهولاً ما إذا كان ذلك الأمر قد تم بضغط

من النمسا ، التي كانت تخشى تجدد النزاع المسلح من جانب فرنسا ومحمد علي في حالة المماثلة لشروط التسوية ، أم تم على يد المعارضة الداخلية .

إن نشر عدد قليل للغاية من التعليمات التي أصدرها مصطفى رشيد إبان عمله سفيراً أمر يدعو للأسف الشديد . كما تغيب عنا تعليمات الباب العالي له عند تعيينه في المرة الأولى سفيراً لدى باريس عام ١٨٣٤ ، ثم بعد انتقاله للعمل في لندن في خريف ١٨٣٦ . وقد كانت الفترة الأخيرة في غاية الأهمية لتوضيح موقف الباب العالي في تلك الفترة من كل من إنجلترا وروسيا .

وقد اعتمد أحمد لطفي في كتابه على مواد رسمية من نصوص إتفاقيات: أونكيار أيسكيليسي عام ١٨٣٣ ( ٣٩ ، ص ٨٩ - ٩٢ ) ، اتفاقية ميونخنجريتس عام ١٨٣٣ ( ٣٩ ، المجلد ٤ ، جزء ١ ، ص ٤٣٨ ) ، اتفاقية التجارة الإنجليزية التركية عام ١٨٣٨ ( ٤٩ ، المجلد ١ ، ص ٢٧٢ ، ٤١ ، ص ١١٠ - ١١١ ، ٤٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٣ ) ، مشروع المعاهدة الإنجليزية التركية بشأن التحالف ضد محمد علي ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٧ - ٨ ، ٤٨ ، ص ١٣١ ) . المشروع الإنجليزي لنفس المعاهدة (النسخة الفرنسية) ( ١٩ ، المخطوطين ٧٥ - ٧٦ ) ، خطي جولخانه عام ١٨٣٩ ( ٤٨ ، ص ١٧٦ - ١٨٠ / ٣٩ ، ص ١٧١ - ١٧٥ / ٤٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ ) ، ثم قرارات مؤتمر لندن ١٨٤٠ - ١٨٤١ ( ٣٤ ، المجلد ١٢ ، ص ١٢٠ - ١٤١ / ٤٠ ، الجزء ٣ ، ص ٦٨٩ - ٦٩٧ / ٤٢ ، ص ٣٠٥ - ٣١٤ / ٣٤ ، الجزء ٢ ، ص ٤١٧ ، ٤٩ ، الجزء ٤ ، ص ٢١٢ - ٢١٥ / ٤٨ ، ص ٣٣١ - ٣٣٥ ) .

ويضم أرشيف السياسة الخارجية الروسية قدراً كبيراً من المعلومات القيمة الخاصة بنشاط الدبلوماسية التركية من بينها تقارير السفير الروسي في إسطنبول أ.ب. بوتنييف وتتعلق مباشرة بمباحثات محمد علي مع الباب العالي التي جرت في شهر يوليو من عام ١٨٣٩ واستؤنفت في نهاية نفس العام ومطلع عام ١٨٤٠ ( ١٩ ، المخطوطات ٣٧٠ - ٣٨٠ ، ٢٢ ) . ويحتفظ الأرشيف أيضاً بنسخة من المشروع الإنجليزي للإتفاقية الإنجليزية التركية (النسخة الفرنسية) ، وهو المشروع الذي تقدمت به إنجلترا عام ١٨٣٩ مقابل المشروع التركي ( ١٩ ، المخطوطات ٧٥ - ٧٦ ) .

وتتضمن كتابات المعاصرين ، الذين عاشوا فترات طويلة في تركيا ، معلومات تصف بعض أحداث تاريخ الدبلوماسية العثمانية ، على الرغم من أن هذه الكتابات كانت مكرسة أساساً لمشكلات أخرى ، أو كانت مجرد أعمال عامة عن الدولة العثمانية . ومن هؤلاء الكتاب القنصل الروسي ك.م. بازيلى الذي عمل في بيروت في الفترة من ١٨٣٩ وحتى ١٨٥٣ ( ٢٧ ) ، المؤرخ والدبلوماسي السويدي مورادجا دوسون الذي

ترك لنا وصفاً تفصيلياً شاملاً للإمبراطورية العثمانية ( ١٦٠ ، المجلد ٣ ، ص ٤٣٧ - ٤٦٢ ) ، المستشرق والدبلوماسي النمساوي إ. هامر مؤلف كتاب تاريخ تركيا ( ١٦٨ ، ص ١٥٨ - ١٦٧ ) ، الدبلوماسي الروسي ف. أ. تيبيلوف الذي خدم في إسطنبول في السبعينيات من القرن التاسع عشر ( ١٣٤ ، ١٣٥ ) ، المستشرق الروسي الشهير إ. ن. بيرزين ( ٨١ ) ، الضابط البروسي والمدرس بالجيش التركي ج. مولتكي ( ١٠٣ ، ٣٧ ، العدد ٩ ) .

ومن البحوث القيمة التي استند إليها هذا العمل ما قام به ج. روزين ، الذي عمل بالسفارة البروسية في الدولة العثمانية من أربعينيات وحتى ستينيات القرن التاسع عشر (وقد صدر كتابه في ترجمة روسية) . وقد أستعان مؤلف هذا الكتاب بالمواد الموجودة في أرشيف الدولة في بروسيا والمواد الصحفية الأوروبية إلى جانب مشاهداته الشخصية . والبحث مكرس لدراسة التاريخ السياسي والدبلوماسي للإمبراطورية العثمانية أكثر من كونه دراسة للإصلاحات الداخلية فيها . في الوقت نفسه فكتاب روزين يلقي بالضوء على العديد من قضايا سياسة الدولة الأوروبية المتعلقة بتركيا . وعلى الرغم من التحيز الواضح في تفسيره لموقف حكومة السلطان التي يرى أنه كان موقفاً غير مستقل على الإطلاق ، فالكتاب يحتوي مع ذلك على مادة موضوعية لم يسبق تسجيلها من قبل في أي مرجع آخر . ويعتبر روزين من القلائل الذين أكدوا عزم إنجلترا في النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر على تأييد محمد علي لا السلطان وكيف أنها راحت تتراجع تماماً يوماً بعد الآخر عن هذا الموقف . ويولى كتاب روزين أيضاً أهمية كبيرة لتطور العلاقات الإنجليزية التركية من عشرينيات وحتى خمسينيات القرن التاسع عشر ( ١٢٤ ) .

إن المؤلفات التي قمنا بإحصاءها ( ٢٧ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٠٣ ، ٣٧ ، ١٢٤ ) والتي كتبها شهود عيان ومشاركون في الأحداث هي مؤلفات تحمل في الوقت نفسه طابع المراجع والأبحاث .

وهكذا نجد أن المصادر التركية قد أتاح لنا - بدرجة معلومة - أن نسد ثغرات جوهرية وأن نستكمل المعلومات المتاحة الخاصة بالعلاقات الدولية المعقدة في فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر بفضل المواد المتعلقة بنشاط الدبلوماسية التركية . كما استطعنا أيضاً - على نحو موضوعي - تصحيح المعلومات المجتزأة من المصادر الأوروبية التي تناولت أهداف وجهود الإمبراطورية العثمانية استناداً إلى المعلومات التركية ، كما جرى تجنب بعض الأخطاء التي ظهرت نتيجة نقص المعلومات . ومن بين تلك المعلومات التي كانت مبتورة ، تلك الأسطورة التي شاعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر والتي استندت إلى التصور الأوروبي

المركزي الذي يدعى طابع التبعية الكاملة الذي ميز الدبلوماسية العثمانية لهذه أو لتلك من الدول الأوروبية . وقد أشار عدد من المؤرخين والدبلوماسيين الروس في مستهل القرن العشرين إلى بطلان هذه الاستنتاجات ( ١١٥ ، ص ٧٠ - ٧١ ، ١٣٣ ، ص ٢٧ ) . كما أسس العلماء الروس شكوكهم في صحة هذه النظرة للدبلوماسية العثمانية على حقائق مستقاة من تاريخ العلاقات الروسية التركية . على أنه كان من المستحيل وبدون التعرف الواسع والمتعمق على المصادر التركية الوصول إلى حل مقنع لهذه المشكلة . إن المصادر الروسية والأوروبية الغربية ظلت أقل مصداقية بسبب الإطلاع غير الكافي لمؤلفيها ، وقد أشار إلى خصائص المصادر الأوروبية كلاسيكيو الماركسية وعدد من الباحثين في مجال العلاقات الدولية ( ١٢ ، ص ٢٢ ، ٨٥ ، ٥٦٠ / ١٠٢ ، ص ١٩ / ٦٢ ، ص ٢٥ ، ٢٧ ) .

وقد ظهر في السنوات الأخيرة عدد من البحوث كتبها مؤرخون سوفيت وأجانب يدرسون بشكل مباشر مشكلات العلاقات الدولية والدبلوماسية للإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وتتفق جميع هذه البحوث على استنتاج واحد مفاده أن الإمبراطورية العثمانية ، على الرغم من تبعيتها الإقتصادية والسياسية جزئياً للدول الإستعمارية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، احتفظت بقدر محدود من إستقلاليتها في مجالات العلاقات الدولية والدبلوماسية مستغلة بمهارة التناقضات القائمة بين مختلف الدول آنذاك وبين الجماعات الأقليات الصغيرة فيها ، لقد كان لدى الإمبراطورية العثمانية نظرة ثاقبة قادرة على إدراك مصالحها الخاصة ومهارة كبيرة في ملاحقة أهدافها ( انظر على سبيل المثال ٥٧ ، ص ٤ ، ٦٣ ، ص ٧٦ ، ١٧٢ ، ص ٦ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ) وتؤكد المصادر التي يستند إليها بحثنا هذا نفس هذه الفكرة .

وتعد أعمال كلاسيكي الماركسية من الأعمال الرئيسية في هذا البحث ، وقد أولت جميعها اهتماماً كبيراً للمسألة الشرقية ولقضايا السياسة الخارجية لكل من إنجلترا وروسيا والنمسا وفرنسا ثم تركيا بدرجة أقل ، وقد عرض ماركس وإنجلز للمصالح الذاتية والتناقضات المشتركة للدول الأوروبية في تركيا وقدموا تقييماً للإصلاحات التي تمت في الإمبراطورية العثمانية وكذلك للقضية القومية وكيف تدخلت الدول الأوروبية لحلها . في عام ١٨٣٥ أشار إنجلز إلى أن الحفاظ على الحالة الراهنة في الإمبراطورية العثمانية كان يعنى استمراراً لقهر تركيا للرعايا المسيحيين وهو الوضع الذي دفع بعشرة ملايين مسيحي أرثوذكسي يعيشون في تركيا الأوروبية لطلب المساعدة من روسيا ( ١٣ ، ص ٣٢ ) .

وكذلك أولى المؤرخون السوفيت في مؤلفاتهم اهتماماً كبيراً لسياسة الدول

الأوروبية وعلاقتها بالمسألة الشرقية. وقد استفاد المؤلف من هذه الأعمال ومن بعض المصادر التي اشترك في وضعها عدد من المؤرخين مثل "تاريخ العالم" (٦١، المجلد ٦)، "المسألة الشرقية في السياسة الدولية الروسية"، من نهاية القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين " (٦٠ "أ") ، "تاريخ الدبلوماسية" (٨٥) ، "تاريخ بلدان آسيا وأفريقيا في العصر الحديث" (٨٧) ، "التاريخ الحديث لبلدان آسيا وأفريقيا" (١٠٨) ، "تاريخ النضال الوطني التحرري لشعوب أفريقيا في العصر الحديث" (٨٥ أ)، إلى جانب بحوث ف.أ. جيورجيف (٦٣) ، ن. س. كينيا بينا (٩٠ ، ٩١) ، ف.ب. لوتسكي (٩٧) ، أ. ف. ميللر (١٠٠ ، ١٠٢) ، س.ب. أوكون (١١٦) ، أ. ف. فادييف (١٣٢) وغيرهم ، وقد قام المؤرخون السوفيت بتحليل أسباب التوسع السياسي والاقتصادي للدول الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية وقدموا عرضاً للتوجه العام لسياسة هذه الدول .

يتناول كتاب ف.أ. جيورجيف "سياسة روسيا الخارجية في الشرق الأوسط في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر" "المرحلة الثانية" من النزاع التركي المصري (١٨٣٨ - ١٨٤١) . وقد وضع ف.أ. جيورجيف هذا المؤلف استناداً إلى عدد كبير من الوثائق الموجودة في الأرشيف الروسي ، كما وضع في اعتباره المواد المنشورة في الأرشيف الأوروبي ودائرة كبيرة من الباحثين الروس والسوفيت والأوروبيين . ويعد كتاب جيورجيف من الكتب الهامة لاحتواءه على تفاصيل عديدة لها علاقة مباشرة بالدبلوماسية التركية وبالسياسة الخارجية لتركيا ، فضلاً عن الاستنتاجات العامة القيمة .

وتتناول مقالة ي.ن. كوشيفا واحدة من المشكلات التي لم تتناولها الدراسات التاريخية الأوروبية بالبحث ، ونعني بها مقدمات التحالف الروسي الفرنسي الذي لم يتحقق إبان حكم القيصر نيكولاى الأول (٩٥) ، وهى القضية التي أُرقت الدبلوماسية التركية وأولاهها السفير ووزير خارجية الإمبراطورية العثمانية فيما بعد مصطفى رشيد باشا ومعه حكومة السلطان اهتماماً كبيراً .

وقد قمنا كذلك باستخدام بحوث المؤرخين الروس قبل ثورة ١٩١٧ لوصف السياسة الشرقية للدول الأوروبية . ومن أمثلة هذه البحوث ما قام به س. جوربانيوف (٦٥) ، ب.أ. نولدى (١١٥) ، س. س. تاتيشيف (١٣٢) وغيرهم . وعلى الرغم من وجود بعض الخلل المنهجى فيها فهى أعمال غاية فى الأهمية نظراً لما تحويه من مادة واقعية . وفى كتاب س. س. تاتيشيف ، الذى يستند إلى مادة تسجيلية ووثائقية غزيرة ، من بينها مواد من الأرشيف الروسى والنمساوى والإنجليزى والفرنسى ، نقابل معلومات متناثرة من تاريخ الدبلوماسية العثمانية ، وقد أورد تاتيشيف فى كتابه

معلومات هامة بالنسبة لموضوع دراستنا من بينها تصريح نامق باشا ، السفير التركي لدى لندن في الفترة من ١٨٣٢ وحتى ١٨٣٣ والذي يفيد أن السلطان لن يسمح بالتدخل المشترك للدول الأوروبية في شئونه ، وهناك إشارة في تصريح السفير لإمكانية قيام تحالف روسي فرنسي الأمر الذي أثار قلق إنجلترا والنمسا وغيرها من الدول ، إلا أن الأحداث التي تمس الإمبراطورية العثمانية قد جرى عرضها في تسلسل زمني يفتقد إلى الدقة .

أما أعمال مؤرخي أوروبا الغربية البورجوازيين والمتعلقة بالسياسة الشرقية للدول الأوروبية ، على الرغم مما يميزها من بعض التحيز ، إلا أنها تحتوي على مواد واقعية قيمة . وقد اعتمدنا من بينها على أعمال سواء لمثلي التوجه الليبرالي في التاريخ مثل أ. ديبيدور ( ٧١ ) ، ف. بيدير ( ١٨٠ ) ، ف. رودكي ( ١٨٢ ) ، أو لمثلي الاتجاه الرجعي المحافظ مثل ف. بايلي ( ١٥١ ) ، ف. موصلي ( ١٧٨ ) وغيرهم .

أولى أ. ديبيدور اهتماماً كبيراً للتنافس الإنجليزي الفرنسي في الشرق . بينما احتوت دراسة ف. بايلي على مادة وثائقية كبيرة من الأرشيف الإنجليزي ، من بينها مذكرة مباحثات بالمرستون مع مصطفى رشيد باشا وزير خارجية تركيا في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٣٩ أوردها المؤلف في الملحق . عرض مصطفى رشيد في هذه المباحثات وجهات نظره حول طبيعة الإصلاحات التي كان قد اعتزم اتخاذها وموقفه من وضع المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية ودور تدخل الدول الأوروبية في الإصلاحات التركية .

استخدم ف. موصلي في كتابه بصورة رئيسية مواداً من الأرشيف الروسي تحتوي على وصف تفصيلي للنشاط الدبلوماسي للسفير مصطفى رشيد إبان عمله في لندن في بداية عام ١٨٣٩ من أجل عقد المعاهدة الإنجليزية التركية ضد محمد علي .

ومن البحوث اللافتة للاهتمام ما قام به المؤرخ الإنجليزي ل. ل. براون حول تاريخ تونس إبان ولاية أحمد بيه ( ١٨٣٧ - ١٨٥٥ ) ( ١٥٤ ) . قام براون بتحليل السياسة الخارجية لبאי تونس ، وهو من رعايا الإمبراطورية العثمانية ، والذي كان يسعى - مع ذلك - لتوسيع حدود استقلاله عن الحكومة المركزية . كان أحمد بيه ، الذي استخدم فرنسا من أجل تحقيق هذا الهدف ، يرى أن من المفيد له ألا يقطع تبعيته السياسية بالباب العالي بشكل نهائي حتى لا يصبح لقمة سائغة لفرنسا . وقد سمح لنا الوصف الذي قدمه براون للسياسة الخارجية لأحمد بيه أن نضع تصوراً أكثر اكتمالاً لجوهر التنافس التركي الفرنسي في تونس . ويضم كتاب براون معلومات تفيد سعي إنجلترا لإعاقة فرنسا عن القيام ببسط نفوذها على تونس .



نتناول مقالة الباحث الفرنسي ز. مانتران ( ١٧٦ ) تحليلاً لحالة الجزائر وتونس وطرابلس في نطاق الإمبراطورية العثمانية ، ولهذه المقالة أهمية مؤكدة في إلقاء الضوء على السياسة الخارجية للإمبراطورية العثمانية فما يتعلق بالأقاليم المذكورة .

وتكتسب مقالة الباحث الإنجليزي ك. ف. فندل ( ١٦٦ ) أهميتها من المعلومات المفيدة التي تتناول بالتفصيل بنية عدد من المؤسسات العثمانية من بينها تلك المؤسسات التي تولت شئون السياسة الخارجية قبل ثلاثينيات القرن التاسع عشر وما تلاها في سنوات . على أن الباحث قد ركز كل اهتمامه على الحفاظ على التقاليد العثمانية فقط ، لا على التغيرات المبدئية التي طرأت على الدبلوماسية العثمانية في تلك الفترة مما قلل من قيمة مقاله .

ويولى العالم الأمريكى ج. ك. هورفيتس في مقاله المعنون " أوربة الدبلوماسية العثمانية " ( ١٦٩ ) اهتمامه بالجوانب التي لم تدرس على نحو كاف من تاريخ هذه المشكلة ويقترح تقسيم مراحل تطورها إلى فترات محددة .

تناولت أعمال المؤرخين الأتراك بالبحث عدداً من المشكلات المتعلقة بالدبلوماسية العثمانية مباشرة . وإن كان من الضروري أن نشير هنا إلى قلة هذه الأعمال . فلم يصدر باللغة التركية سوى بحث واحد مكرس على وجه الخصوص للصراع التركي المصري في الفترة من ١٨٣١ وحتى ١٨٤١ . وهو كتاب شيناس ألتونداج عن انتفاضة محمد على باشا ( ١٩٨ ) . وللأسف فلم ينشر سوى الجزء الأول من هذا العمل الذي يلقي بالضوء على أحداث الأعوام من ١٨٣١ وحتى ١٨٣٣ ، أى فترة بداية الصراع . استخدم ألتونداج مواد الأرشيف التركي ، وعلى أساس هذه المواد قدم وصفاً تفصيلياً لمهام ونتائج بعثة السفير التركي نامق باشا في العواصم الأوروبية عامى ١٨٣٢ ، ١٨٣٣ . وقد أخبرنا ألتونداج بمحتوى التعليمات التي أبلغت للسفير والتي تضمنت شروط تسوية الصراع كما طرحها السلطان لإبلاغها للمسؤولين في أوروبا .

بددت الدراسة التي قام بها ألتونداج الغموض حول مشكلة الأعمال الدبلوماسية التي تولاهها نامق باشا والتي تعرضت لتفسيرات متضاربة وغير كاملة . وقد تناول الباحث بالتحليل النتائج التي ترتبت على عقد معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، وكان منصفاً عندما أشار إلى أن هذه المعاهدة قد عملت على ازدياد حدة التنافس بين الدول الأوروبية الأمر الذي كان مفيداً للسلطان التركي .

انصب اهتمام المؤرخ التركي الشهير أ. ز. كارال في كتابه الشامل "تاريخ تركيا" ( المجلد الخامس ) ( ٢٠٨ ) على بداية فترة الصراع ونهايتها . وقد أشار في هذا الكتاب إلى بعض النتائج الإيجابية التي أسفرت عنها معاهدة أونكيار إيسكيليسى عام

١٨٣٢ ، وتعرض لأسباب انتفاضة محمد علي ، دون أن يتعرض للمقدمات الاجتماعية والاقتصادية لها . ويتعرض هذا العمل الجامع الذي وضعه خبير التاريخ التركي إلى قضايا أخرى ذات علاقة بتاريخ الدبلوماسية العثمانية من بينها أسباب سياسة العزلة التي انتهجتها الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية القرن الثامن عشر والظروف التي دفعتها لعقد علاقات وثيقة مع أوروبا .

يكرس أ. كوران بحثه المعنون " السياسة العثمانية ( ١٨٢٧ - ١٨٤٧ ) الموجهة ضد احتلال الفرنسيين للجزائر " الصراع الذي خاضته الدبلوماسية العثمانية من أجل إعادة الجزائر التي احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠ إلى كتاب الإمبراطورية العثمانية . ويعتمد البحث على مواد الأرشيف التركي ، ويضم معلومات حول نشاط السفراء الأتراك في لندن (نوري أفندي) وفي باريس ( مصطفى رشيد ) في الأعوام من ١٨٣٥ إلى ١٨٣٧ .

كتب كوران أيضاً مقالاً تناول فيه العلاقات الفرنسية الجزائرية قبل عام ١٨٢٧ (٢١٦) . استخدم فيها عدداً كبيراً من المراجع ، كما استند إلى المصادر الفرنسية والتركية . ويضم المقال معلومات تفصيلية عن الأحداث التي تذرعت بها فرنسا لإحتلال الجزائر . ويرى كوران أن سبب الإحتلال هو سبب جيوبوليتيكي: " الإمبراطورية العثمانية بعيدة ، أما فرنسا فقريبة " ( ٢١٥ ، ص ٦١ ) .

تتناول مقالة ج . بيلسيل حول السياسة الخارجية للباب العالي في فترة التنظيمات الإصلاحية ، بشكل أساسي ، مشكلات ضمانات تكامل الإمبراطورية العثمانية التي راحت الدول الأوروبية تتحدث عنها للمرة الأولى في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ (٢٠٣) . وقد عرض الكاتب القيمة النسبية للضمانات الأوروبية .

أما الباحث ف. ر. أونات فقد نجح في جمع معلومات حول السفراء الأجانب الذين أرسلوا إلى أوروبا فيما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر والتقارير التي أرسلوها لحكومة السلطان (٢٢٨) .

كذلك كرس أ. ن. كورات بحثه المختصر لتاريخ العلاقات الدبلوماسية التركية الإنجليزية (٢١٧) . كما وضع كورات أيضاً مقالاً هاماً للغاية حول السياسة الخارجية للإمبراطورية العثمانية في مطلع القرن الثامن عشر عندما كانت وما تزال تتبع مبدأ

العزلة وقبل أن تضعفها الحرب مع " الحلف المقدس " (١) دون أن تتدخل في الحروب الأوروبية التركية ، على الرغم من كل الجهود التي بذلتها السويد وفرنسا (٢١٨) .

وللأسف فإننا لم نستطع الحصول على عدد من أعمال المؤلفين الأتراك .

مثلت اتفاقية التجارة الإنجليزية التركية عام ١٨٣٨ واحدة من القضايا المركزية للسياسة الخارجية للإمبراطورية العثمانية في الفترة محل الدراسة . وقد تطلب تحليل شروط الاتفاقية من مؤلف هذا العمل كشف اتجاهات التطور الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية قبل عام ١٨٣٨ وتأثير شروط الاتفاقية على هذا التطور .

إن تقييم النتائج الاقتصادية المترتبة على الاتفاقية (وفي الوقت نفسه أسباب التخلف الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر) ما يزال يثير جدلاً حتى الآن . إن أغلبية المصادر الأوروبية الغربية تحاول أن تظهر السياسة الخارجية لإنجلترا باعتبارها سياسة خالية تماماً من الغرض ولا تؤكد إلا على الجوانب الإيجابية لنتائج الاتفاقية . وعلى النقيض من ذلك نجد الكثير من المؤرخين وعلماء الاقتصاد الأتراك يلفتون الانتباه إلى الجوانب السلبية فقط لهذه الاتفاقية .

وهناك تقييم عام لهذه الاتفاقية عند ماركس (٥ ، ص ٤٠٤) . ويستند مؤلف هذا العمل - عند تحليله هذه الاتفاقية - على البحوث السوفيتية التي تنعكس فيها المعلومات الخاصة بتطور إقتصاد الإمبراطورية العثمانية منذ ثلاثينيات وحتى خمسينيات القرن التاسع عشر ( انظر ٥٦ ، ص ٦ ، ١٤ - ١٧ ، ٢٦ - ٢٨ / ٦٩ ، ص ٥٠ ، ٩٠ ، ١٤٨ ، ٢٦٣ - ٣٢٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٠ - ٣٥٦ / ٧٠ ، ص ٤٥ / ٨٢ ، ص ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٥ / ٨٣ ، ص ٤٧ / ٨٨ ، ص ٤١٥ / ٩٦ ، ص ٥٩ / ٩٧ ، ص ٩٩ / ١٠٠ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، ٨٢ / ١١٠ ، ص ١٥١١ - ١٦٢ ، ١٩٢ / ١١٣ ، ص ٧٣ ، ١٠١ ، ١١٤ / ١٢٠ ، ص ١٧٨ / ١٢١ ، ص ١٤٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ / ١٢٥ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ / ١٢٦ ، ص ٤٧ / ١٢٨ ، ص ٢٨١ - ٢٩٦ ، ٣٠١ - ٣١٣ / ١٢٩ ، ص ٧٠ ) .

وقد استعنا أيضاً بأعمال المؤرخين البلغار الذين يدرسون ماضي بلادهم بشكل مكثف ومثمر ، هذه البلاد التي كانت في الفترة محل بحثنا ضمن كيان الإمبراطورية العثمانية (انظر ٥٨ ، ص ٩٨ / ٩٤ / ١٠٥ ، ص ١٢٥ - ١٢٨ ، ١٧٤ ، ١٩٧ - ٢٠٦ / ١٣٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٨ - ٤٩ ، ٥٢ / ١٣٨ ، ص ٤٦ ، ٥٢ ، ١٨٥ - ١٨٦ ، ١٩٥ - ١٩٦ ، ٢٦٧ / ١٨٨ ، ص ٨٣ - ٨٥ ) .

١- حلف رجعى قام بين النمسا وبروسيا وروسيا ، وقع في باريس في ٢٦/٩/١٨١٥ بعد سقوط إمبراطورية نابليون الأول ، وتتلخص أهدافه في ضمان قرارات مؤتمر فيينا ١٨١٤ - ١٨١٥ وإخماد الثورات وحركات التحرر القومى . وقد انضمت فرنسا إلى هذا الحلف عام ١٨١٥ ومعها بعض الدول الأوروبية الأخرى وقد سقط هذا التحالف فعلياً في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين بسبب التناقضات بين الدول الأوروبية ونمو الحركات الثورية (المترجم) .

وهناك معلومات قيمة حول مستوى اقتصاد مختلف مناطق الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر (تتناول نظام الإحتكار والبيع الجبرى حتى عام ١٨٣٩ ، والطابع المعوق لسياسة جباية الضرائب التى انتهجها الباب العالى قبل وبعد عام ١٨٣٩ ، والإنتاج الزراعى والإصلاحات التى جرت فى الشئون المالية ونمو الرواج التجارى بعد عام ١٨٣٩) وهذه نجدها فى مؤلفات الأوروبيين الذين عاشوا فى هذه المناطق واتيحت لهم فرصة دراستها (انظر ٢٧، ص ٢٤٣-٢٤٤ / ٣١، ج١، ص ٢٨٥ / ج٢، ص ٢٨٣، ٢٨٦-٢٨٧ / ٣٣، ص ٢٥٨

٢٨٣ - ٢٩٥ / ٣٥، ص ٦٧ - ٦٨ / ٢٣٧ العدد ٩، ص ١٢٤ / ١٤١، ص ١٢٩ / ١٦٣، ص ١٠٢-١٠٣ / ١٨٩، ص ٣١٩، ٣٢٥، ٣٧٦ - ٣٧٩، ٣٩٠).

وقد استعنا بالمقالات المتخصصة وبعدد من المعلومات وردت فى مؤلفات الكتاب الأتراك المكرسة لدراسة مختلف جوانب النمو الإقتصادى للإمبراطورية العثمانية (انظر ٢٠٠، ص ٥٤، ٦٩-١٧٧ / ١٥٣، ص ١٣٩-١٤٠ / ٥٠٧، ص ٢٨ / ٢٠٤، ص ٦٨، ٩١-٩٣ / ١٦٤، ص ٧٩-٨٠ / ٢٠٦، ص ١١٠-١١١ / ٢٠٨، ص ١٧٧ / ٢٠٩، ص ١٢١، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٤٢-٢٥٠، ٢٥٦-٢٥٩، ٢٨٥-٢٨٦ / ٢١٢، ص ١٧، ١١٩-١٢٢ / ١٧٠، ص ٩٩-١٠٠ / ٢٤٨، ص ١٩١-٣١٦، ٣٦١، ٣٦٨، ٣٧٦ / ٩٢، ص ٥-١٧ / ١٧٢، ص ٤٧، ٥١، ٥٣ / ٢٢٠، ص ٤-١٢، ١٥ / ٢٢٤، ص ١-٢، ٢٤ / ٢٢٦، ص ٦٦، ٦٩-٢٧٢، ٨١-٨٧).

ومن المواد الموضوعية المفيدة التى استندنا إليها أيضاً بحوث المؤرخين الروس قبل الثورة والأوروبيين الغربيين التى كتبت فى القرن العشرين حول مستوى نمو التجارة والإقتصاد بالإمبراطورية العثمانية ( انظر: ٨٠، ص ١٥٦ / ١٠٦، ص ٧٦-٨٥، ١٥٠، ١٨٨، ٢٢٤ / ١٢٤ ج١، ص ٣٠٦-٣٠٧ / ١٦٢، ص ٧-٨ / ١٧٧، ص ٣٩٥ / ١٨٠، ص ١١٨، ١٢٤-١٢٥، ١٢٧، ١٨٧).

ومن أجل أن نصل إلى تقييم كامل للمشكلات الخارجية للإمبراطورية العثمانية فقد قمنا فى هذا العمل ببحث الأنشطة الإصلاحية التى قام بها مصطفى رشيد باشا . وقد كانت الإصلاحات الداخلية ذات صلة مباشرة بالسياسة الخارجية ، إذ أن الحفاظ على وحدة الدولة وخاصة أقاليمها الأوروبية كان مرتبطاً بتحسين الوضع الداخلى للبلاد . بالإضافة إلى ذلك فإن مصطفى رشيد وضع فى حسبانته أن القيام بالإصلاحات سوف تظهر آثاره على نحو إيجابى على رأى العام للدول الأوروبية ، ومن ثم فإنها سوف تساعد بذلك على حل مشكلات السياسة الخارجية بشكل مناسب .

وقد أشار فردريك إنجلز إلى الطابع البورجوازي للإصلاحات التي تمت في الإمبراطورية العثمانية ( انظر: ١٠ ، ص ٤٦٨ ) وهذه الخاصية الرئيسية للتنظيمات الإصلاحية قد أكدها أيضاً المؤرخون السوفيت .

وهناك ثلاث وثائق وضعها مصطفى رشيد ويمكن من خلالها التعرف على برنامج الإصلاح<sup>(١)</sup> وعلى التحولات التي كان مصطفى رشيد هو صاحب المبادرة فيها .

يضم كتاب د. كاينار الذي ذكرناه أنفا مادة وثائقية قيمة (٤٨ ، ص ٨٦ ، ١٦٤ - ٣١٦) ، وخاصة تلك الوثائق الخاصة بالإجراءات التي اتخذها الباب العالي الذي سعى لأن يوصل لكل قطاعات المواطنين مغزى الإصلاحات ، وكذلك الوثائق المتعلقة بعلاقة الدوائر الحاكمة بالموظفين تجاه الإصلاحات وعن الإصلاحات نفسها وموقف الدول الأجنبية منها ، ثم ما يتعلق منها بالدور الذي قام به مصطفى رشيد في هذه الإصلاحات .

وتحتوي مؤلفات الكتاب الذين عاصروا التنظيمات الإصلاحية ( انظر: ٢٧ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ / ٢٨ ، ص ٤٦ ، ٤٩ / ٥٣ ، المجلد ٥ ، ص ١٠٦ ، المجلد ٨ ، ص ٣٩٠ ) معلومات قيمة عن التنظيمات ومنها ما جاء في المؤلف الشهير الذي وضعه إ. انجلارد ، قنصل فرنسا في بلجراد والذي خصصه للتنظيمات الإصلاحية (١٦٣) .

كذلك أولى علماء الدراسات التركية السوفيت أهمية كبيرة للإصلاحات التي جرت في الإمبراطورية العثمانية ( أنظر: ٨٢ ، ٩٩ / ٧٧ ، ص ٦٨ ، ١١٠ ، ص ١٠٩ - ١٢٦ ، ١٣٦ - ١٩٨ / ١٠٠ ، ص ٦٨ - ٧٠ / ١٢١ ، ص ٣٩ - ٤٢ ، ٥٠ - ٥٥ ، ١٢٥ ، ١٢٨ - ١٢٩ ، ١٤٦ ) . وقد أصبح تاريخ الإمبراطورية العثمانية في العقدين الأخيرين هدفاً لاهتمام بالغ من جانب عدد من العلماء الأجانب الذي كتبوا مقالات وكتب في الموضوع المذكور ( أنظر: ١٥٦ ، ١٥٨ ، ص ٧٨ ، ١٨٥ ، ص ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ )<sup>(٢)</sup> . وقد أخذنا في اعتبارنا أن نعرض في كتابنا هذا للمواد الحديثة والإستنتاجات التي تناولت العمليات الداخلية والتغيرات بما فيها الأيديولوجيا التقليدية .

١- نص خطي جولخانه ١٨٣٩ ترجم إلى اللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية ، وقد صدرت طبعاته باللغات المذكورة ، إلى جانب الطبعة التركية عدة مرات ( أنظر ٢٠٨ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٨ / ٤٨ ، ص ١٧٦ - ١٨٠ / ٣٩ ، ص ١٧١ - ١٧٥ / ٤٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ ) . للإطلاع على محضر مباحثات مصطفى رشيد مع المرستون التي جرت في الثاني عشر من أغسطس ١٨٣٩ ، انظر ١٥١ ، ص ٢٧١ - ٢٧٦ ، وعلى مذكرة مصطفى رشيد باشا التي أرسلها إلى مترنيخ في مارس ١٨٤١ ، ( انظر ١٧٧ ، ص ٣٨٢ - ٣٩٨ ) .

٢- لمزيد من الإطلاع على تفاصيل الكتابات التاريخية الغربية والتركية المعاصرة حول موضوع هذا الكتاب انظر أيضاً المرجع ( ١٤٠ ) والمرجع ( ١٥٧ ) .

كما أولينا في كتابنا اهتماماً كبيراً لأكثر مشكلات العلاقات الدولية حدة في تلك الفترة ، وهي الصراع التركي المصري ، سعى السلطات العثمانية لإعادة الجزائر التي استعمرتها فرنسا ، تفريغ خطط اليونان التي كانت تطمح في توسيع أراضيها من قوتها ، ثم التنافس التركي الفرنسي في تونس . وبطبيعة الحال فإن البحث الذي قمنا به لا يزعم الإحاطة التامة بمشكلات العلاقات الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر للإمبراطورية العثمانية من جميع جوانبها . غير أننا التزمنا فقط بتلك الموضوعات التي عملت الإمبراطورية العثمانية في تلك الفترة على حلها بفاعلية تامة . لقد بحثت الإمبراطورية - في ظروف وجود المشكلة والتطور اللاحق لعملية دخولها في عجلة الإقتصاد الرأسمالي العالمي - إمكانية التكيف مع هذه الظروف ، مستغلة التناقضات الموجودة بين الدول الكبرى مطبقة إصلاحات داخلية جزئية تتلائم والتغيرات العالمية في المجالات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية . وإبان سنوات الثورة (١٨٤٨ - ١٨٤٩) وما تلاها من أحداث تفاقمت المسألة الشرقية التي تركت بدورها أثراً كبيراً في بداية مرحلتها الجديدة التي انتهت بحرب القرم ، مما أدى إلى ظهور مشكلات جديدة للإمبراطورية العثمانية .

جدير بالذكر أن جميع التواريخ في هذا الكتاب موافقة للتقويم الجريجورياني الأوروبي ، وفي حالة استخدام التاريخ الهجري فقد استخدمنا الجداول التي وضعها د. أوناط ، إ.أ. أوربيلي و ف. ف. تسيبولسكي (انظر: ٢٢٧ ، ١١٧ ، ١٤٥) .



## الفصل الأول

### الإمبراطورية العثمانية

#### في العشرينيات ومطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وعلاقتها بالدول الأوروبية

ارتبط ظهور البواكير الأولى للعلاقات الرأسمالية في الإمبراطورية العثمانية ، وخاصة في الأقاليم الغربية منها ، بالسوق الأوروبية ، وقد أسهمت هذه العلاقات في تشكل ونمو الوعي القومي في هذه الأقاليم . ونتيجة للتطور الاجتماعي والإقتصادي غير المتوازن في مختلف أقاليم الإمبراطورية ، فقد نضجت هذه العمليات في أوقات متباعدة وأصبح من الجلي أن الأتراك أنفسهم قد تخلفوا عن عدد من الشعوب الخاضعة لسلطانهم . وقد أدت هذه الظروف إلى خلق تناقضات داخلية راحت تهدد وجود الإمبراطورية العثمانية ذاتها باعتبارها دولة واحدة .

لقد استغلت الدبلوماسية الأوروبية على نحو فعال المشكلات الداخلية للإمبراطورية العثمانية في تحقيق أهدافها . وما لبثت حدة التناقضات بين الدول الأوروبية وتركيا أن اشتدت في عشرينيات القرن التاسع عشر أي في فترة الكفاح القومي التحرري للشعب اليوناني من أجل حصوله على الاستقلال .

لقد تمخض ضعف الإمبراطورية العثمانية والذي تمثل في تخلفها الإقتصادي عن الدول الأوروبية وتأزم الأوضاع الداخلية فيها عن عدد من الأحداث . ففي عام ١٨٣٠ توج الشعب اليوناني نجاحه ضد النير العثماني (١٨٢١ - ١٨٢٧) بإعلان الاستقلال. وفي العام نفسه احتلت فرنسا الجزائر، وفي عام ١٨٣١ خرج والي مصر محمد علي عن طوع السلطان، واستولى على سوريا وأخذ يطالب بالاعتراف بالسلطة الموروثة في مصر وسوريا، ثم بعد ذلك بالاستقلال . وفي عام ١٨٣١ حصلت صربيا بمساعدة روسيا على استقلالها الذاتي ، وبناء على صلح أدرنة ساهمت روسيا في إدخال تغييرات جذرية في بنية ممالك الدون تبعاً لما كان يعرف بالترتيبات العضوية أنظر ص ٢٦٣ - ٣٢٢) وهو ما زاد من حقوق هذه الممالك في الاستقلال الذاتي . وفي الثلاثينيات أيضاً بدأت فرنسا صراعها ضد الباب العالي من أجل السيطرة على تونس .

لقد أدت كل هذه الأحداث إلى أن الحكومة السلطانية أصبحت تدرك ضرورة إجراء تغييرات في نظام إدارة الدولة . وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت السياستان الداخلية والخارجية للباب العالي موجهتان لتحقيق هدف واحد: تقوية الدولة والحفاظ على وحدتها ، فمن أجل تقوية الوضع الداخلي والقضاء على تدمير الشعوب الخاضعة اتخذت الإجراءات الإصلاحية ، بينما تركز هدف السياسة الخارجية والدبلوماسية في الحفاظ على وحدة الدولة . وقد تنامي دور الأخيرة بشكل خاص بعد عام ١٨٤٣ عندما أقيمت علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية .

ومن المعروف أن اليونانيين ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب السلافية في شبه جزيرة البلقان ، كانوا يعلقون آمالهم منذ أمد بعيد على تلقي المساعدة من روسيا في تحريرهم من الهيمنة التركية . وقد أشار كل من ماركس وإنجلز مراراً إلى أن اليونانيين والسلاف كانوا يرون في روسيا نصيرهم الطبيعي ( انظر على سبيل المثال ١٢ ، ص ٢٢ ) .

غير أن سياسة روسيا تجاه حركات التحرر القومي في ذلك الوقت اتسمت وبشكل واضح بالازدواجية . فمن ناحية ، سعت روسيا لاستغلال هذه الحركات للحصول على مكاسب شخصية تحت ستار أهداف نبيلة مثل مساعدة أخوة الدين المضطهدين . ومن ناحية أخرى أدت السياسة العامة للحلف المقدس والذي كان من أهدافه مقاومة الحركات الثورية وحركات التحرر القومي وسعت دول الحلف للتعاون الناجح مع الحكومة المركزية للإمبراطورية العثمانية إلى تذبذب السياسة الروسية وعدم الثبات على مواقفها .

وبعد إعلان استقلال اليونان عملت إنجلترا وفرنسا على تصعيد الصراع ضد التأثير الروسي في اليونان . لقد كانت دول أوروبا الغربية تخشى أن تصبح الدولة اليونانية القوية نصيراً للسياسة الروسية . كما لم ترغب هذه الدول أيضاً في إضعاف الإمبراطورية العثمانية ، إذ كانت ترى فيها حاجزاً ضد روسيا ( ١٤٨ ، ص ٤٣ - ٦١ ، ١٤٩ ، ص ٦١ ) . ولهذا فإن إنجلترا وروسيا وفرنسا هي التي قامت برسم حدود اليونان ، فأدخلت فيها المناطق الخالية من احتياطات المواد الخام والأراضي الأقل خصوبة . كما ظلت كريت وجزر أيونيا بسكانها اليونانيين والتي احتلتها إنجلترا منذ ١٨٠٩ إلى جانب عدد من جزر بحر إيجه<sup>(١)</sup> خارج الحدود اليونانية .

بعد عام ١٨٣٠ انفجرت الخلافات التركية اليونانية وعلى الأخص الخلافات الإقليمية ، وهذه أشدت حدتها في العقود التي تلت ذلك .

سعت الدول الكبرى للحفاظ على الوضع الراهن فيما يتعلق بالعلاقات اليونانية التركية والحيولة دون وقوع أى صدام عسكرى بينهما ، إذ أن مثل هذا الصدام كان من الممكن أن يكون سبباً لنشوب حرب بين الدول الكبرى ذاتها .

ظلت اليونان لسنوات طويلة بعد حصولها على الاستقلال عاجزة عن بلوغ الاستقرار سواء داخل الدولة ، وذلك بسبب الصراعات داخل الأحزاب أو الصراعات الطبقية ، أو خارجها ، أى فى علاقاتها من الإمبراطورية العثمانية ، وبطبيعة الحال فإن كل محاولات اليونان التي بذلت فى هذه الظروف من أجل استعادة وحدتها باءت بالفشل . على أن الدول الأوروبية استغلت الطموحات القومية لليونانيين باعتبارها وسيلة لتقوية تأثيرها فى اليونان . كانت الأحزاب اليونانية تناصر إما التوجه الإنجليزى أو الفرنسى أو الروسى . وقد دفع ذلك الباب العالى لأن يتخوف من أن تؤدي حماية الدول الأوروبية إلى مساعدة اليونان فى توسيع حدودها (٢٠٢ ، ص ١٤) . وقد أعطت كل من فرنسا والنمسا وروسيا المبررات المرة تلو الأخرى لمثل هذه المخاوف (١٣٢ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٤٧٣ ، ٦١٤ ، ١٢٤ ، ج ٢ ، ص ١١٥ ، ١١٨ - ١٢٠) .

أما المشكلة الثانية والهامة التي واجهت الباب العالى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فكانت انتفاضة محمد على باشا والى مصر الذى عينه الباب العالى فى هذا المنصب عام ١٨٠٥ .

أصبح محمد على الحاكم المطلق السلطة لمصر بعد أن تخلص فى عام ١٨١١ من المماليك ( مع استحسان صامت من جانب الباب العالى ) . وارتبطت به كلية الصفوة التي دفعها للأمام بعد أن أنعم عليها بالأراضى . كان محمد على ينظر إلى مصر كضيعة يمتلكها وتمثل له مصدراً للثراء . إن التبعية الهشة بالسلطة المركزية ( وهو ما كان يميز إلى حد كبير علاقة الحكام بالأقاليم الأخرى بفضل النظام الإدارى الذى كان قائماً فى الإمبراطورية العثمانية ) والسلطة غير المحدودة فى البلاد سمحت لمحمد على بإقامة احتكارات حكومية تقدر بـ ٩٥٪ من البضائع المصدرة للخارج ( ٤٨ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، انظر أيضاً ٢٧ ، ص ٢٤٤ ، ٥٦ ، ص ١٤ - ١٩ ، ٢٥ ، ٨٢ ، ص ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ١٢٠ ، ص ١٧٨ ، ٢٤ ، ص ٢٤ ) . إن هذا المدخل الجديد لم يكن بمقدور أى حاكم آخر أن يسمح به لنفسه . لقد ساعد قرب محمد على من الأسواق

الأوروبية ودعم فرنسا له إلى جانب العائدات الضخمة التي حصل عليها أن يقيم جيشاً جديداً منظماً وأسطولاً جباراً . قام محمد علي ، بموافقة الباب العالي ، بإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية وثقافية باسمه مع الدول الأوروبية كان أغلبها مع فرنسا . وكان جيشه مدرباً على الطريقة الأوروبية ، مزوداً بضباط فرنسيين . وقد تأسست في مصر معاهد تعليمية عمل بها مدرسون أوروبيون . كما تجاوز نجاح الإصلاحات وتحديث الجيش والتعليم فيها قدراً أكبر بكثير من إصلاحات السلطان التركي سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) حيث لم يعد في مصر بعد القضاء على المماليك أي معارضة داخلية قوية .

بدأ تمرد محمد علي بالنسبة للإمبراطورية العثمانية تقليدياً وبدا وكأنه لا يمثل تهديداً لوحدة الدولة . لم يكن تمرد حكام الإقاليم ضد السلطة المركزية في الإمبراطورية العثمانية يحمل في أغلب الأحوال طابع الوقوف في وجه السلطان ، ولم يكن يستهدف الانفصال عن الإمبراطورية . وعلى العكس من ذلك كان الإقطاعيون المتمردون يرون أنفسهم أكثر خدم السلطان إخلاصاً . عن مثل هذه المواقف كتب بازيلى قائلاً: " كان هذا الشكل الخاص من التمرد معروفاً منذ القدم وممكناً في الشرق فقط ، لم يكن الباشوات يعلنون تمردهم على السلطان ، الذي ظلت حقوقه الروحية والسياسية مصونة بصفته خليفة رسول الله ، وإنما كان التمرد موجهاً ضد الحكومة التي عينها هذا السلطان ، وحيث إن التناقضات كثيراً ما تتجاوز وتتشابه ، فإن الاستبداد الشرقي يقف هنا جنباً إلى جنب مع راديكالية الغرب " ( ٢٧ ، ص ١٠٤ ) .

كانت الحكومة المركزية تلجأ أحياناً لاستغلال التمردات لإقصاء الموظفين الذين لم تعد لهم حاجة إليهم وذلك على أيدي أعدائها من المتمردين ( ٢٧ ، ص ١٠٠ ) وقد طبق هذه الوسيلة نفسها الباشوات ( الولاة ) على من يتبعونهم من إقطاعيين . كتب الدبلوماسي البروسي والمراقب الحصيف للأحداث ج. روزين يقول إن ولاة الأقاليم كانوا " تارة ما يستغلون النزاعات القديمة بين القبائل ، وتارة ما يغرون بالوعود إقطاعياً ضد إقطاعي بالرضاء الدائم للديوان عليه ، وتارة ما يضربون الأضعف بالأقوى ، وعندما يطالب المنتصر الذي أنفق على الصراع أفضل جزء من أملاكه وضياعه أملاً في مكافأة تعوضه عما قدمه من خدمات للباشا كان الولاة يتعاملون معه بلا رحمة باعتباره متمرداً أو - في نهاية الأمر - يعزلونه على نحو غادر " ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٣٨ ) .

١- تم رسم الحدود بين الإمبراطورية العثمانية واليونان في عام ١٨٣٢ . وقد مرت الحدود عبر خط خليجي أرتا وفولوس . وحول مباحثات الدول الكبرى والدولة العثمانية بشأن تقسيم الحدود في الفترة من عام ١٨٢٨ وحتى عام ١٨٢٩ ( انظر ١٤٧ ، ص ٧٥ - ٧٧ ، ٨٣ - ٨٥ ، ١٠٠ وغيرها ) .

أخذت الخلافات بين محمد علي والسلطان في التراكم بالتدريج . كان السلطان قد وعد محمد علي بتوليته كريت وسوريا جزاء ما قدمه من عون في قمع الإنتفاضة في اليونان . ولكن بعد تحطيم الأسطول المصري على يد الأسطول الأوروبي الموحد في نافارين في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ ، غادر الجيش المصري المورة دون إذن السلطان . كما لم تقدم مصر للسلطان أى مساعدة أثناء الحرب الروسية التركية عامي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ حيث لم يستجب محمود الثاني لرغبات محمد علي في تعيين قائداً للجيش في الأناضول وتعيين ابنه إبراهيم قائداً لروميلييه . وبعد توقيع صلح أدرة عام ١٨٢٩ بين روسيا والإمبراطورية العثمانية حدد محمد علي طلبه بالحصول على الاقاليم التي وعد بها من قبل ( كريت وسوريا ) . لكن محموداً اكتفى بإعطائه كريت فقط جزاء ما أظهره محمد علي من عصيان .

لم يمض وقت طويل إلا وقد قررت الحكومة السلطانية معاقبة محمد علي ، وهو ما علم به من جواسيسه المندسين في بلاط السلطان . وقد اتخذ محمد علي من هذا الأمر ذريعة للقيام بمحاولة مستقلة للاستيلاء على سوريا . ففي ديسمبر عام ١٨٣١ استغل محمد علي الخلافات التي تفجرت بينه وبين عبدالله باشا والي عكا فوجه إليه جيشاً قوامه ٢٤ ألف رجل . وطبقاً لمرسوم السلطان اعتبر محمد علي بفتوى أصدرها شيخ الإسلام في ٢٣ أبريل ١٨٢٣ عاصياً ( ٢٠٨ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، انظر أيضاً ٧٤ ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٩٧ ، ص ٩٢ ) .

بعد أن استولى محمد علي على سوريا أمر جيشه بالتحرك تجاه الأناضول ليرغم السلطان على الاعتراف بحقوقه في الأراضي التي احتلها . وقد هددت هزيمة قوات السلطان عند قونية عام ١٨٣٢ وتقدم جيوش الباشا المصري نحو أسطنبول وجود الأسرة الحاكمة .

في نهاية عام ١٨٣٢ أرسل السلطان محمود الثاني السفير نامق باشا<sup>(١)</sup> إلى العواصم الأوروبية بهدف استيضاح موقف هذه الدول من تمرد محمد علي ومن السلطان نفسه وأوصاه ، في حالة توصله إلى نتيجة إيجابية ، أن يطلب من إنجلترا المساعدة . من نوفمبر عام ١٨٣٢ وحتى مارس ١٨٣٣ زار نامق باشا كل من فيينا

١- نامق باشا ( ١٨٠٤ - ١٨٩٥ ) : تلقى تعليمه في الإدارة السلطانية (Dirani Hümayun Kalemi) كان على معرفة باللغة الفرنسية وعمل مترجماً لدى الباب العالي ، شارك في الحرب التركية الروسية عامي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ . زار بطرسبورج بصحبة خليل باشا بعد توقيع صلح أدرة . عمل في الفترة من عام ١٨٣٢ وحتى ١٨٣٣ سفيراً خاصاً لدى العواصم الأوروبية ، ومن سبتمبر عام ١٨٣٤ حتى مارس ١٨٣٥ سفيراً دائماً لدى لندن . وفي عام ١٨٣٥ شغل منصب نائب القبودان دار . شارك في عام ١٨٣٦ في حرب طرابلس ، شغل بعدها مناصب الوالي والسرعسكر ووزير التجارة ووزير البحرية وغيرها من المناصب .

وباريس ولندن وبرلين وبطرسبورج . وعلى الرغم من استقباله في لندن بحفاوة كبيرة وإهدائه عدداً من المدافع ، إلا أنه لم يتلق وعداً بالمساعدة العسكرية ( لمعرفة الأسباب انظر: ١٩٨ ، ص ٨٢ ، ٩٥ ، ١٩٩ ، ص ٢٤٠ - ٢٥١ ، ١٨٢ ، ص ١٤ ، ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٥٣ ) .

ربما لم تكن إنجلترا - في الفترة الأخيرة التي عمل فيها نامق باشا سفيراً لبلاده - ترى في ثورة محمد علي اعتداء على وحدة الإمبراطورية العثمانية ، ومن ثم فإنها تعاملت مع هذه الثورة باعتبارها تمرداً عادياً ( ٢٠٨ ، ص ١٣٣ ، ١٥١ ، ١٣٥ ، ١٩٨ ، ص ٢٤٦ ) . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت إنجلترا في النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر عاقدة العزم على إقامة علاقات ودية مع باشا مصر وفتح طريق أكثر قرباً إلى الهند عبر أراضي ما بين النهرين ومصر .

على أية حال فإنجلترا لم تخمن أن محمود الثاني الذي اضطرت الظروف لقبول مساعدة عسكرية من روسيا سوف يعقد معها وبعد عدة أشهر ( في يونيو ١٨٣٣ ) معاهدة أونكيار إيسكيليسى للدفاع المشترك ، وهي المعاهدة التي استقبلتها إنجلترا باعتبارها انتصاراً دبلوماسياً كبيراً لروسيا .

في فبراير ١٨٣٣ وصلت قوات محمد علي إلى مدينة كوتاهية في آسيا الصغرى . وقد أثار ذلك اضطراباً شديداً في إسطنبول . قدرت الحكومة القيصريّة خطورة الموقف وهي تشاهد إمكانية الإنهيار السريع للإمبراطورية العثمانية ، وهي المعنية بالاحتفاظ " بجار ضعيف " هو سلطان تركيا ، لا جار قوي ممثلاً في شخص محمد علي ( ٢٣٤ ، مجلد ٤ ، ص ٤٣٨ ، أنظر ١٤٢ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ) ، وعلى الفور تقدمت باقتراح لمساعدة السلطان فأرسلت الجنرال ن. ن. مورافيوف إلى إسطنبول ومعه هذا الاقتراح وذلك في مطلع شهر ديسمبر عام ١٨٣٢ ( ٦٣ ، ج٢ ، ص ٢٠٧ ) وفي الثاني من ديسمبر عرض ممثل روسيا في إسطنبول بصورة رسمية تقديم مساعدة عسكرية إلى الباب العالي . ولما كان محمود الثاني في مأزق فقد وافق على الاقتراح على الفور .

وصل الأسطول الروسي الأول إلى البوسفور يوم ٢٠ فبراير ١٨٣٣ ، أما أول إنزال ( ما يزيد على خمسة آلاف جندي روسي ) فقد قام به الأسطول الروسي الثاني على الشاطئ الآسيوي للبوسفور في وادي أونكيار إيسكيليسى في ٤ أبريل . وفي الثالث والعشرين من أبريل وصل الأسطول الثالث وكان مكوناً من ٤٥٠٠ جندي آخر تقريباً ( ١٣٢ ، ص ٣٦٧ ) .

استقبلت دول أوروبا الغربية وجود الأسطول الحربي الروسي في البوسفور بانزعاج بالغ ، عندئذ راحت تلح في النصيح على محمود الثاني بأن يسارع بالتصالح مع هذا التابع العنيد وأثارت لديه المخاوف من جراء النيات العدوانية لروسيا ، نتيجة



لذلك أصدر محمود الثاني فرماناً يؤكد فيه حق محمد علي في إدارة سوريا وكريت وجدة ( في الجزيرة العربية ) . وعلاوة على ذلك فقد أنعم عليه محمود الثاني بالآلات والصناجق في سوريا وفلسطين: صيدا ، طرابلس ، القدس ، نابلس .

في يناير عام ١٨٣٣ يتوجه إلى مصر المشير<sup>(١)</sup> خليل رفعت باشا قائد الأسطول<sup>(٢)</sup> ومعه رئيس إدارة الشؤون الخارجية مصطفى رشيد بك وذلك بناء على خطي همايوني ( ٤٨ ، ص ٥١ - ٥٢ ) .

وعندما أحس محمد علي بما آلت إليه السلطة المركزية من ضعف لم يكتف بما قدمه له السلطان من تنازلات فراح يطالب بأراض إضافية: أيلات الشام ( دمشق ) وحلب في سوريا ، وصناجق إيتشل وآلبي في آسيا الصغرى الواقعة على سواحل البحر الأسود . وقد هدد محمد علي بإرسال حملة إلى إسطنبول إذا لم يجاب إلى طلبه . وهنا صرح له السفيران أنهما لا يملكان الشجاعة على إبلاغ السلطان بهذه الشروط ، على أن محمداً علياً أصر على أن يكتب إلى السلطان برغبته أو يقوم هو بنفسه بإبلاغه .

وفي إحدى المباحثات التي دارت مع خليل رفعت باشا وشارك فيها مصطفى رشيد بك تناول محمد علي السلطان بكلمات مقذعة . كان هذا الأمر مفاجئاً لموظف السلطان كما جعله يدرك أن الباشا المصري ليس خادماً مخلصاً للسلطان وأن تمرده يهدد وحدة الإمبراطورية العثمانية بأسرها .

لم تحقق المباحثات التي دارت بين ممثلي تركيا ومحمد علي في يناير ١٨٣٣ نجاحاً يذكر . واضطر السفيران أن يبعثا بمذكرة تفسيرية للباب العالي ، الذي رد بضرورة بقاء خليل رفعت باشا في الإسكندرية وعودة مصطفى رشيد بك إلى إسطنبول

١- المشير هي الرتبة الأولى بين الموظفين المدنيين ... حتى أن نائب الملك في مصر لم يكن أعلى مرتبة من المشير ... وهناك رتبة المشير أيضاً بين الرتب العسكرية ، ولكن من يحملونها هم أدنى منزلة من أقرانهم المدنيين ، ذلك أن أصحابها من العسكريين أكثر عدداً من المدنيين ، ولهذا أيضاً يتقاضون رواتب أقل كثيراً منهم " ( ٠٣ ، ص ٣١٢ / أنظر أيضاً ٨٠٢ ، ص ٢٥١ ) .

٢- خليل رفعت باشا: من أصل قوقازي ، كان في طفولته عبداً لدى خسرو باشا وابناً له بالتبني . عمل ضابطاً بالجيش النظامي وشارك في إخمد الإنتفاضة اليونانية . بعد حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ منح لقب باشا نظير ما أبداه من شجاعة وبفضل راعيه خسرو باشا ( الذي كان يشغل آنذاك منصب السرعسكر ) . وعلى مدى ستة أشهر عمل سفيراً لدى روسيا وفور عودته منها أصبح سهرراً للسلطان محمود الثاني ، ثم عين في منصب القبودان باشا ( قائد الأسطول ) ، وفي عام ١٨٣٦ عين في منصب السرعسكر . وهو آخر منصب شغله وحتى إبان حكم السلطان عبدالمجيد الثاني . وفي عام ١٨٤٠ عين عضواً في مجلس وزارة العدل ، ومن عام ١٨٤٤ وحتى عام ١٨٥٤ قام على تنظيم أمور الحكم في لبنان .

. وصل خليل رفعت باشا إلى العاصمة في ٢١ مارس ١٨٣٣ على متن سفينة فرنسية كانت في طريقها إليها . ( ١٩٨ ، ص ١١١ ) وسرعان ما بعث به الباب العالي إلى كوتاهية لإجراء مباحثات مع إبراهيم باشا قائد الجيش المصري وابن محمد علي .

أدار المباحثات مع إبراهيم باشا الدبلوماسي الفرنسي فارين ممثلاً للباب العالي ، وقد بذل فارين جل جهوده لمنع الدبلوماسية الروسية من استغلال الموقف المتردى للسلطان وزيادة تأثير روسيا على الإمبراطورية العثمانية . ولما كان السلطان يرغب كذلك في تجنب مشاركة القوات الروسية مباشرة في المعارك ضد محمد علي وعدم السماح لها بدخول الأناضول فقد وافق على الوساطة الفرنسية . أتاح الباب العالي لفارين بعضاً من حرية الحركة وخاصة فيما يتعلق بالتنازل لمحمد علي عن بعض الأقاليم ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ١٩١ ) . كان على مصطفى رشيد ، الذي صاحب فارين ممثل الباب العالي ، أن يبلغ إبراهيم أن السلطان سوف يمنح أباه ، إضافة إلى ما أنعم به عليه من قبل ، أيالات الشام ( دمشق ) . أما محمد علي فقد طالب ، كما ذكرنا من قبل ، بأيالات الشام ( دمشق ) وحلب وصناجق إيتشل وألاي . وعلاوة على هذا الطلب أضيفت - كما علمنا من تقرير مصطفى رشيد - كل من أوفاء والرقعة وأدنة ( ٤٨ ، ص ٥٦ ، ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٩٢ ) .

في الثلاثين من مارس عام ١٨٣٣ غادر إسطنبول ممثلو تركيا: مصطفى رشيد وشكيب أفندي والقائم بالأعمال الفرنسي فارين ( ١٩٨ ، ص ١١١ ) .

ويتضح لنا من تقارير مصطفى رشيد أن الباب العالي كان يدرك الدور النشط الذي اضطلع به القائم بالأعمال الفرنسي في المباحثات وكيف أنه سعى للمصالحة بين المتنافسين بعد أن أرغمهما على السير في طريق التنازلات المتبادلة . ومن المحتمل أن يكون قد اقترح على إبراهيم أن يتخلى عن صناجق إيتشل وألاي وأن يكتفى بالتنازل عن أدنة وأن يحصل من الصناجق المذكورة على أخشاب البناء بعد موافقة السلطان . نصح فارين إبراهيم أن يقرر هذا الأمر بنفسه دون أن ينتظر موافقة محمد علي . وقد أبلغ مصطفى رشيد الباب العالي بأن فارين كان يتصرف إبان إجراء المباحثات باعتباره " موظفاً مخلصاً لدى السلطان التركي " ( ٤٨ ، ص ٥٥ ) .

أظهرت الجولة الأولى من المباحثات مع إبراهيم في كوتاهية لمصطفى رشيد أن الابن عنيد مثل أبيه . لقد رفض إبراهيم الإكتفاء بدمشق وكرر مطالب محمد علي وهدد بالزحف نحو إسطنبول في حالة رفض هذه المطالب . باعت محاولات مصطفى رشيد

مداعبة المشاعر الوطنية لإبراهيم ولم تترك مسألة تذكيره بأن أوروبا باتت تعرف بأمر إنزال القوات الروسية وأن هذا أمر " غير لائق وغير مقبول " أى انطباع لديه . لم يخش إبراهيم أى شئ ، حتى التهديد بحتمية القبض عليه فى حالة إنزال قوات روسية حددها مصطفى رشيد بحوالى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف جندي ( ٤٨ ، ص ٥٤ ) .

يلاحظ من تقارير رشيد بك أنه كان يقف إلى جانب تسوية الصراع عن طريق التفاوض المباشر مع إبراهيم وأنه لم يكن معارضاً لتنازلات إقليمية . على أن الباب العالى لم يوافق على إعطاء أدنة لحمد على وأصدر أمراً إلى رشيد بك بأن ينتظر توجيهاته التالية .

فى الرابع عشر من أبريل عام ١٨٣٣ قدم فارين شروط الصلح إلى الباب العالى الذى أسرع بالإعلان عن النهاية السلمية للصراع ، على أن أدنة لم تكن ضمن الأقاليم التى أعطيت لحمد على . ورداً على ذلك لم تغادر القوات المصرية كوتاهية واتهمت السفارة الفرنسية الباب العالى بالخيانة .

وقع محمود الثانى فى حيرة من أمره ولم يعد يعرف أى المصيبتين أكبر: أن يستجيب لمطالب محمد على كلها وأن يطايع رأسه إذلاً للباشا المتمرد ، أم يسمح للقوات الروسية بالدخول إلى أراضى آسيا الصغرى . لقد أخافت الدبلوماسية الأوروبية الباب العالى من عزم الروس الاستيلاء على إسطنبول ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٨٩ ) . كانت غالبية أعضاء الحكومة التركية تقف ضد قبول المساعدة الروسية ، إذ كانوا يدركون أنه ما إن يقبل الباب العالى هذه المساعدة حتى يقوم الروس بعزله عن بقية الدول الأوروبية ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٨٠ ) .

ونتيجة لعناد محمد على وإلحاح السفارتين الفرنسية والإنجليزية ، إلى جانب المخاوف المرتبطة بوجود قوات روسية فوق أراضى الإمبراطورية العثمانية قرر محمود الثانى التضحية بأدنة وإعطائها للباشا المصرى . فى الخامس من مايو ١٨٣٣ أصدر السلطان فرماناً بتعيين محمد على حاكماً على سوريا وكيليكيا . وفى الرابع عشر من مايو تم الاتفاق فى كوتاهية<sup>(١)</sup> على وقف العمليات العسكرية بين قوات السلطان ومحمد على ، وفى نفس اليوم يبدأ انسحاب القوات المصرية من طوروس . وفى الرابع والعشرين غادرت كوتاهية آخر فصيلة مصرية ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٩٠ - ١٩٦ ) .

١- لم يكن فرمان معاهدة دولية وإنما كان وثيقة من جانب واحد هو السلطان . وعلى هذا لا تعد " معاهد كوتاهية " معاهدة بمعنى الكلمة . وقد استخدمنا بعد ذلك اصطلاح " اتفاق كوتاهية " .

بعدما زال التهديد المباشر للعرش ، قام السلطان بعقد إتفاقية دفاع مشترك مع روسيا لمدة ثمانية أعوام جرى توقيعها في الثامن من يوليو ١٨٢٣ في إسطنبول<sup>(١)</sup>. وقد عرفت هذه الإتفاقية باسم إتفاقية أونكيار إيسكيليسى نسبة إلى الوادى الذى نزلت به القوات الروسية ( غادرت القوات الروسية الشواطئ التركية بعد يومين من توقيع الإتفاقية ) . نصت الإتفاقية على التزام روسيا بتقديم المساعدة العسكرية بناء على طلب السلطان وذلك فى حالة قيام محمد على بأى هجوم جديد ، بينما تلتزم تركيا بإغلاق مضيق الدردنيل أمام السفن الحربية لجميع الدول<sup>(٢)</sup> ( انظر ٣٤ ، ج ١٢ ، ص ٥٠ )

اعتبر السلطان أن إتفاقية أونكيار إيسكيليسى تحميه من أى تمرد جديد من قبل والى مصر . كما عقد آماله أيضاً على مساعدة روسيا له فى المستقبل على قمع محمد على وإعادة ولو حتى سوريا على الأقل .

عملت المساعدة التى قدمتها روسيا إلى السلطان آنذاك إلى جانب إتفاقية أونكيار إيسكيليسى، التى رأى فيها محمود الثانى عاملاً هاماً فى قمع الباشا المصرى وربما أيضاً إلى دحره إلى الأبد ، على تقوية النفوذ الروسى . لم يكن من الممكن أن تقف دول أوروبا الغربية مكتوفة الأيدي أمام هذا النجاح السياسى الذى أحرزته روسيا والذى جاء مفاجئاً لهذه الدول جميعاً .

لقد أوجست الدول الأوروبية خيفة من شروط هذه الإتفاقية تحسباً لإندلاع حدة الصراع التركى المصرى وقيام روسيا عندئذ بدفع قواتها بحيث لا تغادر بعدها أبداً لا إسطنبول ولا المضائق .

منذ ذلك الوقت اتخذ الصراع الدبلوماسى للدول الأوروبية فى الإمبراطورية العثمانية طابعاً خاصاً حاداً ، وعلى مدى سنوات طويلة بذلت الدول الغربية جهوداً كبيرة لتجعل من إتفاقية أونكيار إيسكيليسى حبراً على ورق ، ومن أجل هذا راحت

١- حول عقد معاهدة أونكيار إيسكيليسى بمبادرة من الباب العالى انظر: ١٨ / ٩٠ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، ١٨٣ - ١٨٤ / ٦٤ ، ص ١٤١ / ١٩٨ ، ص ١٥٠ / ٢٠٨ ، ص ١٣٦ . انظر نص المعاهدة فى المرجع ٣٩ ، ص ٨٩ - ٩٢ .

٢- " كان هناك ثمة بند سرى فى معاهدة أونكيار إيسكيليسى يلزم الباب العالى بإغلاق مضيق الدردنيل فى حالة تعرض الممتلكات الروسية فى البحر الأسود للتهديد بالتدخل من جانب الأساطيل المعادية فى المضائق ، أى فى حالة دخول روسيا الحرب مع الدول الغربية . كان إغلاق الدردنيل يشترط فتح المرور أمام السفن الروسية الحربية وحليفتها تركيا عبر البحر الأسود ... وعلى الرغم من الفائدة الكبيرة التى بدا أن روسيا قد حصلت عليها من هذا البند السرى ... فإن هذا البند ق فقد فعاليته بسبب ما أحاطه من غموض " ( ٦٥ ، ص ٣٤ ) .

تسعى للحصول على موافقة الباب العالي على عقد إتفاقية مماثلة مع جميع الدول الكبرى . فلو أن مثل هذه الإتفاقية قد عقدت لفقدت روسيا حرية الحركة في حالة تجدد الصدامات العسكرية بين السلطان ومحمد علي ( ٨٥ ، ص ٥٥٩ ، ٩١ ، ص ٣٠ ، ٤٩ ، ٧٤ ، ص ٨٤٧ ، ١٣٢ ، ص ٤٢٨ ) .

لقد وقع الصدام العسكري الثاني بين جيشي الباشا المصري والسلطان في يونيو ١٨٣٩ فلم تكن الفترة ما بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ في الواقع سوى فترة سلام شكلي ، إذ واصل الجانبان خلالها سعيهما لتحقيق أغراضهما: فمحمد علي يسعى للحصول على استقلال رسمي (كان محمد علي يمتلك استقلالاً واقعياً لكنه استقلال غير راسخ)، أما السلطان فكان يهدف ، استناداً إلى سلطته العليا ، إلى قمع الوالي المتمرد وإعادة مصر إلى حكمه ، فإن لم يتيسر له ذلك فسوريا على الأقل .

تميز تمرد محمد علي عن بقية الصراعات المعتادة باستمراريته ، إلى جانب تدخل الدول الأوروبية فيه بفضل الضعف النسبي لسلطان تركيا الذي أرغم في النهاية على التوجه إلى الدول الأوروبية طلباً للعون .

شاركت كل من روسيا وإنجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا ، فضلاً عن تركيا ومصر ، في النزاع الدبلوماسي الطويل ( ١٨٣٣ – ١٨٤١ ) بسبب الصراع التركي المصري .

لقد بدا أن الصراع الدبلوماسي في تلك الفترة كما لو كان قد اتخذ له مسارين . فالدول الأوروبية جميعها كانت تحارب ، أولاً وقبل كل شيء ، ضد الزيادة المحتملة لقوة منافسيها على حساب الإمبراطورية العثمانية وخاصة في منطقة المضائق، على الرغم من أنها كانت تؤكد للباب العالي أن كلاً منها لا تسعى إلا للدفاع عن مصالحها . وفي خضم صراع الدول الأوروبية على المضائق ( وخاصة صراع الدول الأوروبية ضد روسيا ) اكتفت الدبلوماسية التركية بدور ثانوي . فالحقيقة أن الإمبراطورية العثمانية في هذه الفترة أصبحت هدفاً للمصالح الأخرى . على الرغم من أن مبادرتها في هذا الصدد اتضحت بشكل ملحوظ . وهذه المبادرة من جانب الباب العالي والدبلوماسية التركية جاءت في سياق الصراع من أجل الحفاظ على مصر ضمن كيان الإمبراطورية العثمانية . كان سعى السلطان لقمع محمد علي صادراً عن إحساسه بما تمليه عليه سلطته العليا . بينما ظل اهتمام جميع الدول الأوروبية في النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر بخصوص إعادة الأقاليم المغتصبة اهتماماً محدوداً في واقع الأمر . فقد أظهرت هذه الدول ولسنوات طويلة لا مبالاتها نحو مسألة التسوية الإقليمية بين السلطان ومحمد علي ، ساعية في الوقت نفسه لبقاء

الأوضاع الإقليمية والقانونية بينهما على ما هي عليه ( ٦٣ ، ص ٥٤ ) . وقد لوحظت هذه اللامبالاة من جانب روسيا طوال فترة الصراع بعد عام ١٨٣٣ ( ٢٣ / ٣٦ ، ج٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ / ٢٥ ، ص ٦٢ / ٦٥ ، ص ٤٤ ، ٥٥ - ٥٦ / ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٥١ / ١٣٢ ، ص ٥١٠ / ١٩٨ ، ص ٩٩ ) ومن جانب إنجلترا في النصف الأول من الثلاثينيات . وظلت فرنسا حتى عام ١٨٣٩ تؤيد بقاء الوضع على ما هو عليه ( ٦٣ ، ص ٧٣ - ٧٤ ) . ولهذا فإن مهمة الدبلوماسية السلطانية تلخصت في الحصول على موافقة الدول الأوروبية وإدخال تعديلات على شروط معاهدة كوتاهاية عام ١٨٣٣ . وحيث إن دول أوروبا الغربية كانت تخشى أن يؤدي التجدد المحتمل للعمليات العسكرية بين محمد علي والسلطان ، وفقاً لشروط إتفاقية أونكيار إيسكيليسى ، إلى تدخل عسكري جديد من جانب روسيا ، فقد راحت هذه الدول تضع العراقيل أمام عزم السلطان تجدد الصراع العسكري بهدف إستعادة سوريا ، ومن ناحية أخرى حاولت منع محمد علي من إعلان استقلاله بمصر ، إذ أن محاولة هذا أو ذاك تحقيق رغبته كان سيؤدي حتماً إلى اشتعال الحرب بين الجهات المتنازعة .

وعلى الرغم من أن التعاون بين إنجلترا وفرنسا فيما يتعلق بالسياسة الشرقية في فترة الصراع التركي المصري كان يعاني من تناقضات داخلية ومن التضارب بين مصالحهما المشتركة في منطقة البحر المتوسط ( بما فيها الجزائر ومصر ) فإنهما تراجعتا إلى خلفية الصورة في اللحظة التي ظهر فيها شبح الطموحات الروسية في الإمبراطورية العثمانية يخيم على الموقف .

وحول عدوانية السياسة الشرقية لروسيا تكررت تصريحات رجال الدولة في إنجلترا وفي فرنسا . وفي الوقت نفسه راح بالمرستون يستغل درجة المبالغة في هذه التأكيدات لأغراضه السياسية . وفي السادس والعشرين من فبراير عام ١٨٣٥ كتب بالمرستون خطاباً إلى السير وليم تمبل جاء فيه : " ليست روسيا سوى وهم كبير ، ولو أرادت إنجلترا أن تتخلص منها حقيقة ، لتخلصت منها في حملة واحدة منذ نصف قرن مضى " ( الإقتباس من المرجع ١٣٢ ، ص ٣٩٩ ) .

لاحظ المؤرخ الأمريكي ف. س. روكي أنه حتى في عام ١٨٣٦ ، أي بعد حادثة السفينة " ويكسن " <sup>(١)</sup> ، المرتبطة بازدياد حدة المسألة الشرقية ، عندما بدا أن الحرب بين روسيا وإنجلترا آنذاك أمر حتمي ، أن بالمرستون كان على قناعة تامة بأن روسيا لم تكن لديها أي نوايا عدوانية . هذا ما ذكره ( بالمرستون ) في اجتماع دورة البرلمان الإنجليزي ( ١٨٢ ، ص ٥٦ ) .

١- استولت القوات الروسية على السفينة الإنجليزية " ويكسن " ، التي أرسلت محملة بالسلاح إلى الجبلين عند سواحل القوقاز عام ١٨٣٦ .



يؤكد المؤرخ السوفيتي ي. ف. تارلي ، في معرض حديثه عن أسباب التوجه العام للسياسة الشرقية لنيكولاى الأول أن القيصر بالغ في تقديره لضعف الإمبراطورية العثمانية وكان على ثقة تامة من انهيارها الحتمى السريع ، ولهذا فإنه لم يشأ أن يفرط في نصيبه في " التركية العثمانية " ومن ثم راح يبحث عن حلفاء وهو يدرك أن روسيا بمفردها ليست فى حالة تسمح لها بمواجهة أطماع بقية أوروبا إذا ما حانت لحظة وفاة " الرجل المريض " - الإمبراطورية العثمانية ( انظر ٨٥ ، ص ٥٦١ - ٥٦٤ ) .

على أن إنجلترا استغلت بذكاء مخاوف فرنسا من جراء السياسة الشرقية لروسيا، التي دعمت موقفها في الإمبراطورية العثمانية بعقدها إتفاقية أونكيار إيسكليسى. وكانت إنجلترا على حق عندما اعتمدت على أن فرنسا لن تجرؤ على قطع " الإتفاق الودى " الإنجليزى الفرنسى بحثاً عن حل للخلاف التركى المصرى . فهذا الإتفاق ما يزال يغل يدها ولن يسمح لها أن تتحمس لدعم مطامع محمد على . وقد ظلت إنجلترا طوال فترة الصراع التركى المصرى تؤكد للباب العالى أن التعاون الفرنسى الإنجليزى بخصوص المسألة المصرية هو تعاون لا ينقض ، وأن فرنسا سوف تسلك نفس النهج الذى تسلكه إنجلترا ، إذ أن سياستيهما موجهة بالدرجة الأولى ضد روسيا . يصف المؤرخ الفرنسى أ. ديبيدور الموقف الصعب لفرنسا تجاه الصراع التركى المصرى بقوله " كان مجلس الوزراء منعقداً فى قصر التويلرى وقد تملكته الحيرة ... كان عليه أن يختار حلاً من ثلاثة: إما أن تعقد فرنسا إتفاقاً وثيقاً مع القيصر على غرار إتفاق كارل العاشر ، أو أن تخاطر بالدفاع عن قضية محمود الثانى، أو أن تقف صراحة فى صف محمد على . كان الخيار الأول يعنى قطع العلاقات مع إنجلترا وهو ما كان يرفضه مجلس الوزراء ، كما كان الخيار الأخير يعنى أن تكتسب لها عدواً هو إنجلترا ، التى كانت تحافظ بكل غاية على تأثيرها فى الشرق ومن ثم تغامر بدخول الحرب ضد روسيا . لم يتبق إذاً سوى قبول الخيار الثانى: دعم السلطان لصالح البلاط الإنجليزى فى لندن وبهذا تفوت عليه فرصة بقاء السلطان تحت حماية القيصر . على أنه ، من ناحية أخرى ، لم يكن البلاط فى قصر التويلرى يرغب إطلاقاً فى أن يفقد محمد على كل ثمار انتصاراته . كان لدى الباشا المصرى الكثير من الفرنسيين الذين يعملون منذ زمن بعيد فى الإدارة وفى الجيش . وكانت فرنسا تعتبره موجوداً تحت حمايتها ، فضلاً عن أنه كان يتمتع بشعبية كبيرة فى باريس . ولو أن فرنسا لم تقدم العون للباشا لما غفر البرلمان ولا الصحافة ولا المجتمع لحكومتها هذا الموقف . من ذلك يتضح لنا أى وضع عسير كانت تواجهه حكومة ١١ أكتوبر ١٨٣٢ . ليس من المستغرب إذن أنها لم توفق فى الخروج من هذا المأزق دون أن يمس شرفها " ( ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٣٤٠ )

ظهر اهتمام إنجلترا باستغلال أراضي الإمبراطورية العثمانية باعتبارها طريقاً للعبور إلى الهند عبر البحر المتوسط أو الخليج الفارسي منذ نهاية القرن الثامن عشر . كانت إنجلترا تولى الإمبراطورية العثمانية أهمية كبرى من الناحية التجارية ، فضلاً عن أهميتها الإستراتيجية ، وقد سعت إنجلترا لاستغلالها ضد السياسات الروسية والفرنسية في الشرق ( ٧٤ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٥ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ) . وكانت فرنسا قد وضعت نصب أعينها ومنذ نهاية القرن الثامن عشر تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة داخلية خاصة بها " ( ١٦١ ، ص ١٤٧ ) .

عندما اشتد أوار الصراع التركي المصري ، أخذ نيكولاي الأول عن طيب خاطر جانب السلطان حتى يجعل منه تابعاً لروسيا ولا يعطى لمحمد على الأكثر قوة من السلطان فرصة الإستيلاء على عرش آل عثمان . وقد أدى تدخل نيكولاي الأول إلى جانب تركيا إلى إعاقة انتشار تأثير فرنسا المؤيدة لمحمد على والتي كان القيصر بعد عام ١٨٣٠ يعتبرها مصدراً للثورة .

يقول المؤرخ السوفيتي م. ن. بوكروفسكي: " كان التحالف مع النمسا من الأمور التقليدية بالنسبة للدبلوماسية الروسية حتى منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر . وكان للإمبراطوريتين عدو مشترك يقف لهما بالمرصاد على نهر الدون ، وفي الوقت نفسه كانا يتنافسان فيما بينهما على شبه جزيرة البلقان ، آنذاك لم تكن إحداهما لتخطو خطوة واحدة دون أن تبلغ بها الأخرى . كلتا الإمبراطوريتين سعتا للسير جنباً إلى جنب ، لا ليؤازرا بعضهما البعض وإنما لتتقوى كل منهما أثر الأخرى . كان تعاظم قوة روسيا يعنى ضعف النمسا والعكس كانت الحليفتان تخشيان لو أن إحداهما نجحت في استغلال الأخرى لتحقيق مطامعها من جانب واحد " ( ١٢٢ ، ص ٦ ، انظر أيضاً ٨٥ ، ص ٥٥٧ ) .

وبعد توقيع معاهدة أونكيار إيسكيليسى قرر نيكولاي الأول أن يدعم علاقاته بالنمسا حتى يتمكن من مواجهة الائتلاف الإنجليزي الفرنسي ، معتمداً في سياسته الشرقية على تحالفه معها . وفي اللقاء الذي جمع عواهل الدول الثلاث ( روسيا والنمسا وبروسيا ) في سبتمبر عام ١٨٣٣ في ميونخينجريتس ( حالياً منيخوفو جراديشيت ) أكد قيصر روسيا للنمسا أنه لو حدث وسارت الأمور في الإمبراطورية العثمانية على نحو يتطلب تدخل روسيا فإنه لن يتخذ أي خطوة دون أن يشرك فيها النمسا وصرح بأنه ليس لديه أي نية للتوسع في أراضيها على حساب تركيا ( ٣٤ ، المجلد ٤ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٨ ، ٠٩ ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ ، ١٣٢ ، ص ٣٩٦ ، ١٣٣ ، ص ٣٢ ) وقد طمأنت تأكيدات القيصر الحكومة النمساوية .

في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر جرى دعم " توازن القوى " في أوروبا عن طريق مجموعتين: إنجلترا وفرنسا في جانب ، وروسيا والنمسا وبروسيا في الجانب الآخر . على أن هاتين المجموعتين لم تصمداً طويلاً نتيجة للتناقضات التي كانت قائمة بداخلهما .

وفوق هذا وذاك جاء احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ ليضاف إلى مشكلات السياسة الخارجية التي أرقت الباب العالي ولتظهر على السطح التناقضات بين الدول الأوروبية على أن الحكومة السلطانية في الثلاثينيات والأربعينيات لم تفقد الأمل في أن يتسنى لها إعادة الجزائر إلى كيان الإمبراطورية العثمانية عن طريق استغلال هذه التناقضات .

جاء فقد الأتراك للجزائر نتيجة خطأ في التقديرات الدبلوماسية للحكومة السلطانية التي أعطت لفرنسا مبرراً مناسباً لاحتلالها . ووفقاً للتقاليد التي ترسخت بدءاً من زمن خير الدين بارباروسا ، عندما راح دايات الجزائر يشجعون نشاط القرصنة ، فقد وجدت حكومات دول البحر المتوسط نفسها مضطرة لعقد إتفاقات مع الداي تكفل لهم أمن تجارتهم البحرية . الأمر الذي عاد على الجزائر بأرباح طائلة ( ٩٨ ، ص ٦٧ - ٩٣ ) . بيد أن الدول الأوروبية المتفوقة على بلدان الشرق عسكرياً واقتصادياً قررت أن تضع حداً لأعمال النهب البحري . ففي عام ١٨١٦ قام الأسطول الإنجليزي بضرب الجزائر وأغرق أسطول الداي . استغلت فرنسا ما آلت إليه الجزائر من ضعف وانشغال الباب العالي في الحرب الروسية ( ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ) لتحقيق طموحها - الذي بدأ منذ نابليون - في فرض سيطرتها على البحر المتوسط . وكانت الحجة التي استندت إليها فرنسا في غزو الجزائر هي الإهانة التي وجهها والي الجزائر إزميرلي حسن باشا إلى قنصل فرنسا بأن قذفه على وجهه بمروحة كانت في يده وهو يطالبه بأن تعيد الحكومة الفرنسية ديناً كانت أخذته من شخص ما . وكان الوالي قبل هذه الواقعة قد استولى على بعض سفن فرنسية متعللاً بعدم سداد فرنسا للدين المذكور .

أرسل الفرنسيون إلى الجزائر مائة سفينة حربية وخمسمائة سفينة نقل . وفي الرابع عشر من يونيو عام ١٨٣٠ نزل إلى السواحل الجزائرية ٣٧ ألف جندي فرنسي . وبعد معركة قصيرة تم أسر الداي . وكانت الإمبراطورية العثمانية قد خرجت آنذاك لتوها من حربها ضد روسيا ولم ترد على احتلال الجزائر سوى بمذكرة احتجاج ( ٢١٦ ، ص ٥٣ - ٦٢ ) .

يذكر الباحث الفرنسي ر. مانتران أنه على الرغم من أن السيطرة العثمانية على الجزائر وتونس وطرابلس ( منذ نهاية القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن الثامن

عشر ) كانت سيطرة اسمية ، إلا أنها خلقت وضعاً سياسياً ظلت الدول الأوروبية تناضل من أجل تغييره على مدى قرون ثلاثة . وقد تمثل الوجود العثماني في هذه الولايات عملياً في النمط التركي للإدارة: ولاية ، جيش ، موظفون كبار من أصل تركي ، مراسيم رسمية كتبت باللغة التركية إضافة إلى الألقاب التركية السائدة . وحتى عندما كانت هذه الولايات تتعرض للتهديد من جانب الأوروبيين فإنها لم تكن تتوانى عن طلب العون من السلطان . كما أنها كانت في الغالب تقدم لتركيا المساعدة العسكرية بناء على طلب السلطان . خذ مثلاً ما أرسله دايات تونس إلى السلطان من عون عسكري إبان الحملة إلى طرابلس عام ١٧٩٥ ، وإلى كريت عام ١٨١٠ وإلى اليونان من عام ١٨٢٢ وحتى عام ١٨٢٧ ، وقد غرق الأسطول التونسي الذي كان جزءاً من الأسطول العثماني في معركة نافارين ( عام ١٨٢٧ ) .

ارتبط ضعف الروابط بين إسطنبول والولايات الغربية بسقوط قوة آل عثمان وانعدام المصالح الاقتصادية للدولة المستعمرة ( المتروبول ) في هذه الولايات البعيدة ذات العوائد المحدودة . كانت الجزائر وتونس تتمتعان باستقلال إقتصادي ذو توجه غربي أكثر من جميع الولايات العثمانية الأخرى ( ١٧٦ ، ص ٢٠٥ ، ٢١٤ - ٢١٥ ) . وتؤكد التعليمات ( الموجهة لروح الدين أفندي ، القائم بالأعمال التركي في فرنسا عام ١٨٣٤ ) الإهتمام الإقتصادي المتدني للإمبراطورية العثمانية في الجزائر ؛ إذ وصفت هذه التعليمات الجزائر بأنها " مكان لا قيمة له " ( ٤٨ ، ص ٧٨ ) .

وعن المفاوضات الدبلوماسية التركية الفرنسية بشأن الجزائر والتي سبقت الإحتلال يكتب ج. روزين قائلاً أن فرنسا حاولت مراراً وتكراراً أن تنحى خلافاتها مع داي الجزائر جانباً من خلال وساطة الديوان .

لقد اعتبر الباب العالي هذه الولاية ولاية مستقلة إلى حد أنه كان يرفض التدخل في شئونها وكأنها لا تعنيه . وفي السادس عشر من مارس عام ١٨٣٠ أبلغت فرنسا الباب العالي أنها سترسل جيشها إلى الجزائر مادام الديوان لم يتعاون في إزالة الخلافات القائمة بينها وبين داي الجزائر وقامت في الوقت نفسه بإحاطة الدول الأوروبية علماً بذلك عن طريق مذكرات أرسلتها إليها . ورغم كل ذلك لم يقم الباب العالي بتوجيه أسطوله أو جيشه إلى الجزائر ( ٢١٥ ، ص ٢٥ - ٢٦ ) . بعدما وصل الأمر إلى استيلاء فرنسا على " وصاية العرش " (١)، هنا فقط أدرك رجال الدولة في تركيا أنهم ارتكبوا خطأ فادحاً بتخليهم عن حقهم السياسي دون مقابل ، راحوا بعدها

١- يستخدم المؤلف الأوروبي هنا اصطلاح " وصاية العرش " بهدف التأكيد على الطابع المستقل لحكم الولاية في شخص الدايات .

يرسلون المذكرات والسفراء إلى مجلس الوزراء في التويلري لتصحيح الخطأ . لقد أكد وزير الباب العالي أن السلطان له الحق في الجزائر ، وأن الباب العالي يرغب في وقف القرصنة البحرية وأن تقوم قواته النظامية باحتلال مدينة الجزائر ، ولكن للأسف أن هذا لم يحدث من قبل " ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ١٤٠ )<sup>(١)</sup>.

إن عدم إدراك الباب العالي للأهداف العدوانية للسياسة الخارجية لفرنسا في البحر المتوسط في السنوات من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ يعتبر ، من وجهة نظرنا ، هو السبب الرئيسي لإصرار الباب العالي على عدم التدخل في النزاع الفرنسي الجزائري<sup>(٢)</sup> . إن سوء التقدير هذا هو الذي استغلته فرنسا تحديداً .

كانت إنجلترا غاضبة تماماً من غزو الجزائر ، وهو ما أعلنته رسمياً ، إذ رأت في هذا العمل محاولة من جانب فرنسا لإزاحتها عن البحر المتوسط .

وقد سعت فرنسا بعد غزوها للجزائر لإضعاف علاقة تونس بالإمبراطورية العثمانية وإخضاعها لتأثيرها . كما حاولت الحكومة الفرنسية القضاء على محاولات الباب العالي تقديم مساعدات عسكرية إلى الجزائر في نضالها وذلك من الأراضي التونسية ، وقد أدى هذا إلى زيادة حدة التنافس بين تركيا وفرنسا في تونس . وقد ظهر هذا التنافس في أشكال متعددة .

وفي أربعينيات القرن التاسع عشر أضيفت إلى المشكلات السابقة مشكلة أخرى وهي تدخل الدول الأوروبية في تسوية نظام الإدارة في سوريا نظراً لانتفاضات السكان المحليين التي لم تنقطع وكذلك للصدامات العسكرية التي كانت تقع بين الدروز والمaronيين .

وهكذا وجدت الحكومة السلطانية نفسها في مطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أمام عدد من المشكلات وثيقة الصلة بمصالح السياسة الخارجية للدول الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية ، وفي التنافس بينها ، وفي تعاظم حدة المسألة الشرقية .

١- لمزيد من المعلومات حول احتلال فرنسا للجزائر انظر كذلك: ٢١٥ ، ص ١٤ - ٢٥ / ١٠٠ ، ص ٤٠ / ١٠٩ ، ص ١٨٠ .

٢- نلاحظ هنا - للمقارنة - أنه في عام ١٨٣٥ ، أي بعد مرور خمس سنوات ، عندما دخل اثنان من الولاة في طرابلس في جدل حول أيهما أحق بالجلوس على العرش ، لم يكن الباب العالي قد اندفع بعد في علاقاته مع الدول الأوروبية . كان الباب العالي قد نجح في أن يمنع فرنسا وإنجلترا من التدخل في طرابلس . لم تقبل حكومة السلطان الاقتراح بالوساطة في الجدل القائم بين الواليين فقط ، وإنما سارعت بإرسال قواتها ( أنزلت أسطولا ) إلى طرابلس ، الأمر الذي كان من نتيجته تحويل الوصاية على العرش إلى باشاكة ( ١٢٤ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥ ) .

أدى تفاقم مشكلات السياسة الخارجية بحكومة السلطان إلى التفكير في ضرورة إجراء إصلاحات في مجال الدبلوماسية .

لقد أدرك رجال الدولة الأتراك أن باستطاعتهم استغلال التنافس القائم بين الدول العظمى لتحقيق أهداف سياسية بالطرق الدبلوماسية ، وهي الأهداف التي أصبح تحقيقها بالجهود العسكرية أمراً صعباً بسبب ما آلت إليه الإمبراطورية العثمانية من ضعف ووهن .

تعرضت الدول الأوروبية منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر لعدد من الهزات الثورية . ومن بينها الثورة الفرنسية العظمى ( ١٧٨٩ - ١٧٩٤ ) ، ثورات العشرينيات من القرن التاسع عشر في أسبانيا والبرتغال وإيطاليا ، ثورة التحرر القومي في عام ١٨٢١ في اليونان ثم في بولندا في عام ١٨٣٠ ، وثورات الثلاثينيات في فرنسا وبلجيكا .

بحلول القرن التاسع عشر بدأت حروب نابليون التي انتهت بقيام عائلة بوربون في عام ١٨١٤ . وقد أبدت الحكومات الأوروبية تخوفها من الصدمات العسكرية الجديدة بسبب الإمبراطورية العثمانية . وهذه الصدمات كانت من الممكن أن تساعد بدورها على ظهور أوضاع ثورية في أوروبا . وقد أشار كارل ماركس إلى أنه " بدءاً من عام ١٨١٥ كان أكثر ما تخشاه الدول العظمى في هذا العالم هو تغيير الوضع الراهن Status-quo " ( ٢ ، ص ١٦٨ ) . ولهذا فقد ساعد الوضع الدولي آنذاك على زيادة دور الدبلوماسية في العلاقات الدولية .



## الفصل الثانى

# التغيرات التى طرأت على الدبلوماسية العثمانية فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر

أتاح انسحاب قوات إبراهيم باشا من كوتاهية والتصالح الشكلى بين محمد على والسلطان ثم عقد معاهدة أونكيار ايكسليسى بين الأخير وروسيا عام ١٨٨٣ ، أتاح الباب العالى مواصلة سياسة الإصلاحات ( انظر ٥٣ ، ج٦ ، ص ٥ ، ١٠٩ ، ص ٢١٤ ) التى كانت قد بدأت منذ عام ١٨٢٦ بالإصلاحات فى الجيش . وقد مست الإصلاحات التى أجراها السلطان محمود الثانى الشئون الدبلوماسية أيضاً ، وكان التجديد الأساسى فى هذا المجال هو إقامة الباب العالى لسفارات دائمة فى العواصم الأوروبية .

كانت تصرفات الباشا المصرى ، التى فشل السلطان فى إخمادها بقواه الذاتية ، هى البرهان الأخير الذى أقنع الحكومة السلطانية بضرورة إقامة علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية . فى العاشر من مارس عام ١٨٤١ كتب شتيورمر ، سفير النمسا لدى الإمبراطورية العثمانية ، رسالة إلى مترنيخ جاء فيها : " لقد أجبرت المشكلة المصرية الحكومة التركية على أن تمد بصرها صوب الدول الأوروبية " (الاستشهاد من المرجع رقم ١٥١ ، ص ٢٨١ ، انظر أيضاً ٦٣ ، ص ٦ / ١٦٩ ، ص ٤٥٩ ) .

لقد أدت معاهدة أونكيار إيسكليسى ، التى زادت من حدة الخلافات بين الدول الأوروبية ، إلى اهتمام هذه الدول ( من خلال علاقات ثابتة ) بالإمبراطورية العثمانية بدرجة لا تقل عن اهتمام الإمبراطورية العثمانية بها . على أن من المحتمل أن يكون الباب العالى قد أحس بضرورة إقامة مثل هذه العلاقات الثابتة مع الحكومات الأوروبية قبل ذلك ، أى بمجرد أن وضعت الحرب الروسية التركية ( ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ) أوزارها ، وهى الحرب التى أدت إلى حصول اليونان على الاستقلال . وقد ساد الدوائر

الدبلوماسية رأى مفاده أنه لو أن الباب العالي قد استفاد من سلطة الدول الأوروبية وقبل بالشروط التي طرحتها هذه الدول لإقرار السلام في اليونان الثائرة عام ١٨٢٧ (١٢٤ ، ج١ ، ص ٤٠ - ٤١ / ١٤٧ ، ص ١٨ - ١٩) ، لاستطاعت الإمبراطورية العثمانية الاحتفاظ باليونان ضمن كيائها بعد أن أعطتها الحكم الذاتي . من المعروف أن السياسة الإنجليز " لم يبحثوا ، قبل توقيع معاهدة أدرنة ( ١٨٢٩ ) ، أمر إقامة مملكة مستقلة في اليونان ، وإنما أرادوا فقط إنشاء دولة تابعة لسيادة الباب العالي ، أى على غرار فالاخيا ومولدافيا " ( ٨ ، ص ٢٩٨ ) . وقد ظلت إنجلترا على موقفها من هذه المسألة ولم تغيره إلا بعد عام ١٨٢٩ خشية أن تترك المبادرة في تحرير اليونان في يدى روسيا .

لقد شاركت الدول الكبرى على نحو مؤثر في منح اليونان استقلالها وفي تقرير مصير الجزائر ، وكذلك في الصراع التركي المصرى ، وكانت كل دولة من الدول الكبرى تضع في اعتبارها مصالحها السياسية . لقد أجبرت الظروف الباب العالي على التورط في سلسلة من المشكلات الدولية المعقدة . فالأخطاء الدبلوماسية التي ارتكبتها الباب العالي والتي أدت إلى فقدانه كل من اليونان والجزائر ترجع في الأساس لنقص المعلومات عن العلاقات الدولية وهو ما يمكن تفسيره استناداً إلى سياسة العزلة التي اتبعتها الإمبراطورية العثمانية منذ قيامها . إن عزلة الإمبراطورية العثمانية قبل ثلاثينيات القرن التاسع عشر أمر فرضته التقاليد القائمة على القوة العسكرية التي لم تشعر إطلاقاً بالخوف من الدول الأوروبية ، أضف إلى ذلك سيادة التصورات الدينية التي تخللت كل أوجه حياة الدولة ورعاياها ( ٢٢٨ ، ص ١٤ )<sup>(١)</sup> . يرى م. روسون أن المسلمين تولد لديهم شعور بالكبرياء نتيجة جهادهم واحتقارهم لكل ما هو غريب . وقد زادت المعتقدات الدينية من قوة هذا الشعور لديهم . " لقد أقام الدين حائطاً بين أتباع الرسول محمد وبين الشعوب الأخرى بعد أن قسم العالم إلى جزأين ، جزء تمثله البلاد الإسلامية والآخر يمثله أعداؤها " ( ١٦٠ ، ج٣ ، ص ٢٠ ) .

اقتصرت العلاقات الدولية للباب العالي مع الدول الأجنبية على وجود سفارات تركية لديها بشكل عرضي وعلى فترات قصيرة كانت مهمتها فيها إبلاغ الحكام الأوروبيين بالأحداث الهامة وبوصول سفراء من أوروبا إلى أسطمبول ، وهؤلاء كانوا يقومون بالاتصال بمرجمى الباب العالي حيث إن غالبيتهم لم يكونوا على دراية باللغة التركية .

كان السفراء الأتراك يملكون الصلاحيات التالية:

١- لم تلتزم كل الدول الإسلامية بمبدأ العزلة ، على سبيل المثال الهند المغولية .

- ١- إبلاغ الحاكم الأوروبي باعتلاء سلطان تركي جديد للعرش .
  - ٢- تسليم نص التصديق على الإتفاقية التجارية .
  - ٣- التأكيد على العلاقات الودية والنيات السلمية .
  - ٤- تقديم المقترحات الخاصة بإقرار العلاقات السلمية في حالة وجود خلافات .
  - ٥- تقديم عروض إقرار السلام في زمن الحرب .
  - ٦- تقديم الهدايا وردود السلطان على رسائل الحكام الأوروبيين .
  - ٧- ترضية السفراء الأجانب الذين وجهت إليهم إهانات إبان وجودهم في إسطنبول .
  - ٨- رد الزيارات التي يقوم بها سفير أوروبي فوق العادة وغيره من الشخصيات ( ٢٢٨ ، ص ١٧ - ١٩ ، انظر كذلك ١٦٠ ، ج ٣ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ / ١٦٨ ، ص ١٥٨ - ١٦٧ )
- إن الجهل باللغات الأجنبية وغياب التعليم الأوروبي لدى سفراء السلطان وزياراتهم الخاطفة للبلاد الأجنبية عوامل أدت جميعها إلى امتلاء تقاريرهم عن رحلاتهم في البلدان الأوروبية بأوصاف مفصلة في معظمها للمراسم فضلاً عن " الملاحظات الصبائية " ( ١٦٠ ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ، انظر أيضاً ٢٠٣ ، ص ٢٤ ) .
- إن هذا الشكل من أشكال العلاقات الدبلوماسية ما كان له ليظهر لولا جهل الحكومة التركية وساستها بالدول الأوروبية . كتب لودفيج الرابع عشر ملك فرنسا في تعليماته إلى ديزالير ، سفيره في إسطنبول يقول: " إن العالم كله يعرف أن الأتراك جاهلون بكل ما يهتم به الحكام المسيحيون " ( الاستشهاد من المرجع ٢١٨ ، ص ٢٧٢ ، انظر أيضاً ١١٧ أ ، ص ٢٣ ) .
- وعلى الرغم من أن الدول الأوروبية كانت تولي اهتماماً أكبر بالحصول على معلومات عن الإمبراطورية العثمانية ( وكانت الأخيرة تمثل في العصور الوسطى خصماً عسكرياً خطيراً وشريكاً تجارياً مفيداً ) ، فإنها لم تكن تمتلك هي الأخرى أي تصورات موضوعية عنها .
- استمر عدم صلاحية الطرفين قائماً طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد أشار ف. إنجلز إلى أن تركيا قبل الثورة اليونانية في عام ١٨٢١ ظلت بصفة عامة " بلداً مجهولة " بالنسبة للأوروبيين ، الذين وضعوا تصوراتهم عنها استناداً إلى حكايات " ألف ليلة وليلة " ( انظر ١٢ ، ص ٢٠ ) . يرى أ. ف. ميللر أنه لهذا السبب

فإن كثيراً من رجال السياسة الأوروبيين في مطلع القرن التاسع عشر كانوا يعتبرون القسطنطينية ( إسطنبول ) هي الإمبراطورية بأسرها إنطلاقاً من كون حياة وقوة تركيا تتركزان فيها ( ١٠٢ ، ص ١٦٨ ) . لم يكن سفراء الدول الأوروبية فوق ذلك يعرفون اللغة التركية حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد أشار مصطفى رشيد باشا في أحد تقاريره عام ١٨٣٧ أن السفير الفرنسي في إسطنبول ، الأدميرال روسين لم يستطع قراءة خطاب كان مكتوباً باللغة التركية ، على الرغم من أن هذا السفير قضى أربعة سنوات يخدم في إسطنبول ( ٤٦ ، العدد ١٦ ، ص ٤٣ ) . يذكر ف. انجز أن " كل تصرفات الدبلوماسية الغربية تجاه تركيا اعتمدت لزمن طويل على التصورات التقليدية والأحكام القائمة على معلومات فقيرة للغاية " .

وقد شاعت في فترة الصراع التركي المصري ( ١٨٣١ - ١٨٤١ ) مختلف التصورات الخاطئة عن الشرق ، فعلى سبيل المثال كان هناك عدد من أعضاء البرلمان الفرنسي يعتقدون تماماً أن محمداً علياً يناضل من أجل إقامة دولة عربية مستقلة ، بينما كان الأمر في الواقع أنه كان يسعى لتحقيق مصالحه في إقامة نظام الحكم بالإرث ، وكان يكن مشاعر الاحتقار للعرب معتبراً نفسه تركيا ، وكذلك لم يكن نيكولاى الأول ، الذى أخذ على عاتقه حل قضية مصير الإمبراطورية العثمانية ، على علم بالحياة الإجتماعية في تركيا المجاورة إلى حد أنه صدق الشائعات التى زعمت أن السلطان محمود الثانى قرر اعتناق المسيحية بعد أن واجه مقاومة شديدة في تطبيق الإصلاحات من جانب رجال الدين المسلمين . وقد بعث القيصر بوضاياه في هذا الصدد إلى السلطان التركي عن طريق السفير خليل باشا ( ١٦٢ أ ، ص ٤٤ ، ١٣٢ ، ص ٣٤١ ، ٣٥٢ )<sup>(١)</sup> . يذكر ف. أ. جيورجيف في بحثه عن الصراع التركي المصري أن السفير الروسى في لندن ف. إ. برونوف " لم يفهم طابع الأزمة التركية المصرية ولا سياسة الدول الأوروبية في تركيا " ( ٦٣ ، ص ٢٧ ) .

لقد انعكست سياسة العزلة الدبلوماسية وأيديولوجية التفوق الذاتى التركيتين ظاهرياً في عدد من العادات شديدة الخصوصية .

كان عام ١٤٥٤ هو العام الذى بدأت فيه العلاقات الدبلوماسية بين الإمبراطورية العثمانية والدول الأوروبية ( ١٦٠ ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ - ٤٦٣ ، العديدين ٥ ، ٦ ) ، عندما راحت الدول الأوروبية تواصل التقاليد الدبلوماسية فأرسلت ممثليها الدبلوماسيين إلى إسطنبول . كان هدف الدبلوماسيين الأوروبيين هو عقد الإتفاقيات التجارية والملاحة البحرية والمحافظة على سلامة التجار ، إلى جانب إبلاغ حكوماتهم بالمعلومات اللازمة

١- لمزيد من الإطلاع على صفات نيكولاى الأول كما أوردها ي. ف. تارلى انظر: ٨٥ ، ص ٥٣٦ - ٥٣٨ .

حول الوضع في الإمبراطورية العثمانية . وكانت علاقات سفراء الدول المسيحية ببلاط السلطان في إسطنبول شحيحة للغاية . ووفقاً للمراسم المتبعة فقد كان باستطاعتهم أن يقابلوا الصدر الأعظم والسلطان مرة عند قدومهم للبلاد ومرة أخرى عند مغادرتهم لها . أما في غير تلك الأوقات فقد كان لهم الحق في تسليم أوراق اعتمادهم إلى الرئيس أفندي الذي كان يرسلها إلى الجهات المختصة . كان على الدبلوماسيين الأجانب أن يستعينوا في تصريف أمورهم بالترجمين المحليين ، الذين اكتسبوا آنذاك أهمية كبيرة في عالم الدبلوماسية بفضل ما كانوا يقومون به من عمل في هذا المجال . كان غالبية المترجمين من اليونانيين الفناريين<sup>(١)</sup> ، وبحلول نهاية القرن الثامن عشر كان تعلم لغة أوروبية - بالنسبة للمسلمين - يعد من المحرمات ( ٢٠٩ ، ص ١٨١ ) .

ولما كانت علاقة البلاط السلطاني بالسفراء قائمة على الشعور بالتعالى تجاههم ، فقد اتبعت بعض الإجراءات التي كانت تحط من قدرهم إبان استقبالهم . وعلى الرغم من أن ضرب السفراء لارتكابهم أخطاء ما ، بل والزج بهم أيضاً في السجون ، كان يمثل ظاهرة اعتيادية . فقد كان أغلب السفراء يتحملون هذا بصبر بالغ ( ٨١ ، ص ٨٩ ، ١١٢ ) ، وكان السبب في ذلك يرجع إلى الاهتمام الشديد من جانب الدول الأوروبية بإقامة علاقات ودية مع الإمبراطورية العثمانية التي كانت تعطيهم فرصة كبيرة للتجارة المربحة معها ، وتقدم لهم امتيازات متعددة . كان السلطان يعطى للسفراء أموالاً طائلة من خزانة الدولة بالإضافة إلى المواد الغذائية ويمنحهم أماكن للسكنى معتبراً إياهم ممثلين لبلاد فقيرة . وقد ألغيت هذه العادة بعد إرسال البعثات الدبلوماسية التركية إلى دول أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر . وفي حالة نشوب الحرب مع أي دولة ، كانت الإمبراطورية العثمانية تتبع قاعدة ثابتة في سجن سفراء الدول المتحاربة معها في قلعة سيميياش .

كان فرانسيسك الأول ملك فرنسا هو أول حاكم مسيحي يعقد ، في عام ١٥٤٢ ، تحالفاً عسكرياً مع السلطان " الكافر " ، ضد مملكة هابسبورج المجاورة والتي كانت مطمعاً أيضاً للسلطان التركي . أما سليمان الثاني القانوني فكان ينظر إلى التحالفات العسكرية مع المسيحيين بون أي حكم ديني مسبق ، متوخياً أهدافه التوسعية ، معتبراً أن من المفيد له إضعاف دولة مسيحية بواسطة دولة مسيحية أخرى . وبالطبع فقد كانت هناك أسباب نفسية تفسر هذا التحالف ، فقد كان سليمان يرى نفسه " سلطان السلاطين " ، وكان يعتبر بلاطه ملاذاً " للأمراء " اللاجئين " ، كما اعتبر المساعدة التي يقدمها

١- المترجمون الفناريون: نسبة إلى حي فنار بإسطنبول ، حيث يوجد مقر بطريرك الطائفة اليونانية . وكانوا يمثلون رجال الدين اليونانيين والأرستقراطية التجارية . كما كانوا يتمتعون بميزات كبيرة ، من بينها التعيين في المناصب الرفيعة في الإدارة التركية .

لفرنسا بمثابة " المكافأة لمن يتوجه لعظيم " ( ٢٢١ ، ص ٩٣ - ٩٤ ، ١٨٤ ، ص ١٨٥ ) .  
كان الأتراك في القرن السادس عشر يطلقون على إنجلترا اسم " الولاية الكبرى " ،  
آنذاك كانت إنجلترا تخاطب السلطان باعتباره " التركي العظيم " (The Great Turk) ،  
بينما كان السلطان يخاطب ملكة إنجلترا باعتبارها " ملكة الولاية الإنجليزية " (Vilayeti İngiltere Kralicesi) ( ٢١٧ ، ص ٦ ، انظر أيضاً ١٠٢ ، ص ٦١ - ٦٢ ) .  
بعد انقضاء حكم سليمان الثاني القانوني لم يعقد رجال الدولة في  
الإمبراطورية العثمانية أى تحالفات عسكرية مع الدول المسيحية باعتبار أن دولة مسلمة  
لا يمكنها أن تقف مع مسيحيين على قدم المساواة ( ٢٠٨ ، ص ٨ - ٩ ) .

على أن علاقة الأتراك بالأوروبيين تغيرت نظراً لما أصاب الإمبراطورية العثمانية  
من ضعف وما لحق بها من هزائم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ( انظر  
المرجع ١١٧ ب ) ، لقد اضطر الأتراك بعد الهزيمة أن يقبلوا الذهاب إلى مؤتمرات  
عامة يتفاوضون فيها مع الأوروبيين حول شروط السلام ( ١٣٤ ، ١٦٩ ، ص ٤٥٦ ) .

في هذه الفترة تعاظم الدور السياسي للدبلوماسيين الأوروبيين ، وأصبح السفراء  
الأجانب لدى الباب العالي يؤنون دوراً سياسياً أكبر ( ٢١٧ ، ص ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١٢ ) .  
يذكر الفيلد مارشال البروسي « . مولتكى » في معرض حديثه عن التغيرات التي حدثت  
في عادات بلاط الإمبراطورية العثمانية في عشرينيات القرن التاسع عشر وأسبابها  
" أن الجميع كانوا يعلمون أن ممثلي أكبر الدول كانوا يرغبون فيما سبق على الإنتظار  
عدة ساعات عند عتبة السراي ... ثم يغلق الباب الأول بعد دخول الضيف ، أما الباب  
الثاني أو بوابة النعيم التي تفضى إلى غرفة السلطان فلم تكن لتفتح إلا بعد تسلم  
الموافقة السنية منه بالدخول . والمحظوظ يصطحبه اثنان من البوابين الكبار ليدخله في  
كشك معتم حيث يتربع الباديشاه ، يأمر الضيف بالسجود ، وبعد هذه المراسم يلقي  
السفير كلمته ، التي يكتفى المترجم بنقل بضع كلمات منها ، يلي ذلك تقديم الهدايا ،  
وبعد أن يتلقى السلطان هذه الهدايا يعطى إشارة إلى الوزير ، الذي يلقي بدوره كلمة  
رسمية كيفما اتفق ، وبهذا ينتهى الأمر . وعلى هذا النحو كانت مراسم الاستقبال  
تؤدى منذ سنوات عشر مضت ، ولكن بعد تحطيم الإنكشارية ، وبالأحرى بعد أن أثبت  
الروس للأتراك أنهم لم يعودوا هؤلاء المنتصرين تغير شكل الاستقبال " ( ٣٧ ، العدد  
٩ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ) .

لقد ظهرت عزلة الحكومة في الشؤون الدبلوماسية والسياسية ، فضلاً عن ظهورها  
في جميع مجالات الحياة في المجتمع العثماني . لم يكن لدى كبار رجال الدولة  
المحيطين بالسلطان " أى تصور عن الدول الأوروبية ، عن الحياة الاقتصادية أو النظم  
الإدارية فيها أو عن جيوشها ... إلخ " ( ١١١ ، ص ٢١٨ ) . وقد كان راتب أفندى ،



السفير فوق العادة والذي أرسل ، بعد توقيع معاهدة الصلح المنفرد مع النمسا عام ١٧٩١ ، إلى فيينا وتعرف هناك بتكليف من السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) على المؤسسات السياسية والمالية والعسكرية في النمسا ، وكذلك على جيوش بروسيا وفرنسا وروسيا من أوائل الذين أشاروا إلى تفوق النظم الأوروبية على مثيلاتها التركية ( ١١١ ، ص ٢١٩ ، ٢١١ ) .

وقد سادت العزلة أيضاً مجالات الثقافة والتعليم . وفي تلك الفترة التي كانت الإمبراطورية العثمانية على ثقة تامة بتفوقها الذاتي ، كان العلماء ورجال الدين يعتبرون إقامة علاقات ثقافية مع الغرب ضرباً من التجديف ( ٢٠٩ ، ص ١٨٤ ) . وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأ في الإمبراطورية العثمانية افتتاح المدارس المدنية حيث يتعلم التلاميذ مبادئ المعارف الأوروبية ، وكانت المعاهد العلمية العسكرية المتخصصة قد ظهرت قبل ذلك في القرن الثامن عشر نتيجة ضرورة إعادة تنظيم الجيش التركي الذي كان في حاجة ماسة لضباط متعلمين تعليماً أوروبياً ( ٧٧ ، ص ٣٥ - ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٤ وكذلك ، ٧٨ ، ص ١٣ ، ١٥ ، ٢٠٩ ، ص ١٨١ - ١٨٢ ) .

اكتفت الحكومة السلطانية بالتقارير التي كانت تتلقاها من السفراء الأجانب الموجودين لديها في إسطنبول ، أو إذا شئنا الدقة من المترجمين اليونانيين . فلم يكن لها ممثلين دائمين لدى الدول الأوروبية . وكذلك كان الباب العالي يتلقى المعلومات حول الأوضاع في البلاد المسيحية من البايات في فالاخيا مولدافيا ، وهؤلاء كان لهما عملاء في عواصم الدول الأوروبية . يورد س. بيليسيل في كتابه كيفية حصول كارادجا بل قائد جيش مولدافيا إبان انعقاد مؤتمر فيينا ( ١٨١٤ - ١٨١٥ ) على معلومات كانت تهمه وذلك عن طريق سكرتير مترنيخ مقابل أموال دفعها له ( ٢٠٣ ، ص ٢٢ ، ٢٤ ) . وكان بايات كل من فالاخيا ومولدافيا ومعهما المترجمين اليونانيين يخونون مصالح الباب العالي إذا ما اقتضت الضرورة ذلك ، فإذا كان قبول معلومات من هذين المصدرين أمراً مقبولاً ، وقت أن كانت الإمبراطورية العثمانية دولة ذات نفوذ ، فقد ظهرت الحاجة الماسة لديها الآن للحصول على المعلومات السريعة والدقيقة التي تتعلق بالدرجة الأولى بأهداف السياسة الخارجية للدول الأوروبية في فترة ضعف الإمبراطورية العثمانية ، وبدون سفراء دائمين لها في الخارج أصبح من المستحيل الحصول على هذه المعلومات .

لقد أجبر ضعف الإمبراطورية العثمانية ، مقارنة بالنمو المتصاعد لبلدان أوروبا ، رجال الدولة الأتراك على اللجوء إلى الإصلاحات وإنشاء مؤسسة للعمل الدبلوماسي على غرار تلك المؤسسات القائمة في أوروبا ( ٢٢٥ ، ٧٦ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ) .

لقد اعترف سليم الثالث بضرورة إقامة علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية على الرغم من أن الباب العالي إبان حكمه قد قام بمحاولة لم يقدر لها النجاح

تماماً في هذا المجال . يذكر المؤرخ التركي إ. ز. كارال أنه " لم يكن بمقدور الإمبراطورية العثمانية التي أصابها الوهن أن تواجه بمفردها روسيا والنمسا اللتين ازدادت قوتهما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، لقد جعل التمسك بمبدأ العزلة الإمبراطورية العثمانية دخيلة على دبلوماسية الغرب " ( ٢٠٨ ، ص ٨ - ٩ ) ، وعندما احتل نابليون بونابرت مصر في عام ١٧٩٨ ، خرج سليم الثالث عن مبدأه الثابت في ألا تقف الدول الأوروبية غير المسلمة معه على قدم المساواة في العلاقات السياسية ، فأبرم معاهدة مع إنجلترا وروسيا ضد فرنسا ( ٢١٧ ، ص ١٣ ) . وفي عصر سليم أيضاً أقيمت أول سفارات تركية دائمة في فيينا وبرلين ولندن وباريس . لقد واجهت الباب العالي صعوبات جمة عندما قرر إرسال بعثات دبلوماسية دائمة إلى العواصم الأوروبية كان على رأسها البحث عن دبلوماسيين يرغبون في البقاء في أوروبا لفترة زمنية متصلة . وعلى الرغم من توفير ظروف مجزية للدبلوماسيين فإن كثيراً منهم لم يستطع التغلب على نفوره من السفر إلى بلد مسيحي ، ومن ثم راح الباب العالي يعدمهم بدلاً من تمتد فترة بعثتهم أكثر من ثلاث سنوات ( ١٦٠ ، المجلد ٣ ، ص ٤٦٣ ، ٢٢٨ ، ص ٢٠ ) .

كان للحلف الذي قام بعد ذلك بين الإمبراطورية العثمانية وبين فرنسا نابليون ، ثم مؤامرة الأخير ضد مصالح حليفه وإتفاقه مع الدول الأوروبية على تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، أثره في إحباط آمال الباب العالي في سياسة التحالفات مع الدول الأوروبية ( ٢٠٣ ، ص ٢٣ )<sup>(١)</sup>.

لم يحقق نشاط السفارات التي افتتحت إبان سليم الثالث في نهاية القرن الثامن عشر نجاحاً يذكر وسرعان ما تم إغلاقها ( ١٦٩ ، ١٦٠ ، المجلد ٣ ، ص ٤٦١ ، ٢٠٣ ، ص ٢٢ ، ملحوظة ٢ )<sup>(٢)</sup>.

على أن إدراك ضرورة إقامة علاقات أكثر قوة مع الدول الأوروبية ، الأمر الذي لم يعد بمقدور الباب العالي تحاشيه ، ثم البحث عن دعم للعلاقات الدولية له من جانب بعض الدول الأوروبية بهدف الاعتماد على هذا الدعم ضد دول أخرى ، أدى من جديد إلى إنشاء سفارات تركية في بلدان أوروبا في عام ١٨٣٤ .

١- حول نفوذ المترجمين في مطلع القرن التاسع عشر انظر: ١٠٢ ، ص ٢١ .

٢- لمزيد من التفاصيل عن السياسة الشرقية لنابليون انظر كتاب أ. ف. ميلر " مصطفى باشا البيرق دار " ( ١٠٢ ، ص ١٥٩ - ١٨٠ ، ٢١٠ - ٢٢٨ وغيرها ) . يحتوي هذا الكتاب على معلومات بليوجرافية عن المراجع الكثيرة في هذا الموضوع . من الأعمال الحديثة للمؤرخين السوفيت الذين تناولوا هذه المشكلة انظر المقالات التي كتبها ف. ف. جراتشيف عن السياسة الشرقية لفرنسا ( ٦٧ ، ٦٨ ) .

مثلت ثلاثينيات القرن التاسع عشر حداً فاصلاً في تاريخ الدبلوماسية العثمانية . إن السعى لتحقيق قوة الدولة " بتطبيق مبدأ المساواة بين كل القوى في السياسة الأوروبية " كان تغييراً جذرياً في أساليب السياسة الخارجية للباب العالي ( ٢٠٨ ، ص ١٠٧ ) . وبدءاً من الثلاثينيات ، وبعد إنشاء السفارات ، أصبحت تصرفات الدبلوماسية العثمانية الجديدة تقوم على أساليب مختلفة ، أكثر مرونة مع الوضع المتغير للدولة العثمانية على الساحة الدولية .

وإذا كان نشاط السفارات التركية التي تأسست للمرّة الأولى في فترة حكم سليمان الثالث في الفترة من عام ١٧٩٣ وحتى عام ١٧٩٧ ، والذي جرى إلغائه بحلول عام ١٨٢١ ، لم يحقق أي نجاح ، فإن الإهتمام المتبادل في إنشاء سفارات تركية ، سواء من جانب الإمبراطورية العثمانية أو من جانب الدول الأوروبية ، قد أدى في عام ١٨٣٤ إلى قيام علاقات دبلوماسية مشتركة وطيدة ودائمة . " وفي الوقت الذي ظلت فيه تركيا منعزلة ، بشكل أو بآخر ، على تخوم أوروبا ... مؤكدة وحدتها الإقليمية اعتماداً على قوتها ، متصدية لخصومها ، فإن دور الدول الكبرى اقتصر على مجرد الانتظار: كان التدخل من جانب هذه الدول في شئون تركيا الداخلية غير ذي جدوى وخاصة أنها لم تكن لتسمح به . على أن تمرد محمد علي في عام ١٨٣١ وانتصاراته في سوريا غيرا من الموقف . ها نحن نرى السلطان يوقع أولاً مع الإمبراطور نيكولاى معاهدة دفاع وهجوم ... لتستمر وحدة الإمبراطورية العثمانية بمساعدة الدول الكبرى ، ومن الآن يصبح من حق هذه الدول توجيه النصح للباب العالي وتبدأ الإمبراطورية في الاستفادة منها " ( ١٢٢ ، ص ١٠ ) .

في عام ١٨٣٤ جرى تأسيس سفارتين في باريس ولندن ( ٥١ ، ص ١٥ - ١٦ ، ٤٨ ، ص ٦٣ - ٦٤ ) . وفي عام ١٨٣٥ - في فيينا ، وفي عام ١٨٣٧ - في برلين ، وفي عام ١٨٤٠ في أثينا . استمر توسع شبكة السفارات حتى بلغ عددها خمسة عشر سفارة مع نهاية القرن التاسع عشر ( ١٦٩ ، ص ٤٦٠ ، ٢١٣ ، ص ٤٣٣ ) .

ونتيجة لإستغناء الحكومة السلطانية ، في فترة الإنتفاضة اليونانية ، عن خدمات اليونانيين الفناريين ، الذين كانوا يمسون في أيديهم بخيوط العلاقات الدولية للباب العالي ظهرت الحاجة إلى دبلوماسيين أتراك ( مسلمين ) . ووفقاً لتقديرات ج. ل. خوريفيتس ، لم يزد عدد اليونانيين الفناريين وغيرهم من الموظفين غير المسلمين العاملين في البعثات الدبلوماسية على مدى العامين الأخيرين من الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، عن ثلث العدد الإجمالي للدبلوماسيين . زد على ذلك أنهم لم يعودوا يشغلون المناصب العليا ، على الرغم مما أثبتوه من كفاءة وإخلاص ( ٢٠٨ ، ص ٣٤ ، ٤٨ ، ص ١٥٧ ) .

أصبح الدبلوماسيون الأتراك يتعلمون اللغات الأجنبية ، وهو ما يسر لهم إمكانية استيعاب الدبلوماسية الأوروبية ، فضلاً عن الثقافة والعادات الأوروبية ( ٢٠٣ ، ص ٣٤ / ٤٨ ، ص ١٥٧ ) .

تميزت الدبلوماسية التركية الشابة في القرن التاسع عشر بسمتين واضحتين . فعندما تعين على السفيرين التركيين في عام ١٨٣٥ ( مصطفى رشيد في باريس ونوري أفندي في لندن ) إتخاذ مبادرة دبلوماسية بشأن محاولة استعادة الجزائر ، فإنهما توجهتا لطلب المشورة من سفراء روسيا والنمسا المعتمدين ( ٢١٥ ، ص ٣٨ - ٤٣ ، ص ٤٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ) . وحيث إن السفيرين التركيين كانا مزودين بتعليمات من حكومتهم بخصوص الجزائر ، وكانا على علم بما يجب عليهما أن يحققاه بشأنها ، فقد كان من البديهي أن تكون نصائح السفراء الأجانب لهما غير صالحة لاعتبارها خططاً محددة يمكن العمل بها لإنجاز الأهداف المطروحة أمامهم ، واستغلال الفرص التي تتيحها الأوضاع الدولية والقواعد الدبلوماسية . كان السفيرين التركيين يعتزمان الحصول على مساعدات في هذه المسألة من إنجلترا ، معولين في حساباتهما على الخلافات بين إنجلترا وفرنسا ، ساعين للحصول على مشورة سفراء دولتين أخريين هما روسيا والنمسا .

في عام ١٨٣٥ طلب السفير التركي في لندن ، نوري أفندي ، من القائم بالأعمال الروسي ك. أ. بوتسو دي بورجو ، أن يشرح له ما الذي ينبغي على تركيا أن تقوم به لاستعادة الجزائر ، عندئذ أشار عليه الدبلوماسي الروسي بأن يقدم مذكرة رسمية إلى السفير الفرنسي وأن يسعى لدى الحكومة الإنجليزية لإقناعها بتقديم المساعدة لبلاده . وقد واصل نوري أفندي مشاوراته مع بوتسو دي بورجو ، الذي علمه كيف يتصرف وماذا يقول وما هو الوقت المناسب للتحدث في مسألة الجزائر ( ٢١٥ ، ص ٣٨ - ٣٩ ) .

يدل توجه الأتراك لطلب المشورة من سفيرى روسيا والنمسا على نقص الخبرة العملية لديهم مما اضطرهم لإتباع هذا الأسلوب ، ويبدو أن استمرار طلب المشورة بدا للأوروبيين واحداً من أهم الأسباب التي دفعتهم للتعجل بالحكم على الدبلوماسية التركية بأنها بدبلوماسية غير مؤهلة لاتخاذ مواقف مستقلة<sup>(١)</sup> .

وهناك عدد من الأمثلة التي تثبت بطلان التقدير الأوروبى للدبلوماسية التركية بإعتبارها دبلوماسية تابعة كلية ، منها استغلال الباب العالي للتنافس المحتدم بين الدول الأوروبية بعضها ببعض .

١- أشار ج. بيلسيل إلى أن الإمبراطورية العثمانية لم يكن لديها سفراء لدى الدول الأوروبية أثناء مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ .

يكتب مصطفى رشيد في أحد تقاريره في بدء توليه منصب السفير ( سبتمبر ١٨٣٤ - مارس - أبريل ١٨٣٥ ) أنه اتخذ موقف المدافع ، إبان المباحثات التي جرت مع رجال الدولة الفرنسيين - عن منهج حكومته في الخلاف الذي ينشأ بينها وبين مصر منذ فترة قريبة ، وأنه وجه اللوم إلى سفيرى فرنسا وإنجلترا لموقفهما المتقاعس في اللحظة الحاسمة ، عندما كانت الإمبراطورية مشغولة بتسوية نزاعاتها مع مصر ، جاء ذلك في معرض حديثه عن قبول تركيا للمساعدات الروسية ضد محمد علي .

ورداً على توصية فرنسا وإنجلترا التي نقلها إليه السفير الفرنسى السابق في إسطنبول ، الجنرال جيليمينو ، بالأ تقبل تركيا مستقبلاً أى مساعدات عسكرية روسية ضد محمد علي ، قال مصطفى رشيد أنه لن يقبل المساعدة إذا قدمتها إنجلترا وفرنسا ، وفي الوقت نفسه أكد مصطفى رشيد على العلاقات الودية القائمة بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا . وأعلن السفير التركى أيضاً أنه من الضروري الحفاظ على شروط ثلاثة من أجل قيام علاقات صداقة حقيقية بين إنجلترا والإمبراطورية العثمانية هي:

١- الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية هو واحد من المهام المترتبة على تمرّد محمد علي ، الذى يثير وعلى نحو مستمر الاضطرابات فى الدولة .

٢- عدم توجيه النقد أو التدخل فى الشئون التى تقرر كل دولة مصالحها الذاتية بشأنها وتضع سياستها بناء عليها .

٣- على الرغم من أن الدول الكبرى تكلمت عن أهمية الاستقرار العام ، إلا أن الأساطيل الفرنسية والإنجليزية تواصل ظهورها من وقت لآخر فوق مياه البحر المتوسط ، الأمر الذى أدى إلى انتشار مختلف الشائعات وأثار المخاوف لدى جميع الأطراف ، ولهذا فإن الشرط الأخير يتلخص فى رفض هذه الإجراءات عديمة الجدوى والتى لا تعطى الفرصة للإمبراطورية العثمانية لأن تعمل وفقاً لوجهة نظرها الشخصية لكى تحقق وضعاً أفضل لكل قضاياها الداخلية والخارجية .

وقد وعد الجنرال جيليمينو بأن يبلغ البرلمان رأى السفير التركى (٤٨ ، ص ٧٠).

ومن الأمور المثيرة للاهتمام ، اعتراض السفير التركى فى لندن ، مصطفى رشيد، على بالمرستون فى ٢٩ يناير ١٨٣٧ ، وكان الأخير قد وجه اللوم للسفير التركى باعتبار أن الباب العالى مستسلم تماماً لنصائح روسيا ، وقد رد مصطفى رشيد بقوله " إن الإمبراطورية العثمانية لا يمكنها أن تعرف ما ينفعها وما يضرها ، ومن هم أصدقائها المخلصين ، وإذا كانت روسيا قد عبرت ضمناً عن بعض آراءها بشأن بعض القضايا ، فإن هذا لا يعنى أن الباب العالى يستجيب لكل نصائحها ، وإذا كان الباب العالى يتصرف ظاهرياً بحذر بالغ تجاه روسيا ، فكيف له أن يتقيد فى هذه التصرفات بفن

دبلوماسية الدولة في علاقته مع جيرانه ، وهو المشغول تماماً بمشكلات بلاده الداخلية وإجراء الإصلاحات الضرورية بها ؟ " ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ص ١٣٦ ) .

في مطلع عام ١٨٣٦ رأى الباب العالي ضرورة إنشاء وزارة للخارجية ( ٥٣ ، المجلد ٨ ، ص ٢٨٩ / ١٤١ ، ص ٧١ ) ، فقبل عام ١٨٣٦ لم يكن لدى حكومة السلطان موظفون متخصصون في الشؤون الخارجية . وقد تم تكليف ريس الكتاب ، وهو أحد ثلاثة مساعدين للوزير الأعظم بعد صلح كارلوفيتس سنة ١٦٩٩ ، الذين تولوا مهام الشؤون الخارجية إضافة إلى وظائفه الأساسية ، ومنذ ذلك الحين تم اعتباره كبيراً للمستشارين في القضايا الدولية ( ١٦٦ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ) .

كان تكوين وزارة الخارجية إشارة إلى أن الدبلوماسية العثمانية تشكلت باعتبارها مؤسسة مستقلة داخل الحكومة ، وأن أهمية قضايا السياسة الخارجية قد تعاظمت بشكل ملحوظ ( ٥٣ ، المجلد ٥ ، ص ١٠٨ ، ٤٨ ، ص ١٠٧ ، ١١٠ ) ، وفي تلك الفترة تلقى معظم كبار رجال الدولة والسفراء وموظفو الباب العالي إعداداً خاصاً في قلم المترجمين ( Tercume odasi ) ، إذ أن الحكومة السلطانية رأت أن التصريف الجيد للأعمال وثيق الصلة بإعداد وإستخدام الموظفين الأكفاء " ( ٥٣ ، المجلد ٥ ، ص ١٠٨ ) .

أنشئ قلم الترجمة في عام ١٨٢١<sup>(١)</sup> بعد أن تم الاستغناء عن خدمات اليونانيين الفناريين ، الذين اعتمد عليهم الباب العالي إبان الإنتفاضة اليونانية ( ١٤١ ، ص ٧٧ ) . وقد عمل هذا القلم على ترجمة الدروس الهامة للجيش والمدارس إلى اللغة التركية ( ٢٠٩ ، ص ١٨١ ) . وكذلك جرى استكمال النشاط التقليدي في هذا القلم بتدريس اللغة الفرنسية والتاريخ والرياضيات وغيرها من العلوم . كما أن العديد من رجال الدولة العثمانية البارزين في القرن التاسع عشر ، ومن بينهم الوزراء العظام وموظفي وزارة الخارجية ، تلقوا فيه تدريباتهم المتخصصة . وقد ساعد اثنان من خريجي هذا القلم على إنشاء نظام الاتصال البرقي في الأمبراطورية العثمانية . وهنا تخرج رجال الدولة والشخصيات الإجتماعية مثل عالي باشا ، فؤاد باشا ، أحمد وفيق باشا ، ومنيف باشا ، نامق كامل بك وغيرهم . وقد شغل المستشرق الإنجليزى المعروف ردهاوس بعض الوقت منصب رئيس قلم المترجمين ، كذلك قام " المرتد " البروسى أو النمساوى أمين أفندى بتدريس اللغات الأوروبية وكان يعمل في نفس الوقت أميناً لمكتبة

١- يؤكد ط. ج. روزين أن " ... الدبلوماسية الأوروبية اعتادت على تبعية الباب العالي ، حتى أنها لم تتصور إطلاقاً أن يتصرف الباب العالي دون دعم من حليف ما قوى يملى عليه ماذا ينبغي عليه أن يفعل " ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ) .



وزارة الخارجية . وهنا فى قلم الترجمة عمل عثمانيون مسيحيون ويونانيون وأرمن وحتى من اليهود ( ١٥٧ ، ص ٢٨ - ٣٠ ) .

وقد صاحب كل هذه التغيرات مولد تقاليد جديدة . فللمرة الأولى يقوم السلطان التركى عبدالمجيد ، عشية حرب القرم ، بالخروج على التقاليد العتيقة فيستقبل بنفسه السفراء الأوروبيين ، الذين طلبوا مقابلته للتباحث معه فى موضوعات سياسية ( ٢٠٩ ، ص ١٠٣ ) ، وبعد أن وضعت حرب القرم أوزارها ، أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الدبلوماسية لوزارة الخارجية فى الإمبراطورية العثمانية ( ١٦٩ ، ص ٤٥٨ ، ٢٣ ، ٣٥ )<sup>(١)</sup>.

يصف المؤرخ التركى أ. ز. كازال التغيرات التى طرأت على الدبلوماسية التركية بالكلمات التالية: " لقد أحدثت السياسة النشيطة تغييراً فى السياسة العثمانية السلبية التى كانت قائمة مع الدول الأوروبية " ( ٢٠٨ ، ص ٢١٨ ، انظر كذلك ٢٠٣ ، ص ٣٤ ) . لقد سعى الباب العالى للتنبؤ بتطور الأحداث فى أوروبا والتأثير فيها . وكانت إقامة علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية وتولى الأتراك المسلمين مهام إنجازها ، واحدة من أهم إصلاحات فترة التنظيمات . وقد سمحت العلاقات الدبلوماسية لممثلى تركيا أن يقتربوا من المؤسسات الإجتماعية والسياسية الأوروبية وأن يتعرفوا أيضاً على ثقافة أوروبا . وقد ساعد هذا على أن يكون للدبلوماسيين الأتراك مبادراتهم فى استكمال الإصلاحات فى فترة حكم محمود الثانى وفى فترة التنظيمات . كما نتج عن هذه العلاقات الدبلوماسية تغييرات جذرية فى مبادئ السياسة الخارجية للباب العالى . كذلك سمح التخلّى الاضطرارى عن عدد من الأحكام الدينية المسبقة ، لدولة تدين بالإسلام ، للباب العالى الانخراط فى النظام الدبلوماسى الأوروبى والإستفادة من المشاركة فيه للاستمرار فى النضال من أجل الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية، وذلك من خلال استغلال التناقضات القائمة بين دول أوروبا .

يؤكد المؤرخ أحمد جودت باشا فى " مذكراته " أن مصطفى رشيد هو مؤسس النظام الدبلوماسى الجديد فى الإمبراطورية العثمانية ( ٤٧ ، العدد ١ ، ص ٩ - ١٠ ) .

كان طريق مصطفى رشيد بك ( باشا بدءاً من عام ١٨٣٧ ) نحو قمم العمل الوظيفى طريقاً تصاعدياً تقليدياً . ومثله كمثّل كثير غيره من كبار رجال الدولة ، فقد بدأ عمله موظفاً صغيراً فى إدارات الباب العالى ، على أن مواهبه الفطرية وظروف عمله التى أحاطها التوفيق ( وعلى رأس هذه الظروف وجوده لمدة طويلة فى عواصم

١- يرى ج. ك. خوريفيتس أن عام ١٨٢٣ هو العام الذى أنشئ فيه المكتب ( ١٦٩ ، ص ٤٥٨ ) ، بينما يرى ب. لويس أنه عام ١٨٢٣ ( ١٧٤ ، ص ٨٦ ) .

الدول الأوروبية بصفته سفيراً ( قد هيأت له أن يقدر وعلى نحو موضوعي مقدار التخلف الذي أصاب مؤسسة الدولة ومستوى النمو الإقتصادي للإمبراطورية العثمانية وأن يشير إلى طرق تجاوزها . وقد ساعدت نجاحات مصطفى رشيد في مجال وظيفته، وشغله للمناصب الحكومية العليا ( وزيراً للخارجية ثم وزيراً أعظم .. وغيرها من مناصب ) في تحقيقه لعدد من الإصلاحات كانت انعكاساً لمطالب زمنه . لقد ذاع صيت مصطفى رشيد باعتباره إصلاحياً وواضحاً لبيان خطى شريف خولخلنة عام ١٨٣٩ ، فضلاً عن أنه كان أكثر الدبلوماسيين الأتراك في عصره موهبة وكفاءة .

في يونيو عام ١٨٣٤ تم تعيين مصطفى رشيد سفيراً مفوضاً فوق العادة Orta elcisi في باريس . وفي نهاية شهر يونيو غادر مصطفى رشيد إسطنبول وفي صحبته كل من نوري أفندي<sup>(١)</sup>، ابن أخيه وسكرتيه الخاص ، وروح الدين أفندي ، المترجم والمدرس السابق بمدرسة الهندسة البحرية . كان ممثلي السفارة التركية يسافرون إلى باريس عن طريق المجر والنمسا . وفي فيينا التقى مصطفى رشيد مترنيخ ، الذي وصل إليها خصيصاً قادماً من محل إقامته في ضاحية المدينة ليقوم استقبالاً حافلاً للسفير التركي . كانت هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها مصطفى رشيد بك إلى الخارج ، حيث راح يتعرف للمرة الأولى على رجال الدولة والمجتمع في أوروبا . وفي منتصف شهر سبتمبر عام ١٨٣٤ وصل إلى باريس باقى أعضاء السفارة التركية .

وفي باريس قابل لويس فيليب ملك فرنسا مصطفى رشيد ، وقد ولدت مراسم أول استقبال يلقاه لدى الملك مشاعر الرضا لديه . وقد وصف مصطفى رشيد تفصيلاً كل قواعد التشریفات الفرنسية التي أجريت لدى المقابلة وكلمات المجاملة التي ألقاها الملك والتي عبر فيها عن سعادة فرنسا لتأسيس سفارة تركية وعن ثقته في أن مصطفى رشيد سوف يتقن اللغة الفرنسية بسرعة ( ٤٨ ، ص ٦٤ ) .

١- في عام ١٨٢٠ كان من الممكن تسليم مذكرات السفراء الأجانب إلى الرئيس أفندي باللغة التركية أو الفرنسية أو الإيطالية ( ١٦٠ ، المجلد ٣ ، ص ٤٦ ) .

- في عام ١٨٢٩ كان نوري أفندي ممثلاً لتركيا ( مع مصطفى رشيد ) عند توقيع الصلح مع روسيا ، وكان في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس الإدارة ( بإيلىكتشى قلم ) . ثم أصبح سفيراً لتركيا لدى لندن منذ شهر مارس عام ١٨٣٥ ، ومنذ منتصف عام ١٨٣٦ خلف مصطفى رشيد في منصب سفير تركيا لدى باريس . ثم عاد مرة أخرى في يونيو عام ١٨٣٧ ليشغل منصب السفير لدى لندن بدلاً من مصطفى رشيد الذي تولى مهام وزير الخارجية ، وبعد عودته إلى الوطن في عام ١٨٣٨ شغل منصب رئيس مجلس الأشغال العامة ووزير المالية . شارك في وضع مشروع المعاهدة التجارية بين إنجلترا وتركيا عام ١٨٣٨ . توفي في عام ١٨٤١ وهو في طريقه إلى برلين بصفته وزيراً مفوضاً .

سرعان ما تأقلم مصطفى رشيد مع واجباته وتعرف على مشكلات السياسة الدولية . ويشهد معاصروه أنه اشتهر بأنه أفضل الدبلوماسيين الأتراك ليس في وطنه فقط وإنما في أوروبا بأسرها ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٧١ / ١١٨ ، ص ١٩ / ١٣٢ ، ص ٤١١ - ٤١٢ )

إن القراءة الواعية للتقارير التي كان يرفعها مصطفى رشيد للسلطان في نهاية عام ١٨٣٧ تدلنا على أن المناقشات والمشاورات مع رجال الدولة والسفراء الأوروبيين كانت مدرسة عظيمة لفنون الدبلوماسية التي استفاد منها السفير التركي . كان الدبلوماسيون الذين تحاور معهم مصطفى رشيد يدافعون عن مصالح بلادهم ، التي كانت كل منها في تنافس مع بقية الدول الأوروبية الأخرى . وقد راح كل منهم في حوار مع مصطفى رشيد يصف ، من وجهة نظره ، الوضع الدولي آنذاك ، مما أعطى مصطفى رشيد مادة خصبة للمقارنة وساعده على التقييم الصحيح للمواقف السياسية للدول الأوروبية . كان المتحدثون يسعون ، متوخين في ذلك مصالحهم الشخصية ، للإشارة إلى المصاعب والمخاطر التي تهدد الإمبراطورية العثمانية من جانب منافسيهم ، متعمدين في أحيان كثيرة المبالغة في تصوير هذه التهديدات ، مسهبين في إسداء النصيحة وشرح كيفية التصرف والردود التي ينبغي على الحكومة السلطانية استخدامها ، في حالة إذا ما وجهت إليها اتهامات محددة من جانب الدول الأخرى ( ٤٨ ، ص ٨٤ - ٩١ )

استطاع مصطفى رشيد أن يدرك مغزى وإمكانات وجود سفارات دائمة لتركيا في الدول الأوروبية . وقد كتب في تقرير له أن من الضروري فتح سفارات أخرى في بترسبورج وبرلين إلى جانب السفارات الموجودة في باريس ولندن ، ورأى أن هذه السفارات سوف تزود الباب العالي بالمعلومات الحديثة حول كل التقلبات والتغيرات في الأساليب السياسية للدول الأوروبية . وفي تقريره إلى السلطان المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٣٤ أشار مصطفى رشيد إلى أنه حتى الدول الصغيرة مثل بافاريا وفورتمبيرج والحكومة اليونانية الجديدة لهم سفراءهم ونبه إلى أن غياب السفارات التركية قبل عهده قد ساعد محمد علي على النجاح في جذب انتباه الرأي العام في الدول الأوروبية إلى صفه ضد السلطان التركي ( ٤٨ ، ص ٦٧ ) .

كتب أ. أوبيتشين يقول " أثار وصول مصطفى رشيد إلى باريس ضجة كبيرة . كان أول سفير تركي يشاهد في فرنسا منذ بعثة محمد سعيد غالب أفندي في عام ١٨٠٢ . لقد أثار الإعجاب بمظهره كدبلوماسي شاب وبحيويته ومعارضته المهذبة في الحوار ، وبعدم التكلف في سلوكه ، الذي كان بعيداً تماماً عن التصورات المألوفة حول مفوض السلطان " ، وبعد مرور عامين على وجوده ، أصبح مصطفى رشيد " محطاً

للأنظار " . كان يحضر كل الإجتماعات و يقيم الحفلات التي يتحدث عنها الجميع ، يواظب على الحضور إلى القصر مع الوزراء و يشارك في الحفلات التي يقيمها السفراء ، ولا يستخف مع ذلك باللقاءات ذات الطابع الودي : كان كثيراً ما يتردد على المسارح و يتعرف على الأدباء و الصحفيين و مشاهير النقاد ، كما طلب من جول جانين أن يعلمه اللغة الفرنسية . كان العام الذي وصل فيه مصطفى رشيد إلى لندن بصفته سفيراً بمثابة إنهاء لتعليمه في أوروبا " ( ١٩٠ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ) .

ترك معاصرو مصطفى رشيد وصفاً لمظهره و شخصيته . يذكر ستريتفورد كانينج ، السفير الإنجليزي لدى الإمبراطورية العثمانية والذي تعرف عليه من قبل في مطلع الثلاثينيات ، أن مصطفى رشيد كان شاباً وقوراً ، يتمتع بالذكاء و الحيوية ، يشبه في مظهره رجلاً شركسياً ، متوسط الطول ، يتمتع بجاذبية وروح مرحة ( ٤٨ ، ص ١٦٤ ، انظر أيضاً ١٧٣ ، المجلد ٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ) .

يذكر أ. أوبيتشين أن مصطفى رشيد كان يتمتع بموهبة الإقناع بتفوق ، إلى جانب ما كان يتحلى به من كياسة ولباقة و دماثة خلق . ويضيف أنه كان على دراية جيدة بخطط و مصالح الحكومات الأوروبية و نفاذ بصيرة رائع بشأنها ، إضافة إلى موهبة بلاغية رائعة ( ١٩٠ ، ص ١٦٠ ) .

قبل أن يحل خريف عام ١٨٣٦ كان مصطفى رشيد قد أنجز المهام المكلف بها بصفته سفيراً لدى باريس . وفي ١٣ سبتمبر ١٨٣٦ يتلقى أمراً من الباب العالي بتبادل موقعه مع نوري أفندي ، سفير تركيا لدى لندن ( ٢٠٧ ، ص ٧٠١ ، انظر كذلك ٤٦ ، العدد ١٤ ، ص ٦١ ) . وفي نفس الوقت أنعم على مصطفى رشيد بلقب مستشار الشؤون الخارجية ( ٤٨ ، ص ٨٢ ) ، لقد تم تبادل مواقع السفراء على هذا النحو لأن آمالاً كباراً كانت معقودة على مصطفى رشيد ، باعتباره دبلوماسياً محنكاً ، لتحقيق رغبة السلطان في الوصول إلى حلول حاسمة للمشكلات الدبلوماسية التي كانت تواجه الباب العالي ( ٥١ ، ص ١٨ ، ٤٨ ، ص ٨٣ ) . وقد أعلنت الحكومة السلطانية عن تبادل السفيرين بحجة أن المناخ في إنجلترا غير ملائم لصحة نوري أفندي .

وفي يونيو عام ١٨٣٧ يتم تعيين مصطفى رشيد وزيراً للخارجية .

تدلنا كل الوثائق التي في حوزتنا إلى فكرة مؤداها أن الباب العالي قد أعطى سفراء تركيا صلاحيات كافية لإتخاذ مبادرات شخصية - في حدود معلومة - استفاد منها مصطفى رشيد بطريقة عملية في عهد محمود الثاني ( ١٨٣٤ - ١٨٣٩ ) ، وفي عهد عبدالمجيد الأول ( ١٨٤١ - ١٨٤٥ ) ، كان مصطفى رشيد سفيراً مبدعاً ، تدل على ذلك النصائح التي أدلى بها عامي ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، وإعلانه عن ضرورة التوسع

فى فتح سفارات تركية . ويمتلاً التقرير الذى رفعه إلى السلطان فى عام ١٨٣٧ بالعديد من المعلومات الخاصة بالعلاقات الدولية فى تلك الفترة والتى كانت ، بالطبع ، غير معروفة لغيره من ممثلى الحكومة السلطانية والسلطان نفسه . وقد رفعت هذه الأهلية إلى مكانة رفيعة فوق رجال الدولة الآخرين ، وكانت وراء نشاطه الذى جعله موضع استحسان من جانب الحكومة . من البديهي أن هذا الأمر الجديد ، أمر أتاح الفرصة أمام السفراء لعقد علاقات دبلوماسية مع أوروبا فى عهدى كل من محمود الثانى وعبد المجيد الأول ، قد لعب دوراً لا يستهان به فى اكتشاف موهبة مصطفى رشيد .

من الشائع أن عهد عبدالمجيد الأول ( ١٨٣٩ - ١٨٦١ ) كان عهداً ملك ضعيف الشخصية ، تنازل طواعية تحت تأثير مصطفى رشيد وشركاؤه فى الرأى عن الاستبداد بالسلطة وتقييدها بالقانون المدنى والمؤسسات المدنية . على أن الدور الحاسم فى تغير طبيعة السلطة العليا فى فترة حكم عبدالمجيد يعود لا إلى صفاته الشخصية ، وإنما لسعى حكومته ، عن طريق التنظيمات الإصلاحية ، تقوية دور الدولة . لم تعط عملية إضفاء الصبغة الليبرالية على نظام الدولة ، والتى ترجع بدايتها إلى عام ١٨٣٩ ، النتائج المرجوة منها لأسباب عديدة ، وقد أدى ذلك لإعطاء السلاطين ، بدءاً من عبدالعزيز الأول ( ١٨٦١ - ١٨٧٦ ) ، إمكانية العودة تدريجياً للشكل الاستبدادى للحكم . وهكذا نرى أن حرية الإبداع التى أتيحت للسفراء والتى أعطيت لهم بناء على صفاتهم الشخصية ، إلى جانب علاقتهم بالباب العالى ، كانت ، استناداً إلى جميع الظواهر ، مرتبطة بالإصلاحات التى تم إنجازها . ونتيجة لما سبق ، فقد تركزت كل خيوط السلطة ، وخاصة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فى فترة حكم السلطان عبدالحميد الثانى ( ١٨٧٥ - ١٩٠٨ ) فى يد القصر ، وأصبح " الحديث مع السفراء الأتراك فى الموضوعات السياسية مضيعة للوقت " ، على حد قول الدبلوماسى الإنجليزى ر. سولسبرى ( ٢١٣ ، ص ٤٢٢ ) .





## الفصل الثالث

# الدبلوماسية العثمانية والصراع التركي المصري ( ١٨٣٣ - ١٨٣٨ )

## موقف الباب العالي من السياسة الشرقية للدول الأوروبية في فترة الصراع

بعد توقيع معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣ ، واصل السلطان التركي وحكومته البحث عن وسائل لإرغام الوالى العاصى<sup>(١)</sup> على الإذعان لإرادتهما ، وبالتالي إبقاء مصر وسوريا ضمن كيان الإمبراطورية العثمانية .

كان محمود الثانى يضع فى اعتباره ، بكل تأكيد ، وهو يوقع على معاهدة أونكيار إيسكيليسى مع روسيا أنه ، لو تمكن من تحقيق أهدافه ، فإن الدبلوماسية الروسية ، وربما الجيش الروسى أيضاً<sup>(٢)</sup> ، سوف يمدان له يد العون . على أن آماله ذهبت سدى .

كانت علاقة الباب العالي بسياسة روسيا فى فترة الصراع ، علاقة ملؤها التناقض والإزدواجية . لقد تردد السلطان وحكومته طويلاً وهما يهما بقبول المساعدة الروسية لهما فى عام ١٨٣٣ . غير أن أسباب الخوف من روسيا كانت تتضاعف لدى الباب العالي بمرور الوقت . لم تكن لدى روسيا أية نوايا عدوانية تجاه الإمبراطورية

١- كان محمد على يشغل رسمياً منصب والى مصر ، التى كانت تعتبر ولاية عادية ضمن الإمبراطورية العثمانية . كان الأوروبيون يسمون محمداً علياً بحاكم مصر بسبب استقلاله الحقيقى بهذه الولاية عن الحكومة المركزية . وفى معرض حديثه عن طابع الإدارة المستقلة لمحمد على كتب أ . ف . ميلر فى عام ١٨٠٧ يقول " إن محمداً علياً فى هذه الفترة لم يكن باشا عادياً أو موظفاً من موظفى الباب العالي وإنما صاحب إقطاع تابع (Vassal) ( ١٠٢ ، ص ١٩٢ ) .

٢- فى مذكرة السفارة التى رفعها مصطفى رشيد من باريس والمؤرخة ٢٦ أكتوبر ١٨٢٤ ، يتضح إحساسه بالإحباط نتيجة الأنباء الواردة عن رفض نيكولاى الأول تقديم مساعدة عسكرية للسلطان ، على الرغم من أن محمداً علياً ، كما كتب مصطفى رشيد ، يستعد للحرب وأنه لم يؤد حتى الآن التزاماته التى تم الإتفاق عليها فى كوتاهية ( لم يدفع الجزية ) .

العثمانية ، وقد أدرك الباب العالي ذلك ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ١٦٥ ) . لقد عادت معاهدة أونكيار إيسكيليسى مع روسيا ، والتي كانت تسعى للحفاظ على تأثير المعاهدة على الإمبراطورية العثمانية ضد التأثير العكسي للإنجليز ، بفائدة ملموسة على الباب العالي . فقد خفضت روسيا بشكل كبير من قيمة التعويضات التي كان على الإمبراطورية العثمانية سدادها بناء على معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩ ، واختصرت مدة احتلالها لممالك الدانوب . لقد حمت معاهدة أونكيار إيسكيليسى الإمبراطورية من مخاطر تهديدات محمد علي بالهجوم عليها ( ٢٠٨ ، ص ١٣٦ ) ، وأتاحت للسلطان محمود الثاني إمكانية إجراء الإصلاحات الداخلية . بالإضافة إلى ذلك ، فقد زادت معاهدة أونكيار إيسكيليسى من حدة المنافسة بين دول أوروبا الغربية وروسيا وشجعت على زيادة نشاط هذه الدول بهدف التأثير في إسطنبول ، وقد استغل الباب العالي هذه الظروف لتحقيق مآربه الدبلوماسية الشخصية . ليس من قبيل الصدفة - كما لاحظ د. ج. روزين - " أن كثيراً من رجال الدولة الأتراك ، بل وربما غالبيتهم ، كانت لديهم رغبة شديدة ، بعد حرب القرم ، في أن تقوم روسيا بإحداث توازن دبلوماسي " ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ٢٥٨ ) . يمكننا أن نتفق مع رأي المؤرخ التركي ش. التونداج في أن معاهدة أونكيار إيسكيليسى قد ساعدت الدبلوماسية التركية على إعادة النظر عام ١٨٤٠ في معاهدة كوتاهية والاحتفاظ بمصر ضمن كيان الإمبراطورية العثمانية ( ١٩٨ ، ص ٩٠ ) .

على أنه وبالرغم من الفوائد الواضحة التي عادت على الإمبراطورية العثمانية من جراء تحالفها مع روسيا ، فقد ظلت الإمبراطورية غير راضية تماماً عن هذا التحالف . وهو ما تدلنا عليه مساعي الباب العالي منذ عام ١٨٣٤ لعقد تحالف عسكري مع إنجلترا ضد محمد علي من وراء ظهر روسيا . ومن المثير للإهتمام هنا أن بالمرستون ومترنيخ أكدا في مباحثاتهما مع مصطفى رشيد في الفترة من ١٨٣٤ إلى ١٨٣٧ على ضرورة دعم العلاقات الودية التي تربط بين روسيا والإمبراطورية العثمانية ( ٤٨ ، ص ٨٤ ، ٨٦ ) .

من الممكن أن نجد تفسيراً لأسباب عدم رضا الباب العالي عن تحالفه مع روسيا إذا ما قمنا بتحليل الأحداث المترتبة على عقد معاهدة أونكيار إيسكيليسى .

لقد جاءت معاهدة كوتاهية بين ممثلي السلطان ومحمد علي تحت ضغط دول أوروبا الغربية ، التي كانت تسعى لإبعاد القوات الروسية الموجودة في البوسفور ، بعد أن نجح الدبلوماسيون الأوروبيون الغربيون في إقناع السلطان بخطورة وجودها هناك .

كان الاحتفاظ بالوضع الراهن بين السلطان ومحمد علي والذي تنص عليه شروط هذه المعاهدة أمراً غير مرض لكلا الطرفين . كان محمود الثاني متعطشاً للانتقام ولو باستعادة سوريا ، بينما كان محمد علي يناضل لتوطيد سلطانه واستقلاله ، وقد أصبح من المستحيل علي السلطان أن ينال منهما بإزاحته عن منصبه كوال بعد أن أصبح هذا المنصب حقاً لمحمد علي ولآله من بعده ( ١١٢ ، ص ٦٠ / ١٠٩ ، ص ١٨٣ - ١٨٩ / ١١٠ ، ص ٧ - ١٣ / ٢٠٨ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، ١٤٠ ) .

في عام ١٨٣٤ بدأت انتفاضة سكان فلسطين ولبنان ضد محمد علي ، والتي أشعلتها المعاملة الجائرة لإدارته بمساندة من محمود الثاني ( ٢٠٨ ، ص ١٣٩ ، ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ / ١٢٩ ، ص ٦٠ ) . كان في نية السلطان انتهاز هذه الظروف للقيام بأعمال عسكرية ضد والي مصر المتمرّد ، بل إنه أصدر أمراً بالفعل بإرسال الأسطول الحربي التركي إلى الشواطئ المصرية ( ١٣٢ ، ص ٤٢١ ، ١٥١ ، ص ١٦٦ ) . على أن الدول الكبرى اتخذت كافة التدابير لمنع وقوع الصراع . ظلت روسيا ، على وجه الخصوص ، مصرة على إحلال السلام ، وأبلغ القائم بالأعمال الروسي الباب العالي ، أنها لن تقدم له العون المرجو الذي وعدته به ، بناء على شروط معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، إذا ما قام بدور الدولة المعتدية ( ٣٤ ، المجلد ١٢ ، ص ٥٨ / ١٢٤ ج١ ص ٢٣٩ / ١٨٢ ، ص ٤٥ )<sup>(١)</sup>.

" لم تكن روسيا راغبة في تدخلات جديدة في الشرق ، إذ كان من الممكن أن تقودها هذه التدخلات بسهولة إلى الصدام مع إنجلترا وفرنسا . خشيت الدول الأخرى ، إحتلال إنجلترا وفرنسا للبوسفور مرة أخرى بناء على دعوة السلطان ، فقد كان هذا يعنى اختفاء القوات الروسية منه إلى الأبد " ( ١٣٢ ، ص ٤٢٠ ، انظر أيضاً ١٨٢ ، ص ٤٥ ) . ولذلك فقد استمرت روسيا وحتى عام ١٨٣٩ تمنع السلطان من الهجوم على محمد علي ( ٦٢ ، ص ١٧٦ / ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ٣١١ ، ١٣٢ ، ص ٤٢٩ ، ١٧٨ ، ١٢٩ ) . هذا هو بالتحديد السبب الرئيسى الذى يبدو لنا وراء عدم رضاء الباب العالي عن معاهدة أونكيار إيسكيليسى<sup>(٢)</sup> . ويكمن السبب الثانى فى استمرار عدم الثقة الذى كانت حكومة السلطان تضمّره للسياسة الروسية ( ٦٥ ، ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٢٧ ، ٤٨ ، ص ٨٣ - ٩٢ ) ، والذي لم ينته

١- كانت معاهدة أونكيار إيسكيليسى معاهدة ذات طابع دفاعى ، وهو ما اشترطه بوجه خاص ممثلو روسيا الذين ناقشوا بنودها . " سوف تدافع روسيا عن تركيا ضد العدوان فقط " ( أنظر ٩١ ، ص ٤٢٠ / ٦٥ ، ص ٣١ ) .

٢- فى عام ١٨٣٩ على سبيل المثال " أوضح الباب العالي لروسيا أن المساعدة التى قدمتها الأخيرة لها إبان أزمة عام ١٨٢٨ ، أى عندما اعتزم محمد علي إعلان استقلال مصر ، لم تكن كافية " ( ١٧٨ ، ص ٩٥ ) .

إلا بإنتهاء الحرب في عام ١٨٢٩ . ولسبب ما ، بدءاً من عام ١٨٣٤ ، راح الباب العالي يبحث عن حليف ليحارب معه محمداً علياً عاقداً آماله على أن تكون إنجلترا هي هذا الحليف .

وبعد أن قامت الدول الأوروبية في عام ١٨٣٤ بالوقوف ضد نية السلطان استعادة سوريا ( وكذلك ضد محاولة محمد علي إعلان الاستقلال ) ، اقتنع الباب العالي بصورة نهائية بأنه لن يستطيع أن يتجنب تدخل الدول الأوروبية ، أو يحاول بدونها حل الصراع التركي المصري ، بالإضافة إلى ذلك ، لم يحاول الباب العالي إبان هذا الصراع عقد معاهدة جماعية مع الدول الأوروبية ، معاهدة تكون بديلاً لمعاهدة أونكيار إيسكيليسى (أنظر ٣ ، ص ٢١٠ - ٢١ ، انظر أيضاً ٦٣ ، ص ١٠٩ ) . من الواضح أن الباب العالي أدرك أن الدول الأوروبية وحدها هي التي كانت بحاجة إلى مثل هذه المعاهدة ، وأنها سوف تمثل خطراً على الإمبراطورية العثمانية ، فهذه المعاهدة لن تكون موجهة ضد محمد علي ( الذي كانت معاهدة أونكيار إيسكيليسى كافية لكبح نواياه العدوانية ) ، وإنما ضد سياسة روسيا الشرقية . ولو أن الحكومة السلطانية وافقت على التوقيع على مثل هذه المعاهدة ، لأصبحت مبادرتها في حل الصراع التركي المصري ، رهناً للإدارة المشتركة للدول الأوروبية . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت كل الظواهر تشير إلى أن الباب العالي رأى في قيام تحالف مع الدول الأوروبية المتحدة نوعاً من الانتقاص لاستقلاله . ومما يؤكد هذا الاستنتاج ، المباحثات التركية الإنجليزية التي جرت قبل ذلك في لندن عامي ١٨٣٢ - ١٨٣٣ ، عندما طلب السفير التركي نامق باشا أن تقدم إنجلترا المساعدة للسلطان ضد محمد علي . آنذاك رفض السفير التركي تماماً اقتراح بالمرستون عقد معاهدة جماعية مع الدول الكبرى . وأعلن نامق باشا : " أن السلطان لن يسمح مطلقاً بالتدخل الجماعي لهذه الدول في شئونه " ( ١٣٢ ، ص ٣٥٨ ) .

على هذا النحو يمكننا أن نحدد أن الخطوط الرئيسية لسياسة الباب العالي في الفترة من ١٨٣٤ وحتى ١٨٣٩ تلخصت في: سعى الباب العالي للحفاظ على العلاقات الطيبة مع روسيا واستغلال المكاسب المترتبة على الاتفاقية الثنائية بينه وبينها ، رفض قيام معاهدة جماعية مع الدول الأوروبية ، البحث عن حليف يمكنه أن يقدم للباب العالي مساعدة من شأنها إخضاع محمد علي .

واستناداً إلى شهادة د. ج. روزين ، فقد توجه الباب العالي ، إبان الانتفاضة التي جرت في لبنان وفلسطين عام ١٨٣٤ ، إلى إنجلترا بطلب مساعدته ضد محمد علي ، لكن " سفير السلطان<sup>(١)</sup> لم يستطع إقناع وزراء الملك وليم بالحصول على أي

١- في عام ١٨٣٤ كان نامق باشا يعمل سفيراً لتركيا لدى لندن .

وعود ، إضافة إلى أن إنجلترا كانت في مسيس الحاجة آنذاك لاستقلال محمد علي لتسهيل الروابط بينها وبين الهند<sup>(١)</sup>، ولهذا فقد وجهت النصيحة للديوان بالتخلي عن الهجوم المسلح ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ) .

لم تُنشر حتى الآن الوثائق التركية التي تؤكد عزم الباب العالي الحصول على دعم دبلوماسي ( وربما عسكري أيضاً ) من إنجلترا في عام ١٨٣٤ ، ويؤكد أحد التقارير التي أرسلها مصطفى رشيد إلى الباب العالي على نحو غير مباشر أن نامق باشا قد أجرى في لندن مباحثات بخصوص مصر . يقول مصطفى رشيد في تقريره: " بما أن القنصل الإنجليزي موجود في الإسكندرية لدى محمد علي ، فإن هذا يعني أن مباحثات نامق باشا في لندن جاءت في وقتها " ( ٤٥ ، العدد ٢ ، ص ١٤٥ ) :

وهناك شهادات موثقة حول عدم اتخاذ إنجلترا جانب السلطان على نحو مباشر في البداية ، أي في النصف الأول من الثلاثينيات ، وإعلانها للعلاقات الطيبة مع محمد علي ، وهو ما أكدته بحوث عديدة . فعلى سبيل المثال ، كتب المؤرخ الأمريكي ف. س. رودكي: " أن بعض الإنجليز ، الذي كانوا على ثقة من أن الباشا ( محمد علي ) سوف يتحد مع إنجلترا بهدف دعم مصالحها في الهند ، واتفق هؤلاء على أن على بلادهم أن تتحد معه ، مثلما تفعل فرنسا ، لا مع تركيا " ( ١٨٢ ، ص ٦٣ ) . وفي تقرير كتبه مصطفى رشيد للسلطان في نهاية عام ١٨٣٧ ، أشار إلى أن إنجلترا لم تكن مهية ، في وقت ما ، للوقوف ضد محمد علي ؛ إذ إنها كانت تعول على أنه " يمثل حصناً ما ضد روسيا " ( ٤٨ ، ص ٨٩ / انظر أيضاً ٣٤ ، المجلد ١٢ ، ص ٥٠ ، ٤١ / ١١٦ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ / ١٢٤ ، ج١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ / ١٥١ ، ص ٦٦ ، ١٢٤ - ١٢٦ / ١٨٢ ، ص ٣٨ - ٤١ ، ٤٩ ، ٥٨ - ٦٠ / ١٩٨ ، ص ١٤١ ) .

طرح المناقشات التي دارت في برلمان لندن سؤالاً حول عدم قيام إنجلترا بتقديم المساعدة للسلطان عامي ١٨٣٢ و ١٨٣٣ ، آنذاك أجاب السيد جراي ، الذي كان يتأخر مجلس الوزراء الإنجليزي بقوله: " إن إنجلترا ... لها علاقات تجارية واسعة مع محمد علي ، وإن قطع هذه العلاقات ليس في صالحها " ( الاستشهاد من المصدر ٥ ، ص ٣٩١ ) .

نكاد نجد في معظم المراجع والمؤلفات موقفاً عاماً ، فحواه أن إنجلترا كانت تعتبر استمرار تحالفها مع السلطان التركي واحداً من أهم المبادئ التي تقوم عليها سياستها ، التي تستهدف إعاقة السياسة الشرقية لروسيا وفرنسا . على أن هذا

١- المقصود هنا هو بحث إنجلترا عن طرق تؤدي إلى الهند عبر الأراضي التي كانت تقع تحت حكم محمد علي .

الموقف الصحيح لم يضع في الاعتبار علاقة إنجلترا بمحمد علي وبالسultan في النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر ( انظر على سبيل المثال ٢٠٨ ، ص ٧٤ / ٤٨٥ ، ص ٨٥ / ٤٨٥ - ٥٥٨ ، ص ٨٦ ، ص ٤٩٦ / ٩٠ ، ص ١٧٢ ، ١٧٩ - ١٨٠ / ٩٧ ، ص ٩٣ / ١٣٢ ، ص ٤٨٢ ) .

لقد اعتبر محمد علي ، بعد محاولته الأولى إعلان استقلال مصر في عام ١٨٣٤ والتي قوبلت بالرفض من جميع الدول الأوروبية ، أن إنجلترا هي المسئولة عن ذلك ، ورأى فيها منذ ذلك الحين عدواً له ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ ، ١٨٢ ، ص ٤٩ ) . وإنطلاقاً من ذلك فقد أعلن محمد علي في عام ١٨٣٥ رفضه لنشاط البعثة الإنجليزية في منطقة شمال سوريا ، التي كانت تقع تحت إمرته آنذاك ، وكانت إنجلترا قد نجحت بعد مساع طويلة في الحصول من الباب العالي على السماح بقيام بعثة تحت قيادة الفريق تشيسن تستهدف إنشاء خط ملاحى عبر نهر الفرات . عن ذلك كتب روزين يقول: " الآن أدركت الحكومة البريطانية ... أى مكافأة عليها أن تدفع مقابل سياسة الإذلال التي انتهجتها والتي وصلت إلى حد الاحتقار " ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٥٣ ) . وقد أشار ش. التونداج ، الذي كرس أبحاثه لتاريخ الصراع التركي المصرى إلى أن " محمداً علياً اكتسب عداوة أوروبا بأسرها وخاصة إنجلترا ، ولم يستثن من هذه العداوة سوى فرنسا " ( ١٩٩ ، ص ٢٣ ) .

في النصف الثانى من الثلاثينيات ، أخذت علاقات الحكومة السلطانية مع إنجلترا تزداد قوة تدريجياً . آنذاك ، كانت إنجلترا قد قررت نهائياً الوقوف فى صف السلطان ضد محمد علي ، لم يكن بالمرستون سعيداً بالوضع فى الشرق ، ليس فقط بسبب معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، ولكن لأن محمد علي أصبح يقض مضاجع إنجلترا ، بعد أن نجح فى استخدام سوريا كرأس جسر لغزو شبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين ، وهما اللتان كانتا تمثلان مدخلاً إلى الهند من جهة الغرب ( ٤٦ ، العديدين ١٧ ، ١٨ ، ص ١٨٠ - ١٨١ / ٦٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ / ١٥١ ، ص ١٦٨ / ١٨٢ ، ص ٥٧ ) .

كان الباب العالي يرغب فى أن يكون تحالفه مع إنجلترا تحالفاً ثنائياً هجومياً ، لا تحالفاً دفاعياً جماعياً ، وهو ما كانت تريده الدول الأوروبية ، التي كانت تسعى إلى أن تستبدل تركيا بهذا التحالف تحالفها مع روسيا . ولما كانت تركيا غير واثقة تماماً أن إنجلترا سوف توافق على عقد مثل هذا التحالف معها فقد فضلت أن تبقى على علاقتها الودية المضمونة مع روسيا ، حتى يتسنى لها تهديد محمد علي بمعاهدة أونكيار إيسكيليسى .



منذ عام ١٨٣٤ راح السفير الإنجليزي بونسونبي ( سفير إنجلترا لدى الباب العالي بدءاً من فبراير عام ١٨٣٣ ) في تأييد الطموحات العدوانية للسلطان ضد محمد علي ويوقظ لديه الأمل في أن إنجلترا سوف تقدم الدعم العسكري البحري لتركيا السلطانية إذا ما دعت الضرورة ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ / ١٨٢ ، ص ٦٧ / ١٥١ ، ص ١٦٧ / ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٦ / ٤٨ ، ص ١٣٢ ) . كان هذا الموقف وسيلة فعالة لإضعاف التحالف الروسي التركي ولتوطيد العلاقات التركية الإنجليزية . وكان بالمرستون على علم بهذا التوجه الذي يتبناه بونسونبي ، وإن كان من الواضح أنه لا يؤيده في رأيه ( ٤٣ ، المجلد ٢ ، ص ٤٤٢ / ١٨٢ ، ص ٥٣ ) ، غير أن بالمرستون لم يفصح صراحة عن رغبته في تغيير الأمر الواقع . يشير روزين إلى أن " الحكومة الإنجليزية ... على الرغم من أنها لم تكن تفكر آنذاك ( في مارس ١٨٣٨ - المؤلف ) في تعكير صفو السلام في أوروبا ، إلا أنها راحت تؤكد علناً على وجهة نظر اللورد بونسونبي ، أي أنها تؤيد الحرب في الشرق ، تلك الحرب التي لو قدر لها أن تنشب لوقفت فيها إنجلترا بكل وضوح إلى جانب الباب العالي ، إذ أن ذلك كان سيقضى على الأفضلية التي حصل عليها الفرنسيون المحيطون بمحمد علي ، فضلاً عن أنها كانت ستؤدي إلى إلغاء التحالف الذي تستند عليه روسيا في سيطرتها على القسطنطينية ولهذا لم تكن هناك من وسيلة ، كما افترض الجميع ، لتجنب نشوب الحرب ... " ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٣٠١ ) .

في عام ١٨٣٦ أعلن بونسونبي باسم حكومته احتجاجه على احتكار الباب العالي للحريز وبعض السلع الأخرى في سوريا . كان الاحتكار في مصر وسوريا ( بعد أن غزا محمد علي الأخيرة ) يمثل مصدراً لعوائد هائلة لمحمد علي . ولهذا فقد رد الباب العالي على احتجاج إنجلترا بالموافقة عن طيب خاطر وأصدر فرماناً يحظر فيه سريان هذا النظام في سوريا ، بشرط أن تتعهد إنجلترا بإرغام محمد علي بتنفيذه . وهكذا جرى القضاء على الاحتكار في سوريا . كان الباب العالي يأمل أن يؤدي هذا التنازل الذي قدمه للمصالح التجارية الإنجليزية ، إلى أن توافق إنجلترا على مساعدته عسكرياً ضد محمد علي . " وقد ساعد هذا الأمر إلى حد كبير السفير الإنجليزي في محاولاته للتقرب من وزراء الباب العالي ، وكان بنية السلطان ومن حوله أن يضعوا ثقتهم في استعداد إنجلترا لإمدادهم بالمساعدة ... " ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٦٤ ) .

استمرت الحرب الدبلوماسية بين إنجلترا وروسيا ، طوال فترة الصراع التركي المصري من أجل الإستئثار بالسيادة في التأثير على الباب العالي ، وكانت كفة النجاح تميل تارة لصالح الأولى وتارة أخرى لصالح الثانية .

وقد سجل مصطفى رشيد في تقاريره أن كلاً من إنجلترا وفرنسا لم تتوقفا عن

إخافة الباب العالي من التهديد الروسى ( ٤٦ ، العدد ١٤ ، ص ٦٨ ، ٦٩ / ٤٨ ، ص ٨٤ ) وتقديم النصيح له بالأ يقبل فى المستقبل المساعدة من روسيا ، إذ أن قبول المساعدة منها سوف يؤدى إلى حرب شاملة سوف تعاني منها تركيا ( ٤٨ ، ص ٧٠ ، ١٣٠ - ١٣١ / ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٦ ) .

وعلى امتداد الصراع التركى المصرى ، كانت فرنسا تمد يد العون لمحمد على ، ولكنها كانت مضطرة لمعارضة محاولته إعلان الاستقلال حتى لا تعطى لروسيا مبرراً للتدخل العسكرى وللاحتفاظ بتركيا السلطانية باعتبارها عازلاً ، وحتى لا تستفز إنجلترا ضدها .

لقد استغلت الدبلوماسية السلطانية الوضع المعقد لفرنسا ، محاولة أن توطد علاقاتها الودية معها وأن تكسب إلى صفها رأى العام فيها ضد محمد على .

### النشاط الدبلوماسى لمصطفى رشيد بك

#### فى باريس ولندن فى الفترة من عام ١٨٣٤ وحتى عام ١٨٣٧

يذكر صلاح الدين بك ، أول من وضع سيرة حياة مصطفى رشيد بك سفير تركيا فى باريس عام ١٨٣٤ ، أن السفير التركى كانت أمامه مهمتان رئيسيتان: الأولى " تغيير الصورة الخاطئة التى تكونت عن تركيا " لدى رجال السياسة فى أوروبا ، والثانية محاولة التوصل لحل للمشكلة المصرية يتناسب وحقوق الدولة ومصالحها ( ٥١ ، ص ١٥ - ١٦ / ٤٨ ، ص ٦٣ ) . وفى الوقت نفسه كان مصطفى رشيد مكلفاً بمهمة ثالثة غير رسمية ، وهى القيام بمباحثات سرية مع الحكومة الفرنسية بهدف استعادة الجزائر ( ٢١٥ ، ص ٣٥ ) .

فى تلك الفترة ، كان رجال السياسة والرأى العام فى الدول الأوروبية يبالغون فى الإنجازات الاقتصادية والثقافية التى حققتها مصر تحت سلطة محمد على ، ولكنهم فى الوقت نفسه ، كانوا لا يعرفون سوى القليل عن الأوضاع فى الإمبراطورية العثمانية ، بما فى ذلك الإصلاحات التى قام بها محمود الثانى ، ولهذا فإن مهمته " تغيير الصورة الخاطئة التى تكونت عن تركيا " والتى كلف الباب العالي سفيره بالقيام بها ، كانت مهمة حيوية للغاية ، وكانت علاقة الرأى العام ، بل وجميع مجالس الوزراء فى الدول الأوروبية بكل من الأطراف المتنازعة ( الحكومة السلطانية ومحمد على ) متوقفة على نجاح مصطفى رشيد فى إنجاز هذه المهمة .

تناولنا قبل ذلك كيف أن محمداً علياً قام في عام ١٨٣٤ بمحاولة الحصول على الاستقلال بالطرق الدبلوماسية ، وهي المحاولة التي قوبلت بالرفض من جانب الدول الكبرى . وكان في رأي مصطفى رشيد أن محمداً علياً لو حاول تحقيق هذا الهدف بالطرق العسكرية لجعل من قضية الباب العالي استعادة الجزائر ، أمراً ثانوياً للغاية أمام السفير التركي مقارنة بالتكليف الذي تلقاه من الحكومة بشأن التوصل لأفضل حل للمشكلة المصرية . وقد كتب مصطفى رشيد في أحد تقاريره المؤرخ ١٨٣٤ من باريس يقول: " إن الوقت والوضع الحالي يجعلان من المشكلة المصرية أمراً عويصاً للغاية ، بحيث تصبح المشكلة الجزائرية تافهة بالمقارنة بها ( ٤٨ ، ص ٦٥ ) . وقد وضع مصطفى رشيد هذا الظرف نصب عينيه إبان قيامه بواجباته الدبلوماسية في باريس . ومن الملاحظ أن الإمبراطورية العثمانية كانت تولى اهتماماً كبيراً الاحتفاظ بمصر يفوق كثيراً اهتمامها بالجزائر ، فالأخيرة كانت تدخل في نطاق الإمبراطورية العثمانية اسمياً فقط . كانت مصر تدفع جزية كبيرة ، وكانت ملزمة أن تضع تحت تصرف الباب العالي قواتها العسكرية ، وقد كانت قوات لا يستهان بها بمقياس ذلك الزمن .

وقد بلغت قيمة الجزية التي كان على مصر أن تدفعها في عام ١٨٣٤ ( ٣٢ ألف كيس ) أي ما يعادل ٦ ملايين فرنك ( ١١٢ ، ص ٦٠ / ١٩٨ ، ص ١٤٠ ) . وقد دفعت ممالك الدانوب للباب العالي في نفس العام ( نورد ذلك للمقارنة ) ٣ ملايين قرش وهو ما يعادل ٦٨٠ ألف فرنك تقريباً ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ) .

وقد كلف الباب العالي أيضاً مصطفى رشيد أن يستوضح موقف فرنسا إذا ما اشتعلت الحرب ، التي كان الباب العالي يستعد لدخولها ضد محمد علي إبان الانتفاضة السورية واللبنانية عام ١٨٣٤ .

وقد علمنا مما سبق أن مصطفى رشيد توقف في فيينا وهو في طريقه إلى باريس في سبتمبر عام ١٨٣٤ للتباحث مع مترنيخ . وقد أكد له الأخير أن الدول الكبرى لا ترغب في تصعيد الصراع التركي المصري وأنها لن تسمح به . وأعرب السفير التركي عن أمله ألا تبدي روسيا وحدها مشاعرها الطيبة نحو السلطان ، بمناسبة انتفاضة السكان في سوريا ، بل وأن تحذو الدول الكبرى أيضاً حذوها ( ٤٥ ، العدد ١ ، ص ٣١ - ٣٢ ) . ويدل هذا التصريح على الأمل الذي راود الحكومة السلطانية في تلقي الدعم من الدول الأوروبية لقمع تمرد محمد علي .

وفي باريس أجرى مصطفى رشيد مباحثات مع جاك ديزاج رئيس إدارة البروتوكول بوزارة الخارجية الفرنسية ، متمنياً أن يتوصل من خلالها إلى التعرف على

موقف فرنسا من الوضع المتأزم . وقد حذر ديزاج من أنه في حالة قيام أي دولة أوروبية بالمبادرة بالحرب ( أي لو ساندت أي من الطرفين المتنازعين سواء السلطان أو محمد علي ) فإن الدول الأخرى لن تسمح بذلك " دفاعاً عن مبادئ الحضارة " ، وأشار ديزاج " ولهذا فإن نية السلطان التصالح مع محمد علي أمر يتفق والسياسة الراهنة " ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣١ ) .

عندئذ بدأت المباحثات بين ممثلي كل من السلطان ومحمد علي ، بعد ما أقتنع الجانبان باستحالة تحقيق مخططاتهما بسبب تضارب مصالح الدول الأوروبية ، كان السلطان يطالب محمداً علياً بإعادة الآي الرقة الذي استولى عليه وأن يدفع الجزية ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٠ ) ، والتي كان والى مصر قد امتنع عن دفعها متعللاً بأعذار كثيرة قاطعاً بذلك التزامه بتنفيذ شروط معاهدة كوتاهية . وقد انتهت المباحثات بتقديم تنازلات من الجانبين ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٠ ) .

وقد أفرد مصطفى رشيد مساحة كبيرة من تقاريره الدبلوماسية التي أرسلها من باريس خلال العامين ١٨٣٤ و ١٨٣٥ للمعلومات التي نشرتها الصحافة الفرنسية عن تركيا . كان مصطفى رشيد يسعى دائماً لاستمالة العاملين في الصحافة المحلية وكذلك الرأي العام الفرنسي نحو تركيا السلطانية .

وقد أبلغ السفير التركي الباب العالي أن فرنسا تعد نصيراً لمصر وأن صحافتها تأتي على ذكر محمد علي بلهجة استحسان ، وأشار إلى أن الشائعات التي روجها محمد علي عن نفسه قد تلقاها الناس هنا باعتبارها طموحاً منه إلى " الحضارة " ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٣ ) . وأكد أيضاً على أن عدداً من التجار المعروفين ينشرون في الصحف الفرنسية ، مع ما يتكبدونه من نفقات ، معلومات تعود بالفائدة على محمد علي وأنهم يسعون لاستمالة عقول الفرنسيين نحوه ( ٤٥ ، العدد ١ ، ص ٣٩ ) . على أن الناس في فرنسا ويفضل مساعي مصطفى رشيد أصبحوا يتحدثون عن المعاملة القظة واضطهاد محمد علي للأهالي ، كما راحوا يتحدثون أيضاً عن الإصلاحات التي تجرى في الإمبراطورية العثمانية . وعلى الرغم من أن النتائج التي حققها مصطفى رشيد لم تكن شديدة الأثر ، إلا أنه عبر عن آماله في سرعة سقوط " الهيبة الزائفة " التي اكتسبها والى مصر ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٣ ، ٤٨ ، ص ٦٦ ) . كانت علاقات العمل مع العاملين في الصحف الفرنسية تتطلب نفقات مالية . وكان على مصطفى رشيد أن يدفع شهرياً ، على سبيل المثال ١٥٠ فرنكاً لأحد محرري صحيفة " Message " ، التي أخذت لهجتها ، كما أشار مصطفى رشيد ، تتغير تدريجياً لصالح تركيا ( ٤٥ ، العدد ٤ ، ص ٢٩٤ / ٤٨ ، ص ٦٦ ) .

وقد أوصى الجنرال جيليمينو ، السفير السابق لدى إسطنبول ، مصطفى رشيد بالتعامل مع موظف تربطه علاقات عمل بعدد من الصحف ، وتنحصر مهمته في تقديم موجز للمقالات الصحفية قبل صدورها بأربع وعشرين ساعة ، وإرسالها إلى الوزراء المحليين . وكان هذا الموظف يرسل هذا الموجز إلى عدد من السفراء الذين استطاعوا عقد علاقات طيبة معه ، فإذا ما اعتبر بعضهم أن شيئاً ما في هذه المواد يتناقض وتوجهات السياسة الخاصة ببلادهم ، فإنهم يقومون بتنبيه الموظف إلى ذلك ، فيقوم هذا بسحب هذه المقالات تماماً أو بتخفيف لهجتها . كما كان هذا الموظف يقوم أيضاً بنشر المواد التي يتلقاها من السفراء في الصحف التي له معها علاقات ، وكانت خدماته بالطبع تتطلب تمويلاً . وقد وعد هذا الرجل بنشر معلومات في صحيفتي "Deba" و "Moniteur" عن إنشاء دور للبريد وعن التعليم في الأسطول العثماني وعن إعفاء السلطان محمد علي من الضرائب المستحقة عليه ، انتظاراً لأن تترك هذه المعلومات انطباعاً حسناً ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٢ ) . كان مصطفى رشيد يبلغ الباب العالي أولاً بأول أنه قد أحاط القراء الفرنسيين علماً بإنشاء طريق برى يربط بين أوسكيودار وإزميت ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٢ ) ، وأنه قد تقرر إقامة حجر صهي للإمبراطورية العثمانية ، وإن كانت المشاغل المتعلقة بمصر قد حالت دون إتمامه ( ٤٥ ، العدد ٣ ، ص ٢٩١ ) .

وبعد وصوله إلى باريس ، أشاد السفير التركي بأهمية الدور الذي تؤديه الصحف التي يصدرها السيد بلاك<sup>(١)</sup> باللغة الفرنسية في الإمبراطورية العثمانية وقد كتب مصطفى رشيد قائلاً إن وصول هذه الصحف إلى فرنسا قد ساعدت على تغيير رأى الفرنسيين في الإمبراطورية العثمانية إلى الأفضل ، حتى أن هناك مقالات تناولت محمداً علياً بنوع من السخرية . كما أشار السفير التركي إلى أن تحول الرأي العام الفرنسي قد ساعدت عليه أيضاً الإصلاحات التي أجراها محمود الثاني . وقد أخذت الصحف الفرنسية في استخدام " لهجة غير متحيزة " تجاه تركيا السلطانية ( ٤٥ ، العدد ٩ ، ص ٢١١ ) .

وقد علم مصطفى رشيد أن محمداً علياً يدفع ٦٠٠ فرنك لمحرر جريدة " Courrier francais " شهرياً ، على أن السفير التركي لم يكن يملك إمكانية دفع مثل هذا المبلغ وأعرب في تقاريره عن أسفه لهذا ( ٤٥ ، العدد ٩ ، ص ٢١٩ ) .

١- ولد الكسندر بلاك ( Blacque ) عام ١٧٩٧ في باريس ، وسافر إلى أزمير في فترة الدعوة لإعادة النظام البائد ( ١٨١٥ - ١٨٢٠ ) . أصدر صحيفتي " Courrier de Smyrne " و " le Spectateus Oriental " . وأصدر في إسطنبول صحيفة " le Moniteur Ottoman " بناء على اقتراح من السلطان . توفي عام ١٨٢٧ .

يدل الاهتمام الذي أولاه السفير التركي للصحافة الفرنسية ، على الأهمية الكبيرة التي كان يعلقها على الرأي العام الفرنسي وعلى ما بذله من مساعٍ للتأثير فيه . كان مصطفى رشيد يعلم أن الرأي العام له أثر معلوم في علاقة الدبلوماسية الفرنسية وحكومة فرنسا بالصراع التركي المصري .

وفي باريس ازداد اقتناع مصطفى رشيد بإمكانية حل الصراع التركي المصري بمساعدة إنجلترا ، فأرسل في مارس عام ١٨٣٦ يلفت انتباه الباب العالي إلى استخفاف القنصل الإنجليزي في ألبو بالإدارة المصرية ، ووصل إلى استنتاج مفاده أن سخط إنجلترا على محمد علي قد ازداد ، وأشار على الباب العالي أن لا يضيع هذه الفرصة المواتية ( ٤٥ ، العدد ١٢ ، ص ٤٦١ ) ، وبعد فترة ، في الثالث من يوليو عام ١٨٣٦ ، عاود السفير التركي الكتابة من جديد إلى الباب العالي ليخبره أنه " بناء على السياسة الراهنة مع إنجلترا ، فإن من المفيد توطيد العلاقة معها ، إذ أن تدهور هذه العلاقة يمكن أن يؤدي إلى نتائج وخيمة " ( ٤٥ ، العدد ١٣ ، ص ٥٢ ) . كانت هذه المشورة تمثل رد فعل مصطفى رشيد تجاه ما حدث في إسطنبول وأدى إلى تراجع في العلاقات الإنجليزية التركية<sup>(١)</sup>.

في ١٣ سبتمبر عام ١٨٣٦ تلقى مصطفى رشيد أمراً من الباب العالي بأن يتبادل موقعه مع سفير تركيا في لندن نوري أفندي ( ٢٠٧ ، ص ٧٠ ، انظر أيضاً ٢٤٥ ، العدد ١٤ ، ص ٦١ ) . كان الباب العالي يعول على مصطفى رشيد ، الذي برهن على أنه أكثر الدبلوماسيين حنكة ، في تحقيق أقصى ما يمكن من نجاح في لندن ، بما في ذلك الوصول إلى حل للصراع التركي المصري .

لم يكن هناك أي تحسن قد طرأ على العلاقات المتوترة بين تركيا ومصر . وفي ١٤ من أكتوبر عام ١٨٣٦ ، أي في الأسابيع الأولى لوجوده في لندن بصفته سفيراً ، أبلغ مصطفى رشيد إسطنبول أن الصحف الفرنسية عاودت مرة أخرى الكتابة حول نية محمد علي إعلان منصب والي مصر منصباً وراثياً ، كما أفادت هذه الصحف ، علاوة على ذلك ، أن محمداً علياً أعلن رسمياً في حضور قناصل أوروبا في القاهرة ولده إبراهيم خليفة له على سوريا وحفيده عباس باشا خليفة له على مصر ( ٤٦ ، العدد ١٤ ، ص ٦٥ - ٨٨ ) .

١- لقد تصادف أن أصاب أحد المواطنين الإنجليز ويدعى تشرشل أثناء قيامه بالصيد طفلاً تركياً ، وعندها أصر الأهالي على إلقاء القبض على تشرشل ، الذي ظل مصيره مجهولاً لبضعة أيام . وقد اعتبر بونسونبي السفير الإنجليزي لدى إسطنبول أن السلطات التركية قد خرقت بهذا قانون حماية المواطنين الإنجليز في الإمبراطورية العثمانية وأعرب عن إستيائه . وقد ساءت العلاقات بين البلدين إلى حد أن الباب العالي فوض مصطفى رشيد في إبلاغ الحكومة الإنجليزية بما حدث وطلب منه إدانة سلوك بونسونبي ( لمزيد من التفاصيل انظر المرجع ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٩ ) .



كان لهذه الأنباء وقع شديد على مصطفى رشيد ، الذى سارع فور وصوله إلى لندن فى أكتوبر ١٨٣٦ بالتوجه لمقابلة بالمرستون ، حتى يستوضح منه مدى صحة هذه الشائعات ويتعرف على الموقف الذى سوف تتخذه إنجلترا حياله . آنذاك كانت الحكومة الفرنسية قد استدعت سفيرها فى إسطنبول ، الأدميرال روسين ، إلى باريس وفسر مصطفى رشيد هذا الاستدعاء بأن له علاقة بما يجرى من أحداث فى مصر . هدأ بالمرستون من روع السفير التركى بخصوص عزم فرنسا ، بعد أن أخبره أن المسألة الجزائرية تعد استثناء ، وأن فرنسا فيما يتعلق بالقضايا الأخرى سوف تقف إلى جانب الإمبراطورية العثمانية . وفى الوقت نفسه حاول بالمرستون أن يستوضح موقف السفير التركى والحكومة السلطانية فى سياسات كل من فرنسا وروسيا . اكتفى مصطفى رشيد بالتعبير عن موافقته على رأى بالمرستون بشأن علاقة فرنسا بالسلطان وأضاف متوخياً إلقاء الضوء على هدفه الرئيسى ، وهو تلقى مساعدة إنجلترا ، أن الهدف الرئيسى للإمبراطورية العثمانية هو صداقة إنجلترا . وأكد بالمرستون فى رده أن إنجلترا على استعداد دائماً لإظهار تعاطفها مع كل مشكلات الباب العالى . اعتبر مصطفى رشيد أن من الضرورى جذب انتباه محدثه أن رغبة السلطان تتلخص فى إخراج المصريين من سوريا وفى الالتزام الكامل لمحمد على بواجباته كتابع للسلطان ، وأشار السفير التركى إلى أن محمداً علياً يتحدث منذ الآن عن خلفائه ولهذا فإن مثل هذه الظروف سوف تدفع بالباب العالى لإعلان الحرب عليه بدلاً من الدخول فى مفاوضات معه .

أجاب بالمرستون بلهجة ودية مؤكداً أن إبعاد محمد على عن سوريا لا يتم بإلقاء المواعظ ، وفى الوقت نفسه فإن محمد على يمتلك هناك قوات جديرة بالاعتبار ، ولذلك فإنه يقترح عدم إثارة هذا الموضوع ما بقى محمد على على قيد الحياة ، فهو عجز يشكو من المرض ولن يعيش طويلاً ، فإذا وعد السلطان بذلك ، وأضاف بالمرستون ، فإن إنجلترا من جانبها سوف تخبر محمد على أنه لا يملك الحق فى استبقاء قواته فى سوريا وإظهاره للعصيان ، وسوف يسمح هذا للباب العالى بأن ينتبه لمشكلاته الداخلية ويعمل على رفع مستوى الحياة ورفاهية السكان . وأشار بالمرستون أن إنجلترا كانت تنظر دائماً إلى محمد على باعتباره مجرد وال لا أكثر وأنه واحد من رعايا السلطان ، وهو ما نبهته إليه إنجلترا مراراً ، وأن ما يدعيه من إنتقال السلطة إليه بالوراثة يبدو - فى رأى بالمرستون - أمراً غريباً .

ومع هذا فلم يتجاهل وزير خارجية بريطانيا علاقة روسيا بتركيا السلطانية ووجه إليها انتقاداً حاداً .

وقد رد السفير التركى على بالمرستون - متجاهلاً اقتراحه بشأن الحافظ على

السلام وإبقاء الوضع بين السلطان ومحمد علي على ما هو عليه - معلناً أن مشكلة سوريا تتطلب مباحثات دقيقة مستقبلاً وقد أعرب وزير خارجية إنجلترا عن موافقته على هذا الرأي .

كتب مصطفى رشيد إلى الباب العالي يخبره أن مباحثاته أستمريت طويلاً ، وأنهى تقريره بالاستنتاجات الآتية:

١- لا تحبذ إنجلترا نية محمد علي في الحصول على سلطة وراثية في مصر ، وترى أن من الضروري القضاء على تمرده دون ضجيج ( أى بطريقة دبلوماسية وليس بالجوء إلى الحرب ) ، وتعزم حل الصراع لصالح السلطان .

٢- ينبغي تقوية الحدود مع روسيا مع عدم الاستناد إلى معاهدة أونكيار إيسكيليسى ودون إعطاء روسيا حجة للتدخل في الصراع التركي المصرى .

٣- لن تسمح فرنسا - على الرغم من أنها تؤيد الوالى المصرى - بتصاعد حدة الصراع ، إذ إن إنجلترا تظهر اهتماماً بما يقوم به محمد علي من أعمال ، وهو اهتمام يتناقض ومصالح فرنسا ، كما أن الاهتمام الذى تظهره فرنسا من حين إلى آخر تجاه روسيا لم يعد متيناً كما كان ، فضلاً عن أنه لا يلقى تأييداً من الفرنسيين .

غير أن التأييد الواضح من جانب روسيا لكارل العاشر المخلوع يبدو أنه قد ضعف الآن ، ولعل روسيا الآن تميل أكثر لسياسة الملك لويس فيليب . وإن كان الأمر لم يصل إلى حد تبادل الثقة بين الدولتين ، بحيث يعرض السفير الفرنسى آراءه على السفير الروسى ، وبخاصة أن نيات فرنسا تجاه مصر تتعارض والمصالح الروسية (٤٦ ، العدد ١٤ ، ص ٦٥ - ٧٠) .

على هذا النحو نجد أن مصطفى رشيد فى أول تقرير له من لندن حول وضع الصراع التركى المصرى وموقف الدول الأوروبية منه ، يقترح عدداً من النقاط للقضاء على النزاع التركى المصرى وتتلخص فى: التوجه إلى إنجلترا ، إذ أنها تعزم مساعدة السلطان فى تحقيق أهدافه ، عدم طلب أى مساعدة من روسيا بموجب معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، عدم التخوف من فرنسا حيث أنها ، كما يبدو ، لا ترغب فى تأييد محمد علي ، وهى لن تفعل هذا تضامناً مع إنجلترا ، التى تتعارض مصالحها مع مصالح روسيا ، ويرى السفير التركى أن محاولات التقارب الروسى الفرنسى لا تقوم على أساس متين .

تتيح لنا التقارير الدبلوماسية التى بعث بها مصطفى رشيد من لندن عامى ١٨٣٦ و ١٨٣٧ التعرف على نقطة البدء فى التقارب الإنجليزى التركى . ونظراً لأنه ، حتى

الآن ، ما تزال المؤلفات تتناول قضية ما إذا كانت إنجلترا متورطة في إشعال فتيل الصدام العسكري الثاني بين السلطان ومحمد علي ( انظر ٦٣ ، ص ٧٥ ) فإن هذه التقارير تمثل وثائق تركية ذات أهمية بالغة ، وترجع هذه الأهمية ؛ لأنها تلقى بالضوء على مراحل تكون الموقف الدبلوماسي للباب العالي عامي ١٨٣٦ و ١٨٣٧ ، أي في تلك الفترة التي حولت فيها الدبلوماسية السلطانية توجهاتها الدولية بشكل واضح وراهنهت خلالها على التحالف مع إنجلترا .

وفي أكتوبر عام ١٨٣٦ ، وبعد أن فشلت محاولة محمد علي فرض سلطاته بسبب رفض الدول الأوروبية ، بدأت من جديد المفاوضات المباشرة بين ممثلي الدولتين المتنازعتين . واستمرت هذه المفاوضات بدءاً من الربيع الأخير لعام ١٨٣٦ وحتى النصف الأول من عام ١٨٣٧ .

ويمكن أن نستنتج من تقارير مصطفى رشيد أن فرنسا في مبادرتها ( التي لم تلق قبولاً من إنجلترا ) ، أخذت على عاتقها مسئولية الوساطة في المفاوضات . ففي يناير عام ١٨٣٧ اقترح السفير الفرنسي في إسطنبول ، الأدميرال روسين ، على محمد علي أن يحصل من السلطان على اعتراف بأحقية في حكم مصر بالوراثة وبحقه في حكم سوريا مدى حياته ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ) . وفي يونيو عام ١٨٣٧ استجاب السلطان لهذا الطلب ، على أنه وعد بإعطاء محمد علي السلطة في حكم جزء من سوريا حتى عكا مدى حياته ، على أن تبقى صيدا تحت حكم السلطان ( ٤٦ ، العدد ١٦ ، ص ٥٨ - ٥٩ ) ، وفي مصادر أخرى نعرف أن محمداً علياً رفض رفضاً قاطعاً التخلي عن فكرة وراثة أسرته للحكم في سوريا ، وهكذا وصلت المفاوضات التي أدارها ساري أفندي نيابة عن الباب العالي ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ) إلى طريق مسدود ( ٢٧ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ / ٤٨ ، المجلد ٤ ، ص ٢٤٣ / ٩٧ ، ص ٩٩ / ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ ، انظر أيضاً ٤٦ ، العديدين ١٧ ، ١٨ ، ص ١٨٧ ) .

في تلك الفترة ، لفت بالمرستون مرة أخرى انتباه مصطفى رشيد إلى أن محمداً علياً لن يترك سوريا بمحض إرادته ، وأشار عليه بالآ يحاول أن يتخذ أي خطوة بالقوة لخطورة الأمر ، على الرغم من أنه أكد أن إنجلترا ترغب في تحرير سوريا من نير محمد علي . على أن السفير التركي اعتبر أن الأمر لا يستدعي استخدام القوة وأنه يكفي أن توجه كل من فرنسا وإنجلترا تهديدات حاسمة لمحمد علي . لكن بالمرستون لم يقتنع بجذوى استخدام مثل هذا الحل السهل . ومع ذلك فقد ألح إلى أنه في حالة موافقة السلطان على حل هذه المشكلة بالشروط التي اقترحتها السفير الفرنسي روسين ، فسوف توافق إنجلترا عليها ولو عرضت عليها الوساطة فستقبلها .

بدا لمصطفى رشيد أن موافقة السلطان على ترك سوريا خاضعة لمحمد على أمر غير واقعي ، ولهذا فقد اعتبر أنه قد أصبح من غير الممكن التدخل في المفاوضات الجارية وهو ما أعلنه للوزير الإنجليزي ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ١٣٨ ) .

وهكذا وفي يناير عام ١٨٣٧ عاد بالمرستون إلى موقفه السابق ، بل إنه أشار إلى خطورة وقوع الحرب بين السلطان ومحمد على . وقد نبه مصطفى رشيد بالمرستون إلى أنه في حالة استمرار الباب العالي في محاولاته لعقد اتفاق مع محمد على وعامله " معاملة حسنة " ، فإن هذا الموقف يمكن أن يطول ، فالوصول إلى اتفاق ثابت في ظل بقاء سوريا تحت حكم محمد على أمر مستحيل ، كما أنه ليس من المعروف من سيستغل وقوع أي أحداث مفاجئة ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ص ١٣٧ ) .

كان السفير التركي يقصد بهذا التصريح حفز الوزير الإنجليزي على اتخاذ موقف أكثر حسماً نحو تأييد السلطان ، موقف من شأنه أن يغير من الوضع القائم . لقد ألمح مصطفى رشيد مباشرة ودون موارد إلى أن وقوع " أحداث مفاجئة " يعني تحديداً نشوب الحرب بين محمد على والسلطان ، وهو ما يمكن أن تستغله روسيا لصالحها . كما أبلغ مصطفى رشيد بالمرستون أيضاً أنه في حالة الوصول إلى تسوية الصراع التركي المصري ، فإن الإمبراطورية العثمانية سوف تنسق سياستها مع سياسة إنجلترا وفرنسا حتى ولو جرى مد العمل بمعاهدة أونكيار إيسكيليسى . كان مصطفى رشيد يرى أن إمكانية مد المعاهدة يتوقف على السعى للحصول على تسوية ملائمة للصراع التركي المصري وبحيث لا تتعارض هذه التسوية مع مبادئ سياستي كل من إنجلترا وفرنسا ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ص ١٣٧ ) .

كان الوعد الذي بذله السفير التركي بشأن عزم الباب العالي التوجه مستقبلاً ناحية الدول الغربية بغض النظر عن العلاقات الشككية بروسيا يستهدف أيضاً الحصول على تأييد أكثر فعالية من جانب إنجلترا .

في يونيو عام ١٨٣٧ تم تعيين مصطفى رشيد وزيراً لخارجية الإمبراطورية . وقد جاء هذا التعيين تأكيداً على التقارب الواضح بين إنجلترا وتركيا ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٩٣ / ١٣٢ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ، أنظر أيضاً ٣٤ ، المجلد ١٢ ، ص ٧٣ / ١١٥ ، ص ٨٠ ) ، وقد تأجل موعد مغادرة الوزير التركي عائداً إلى بلاده حتى شهر أغسطس . وفي مطلع شهر أغسطس عام ١٨٣٧ استقبلت الملكة فيكتوريا<sup>(١)</sup> ، ملكة إنجلترا ، مصطفى رشيد ، وذلك قبل شهور قليلة من إعتلائها عرش البلاد . وفي مساء ذلك اليوم

١- أعتلت الملكة فيكتوريا العرش في السابع والعشرين من يونيو عام ١٨٣٧ بعد وفاة عمها وليم الرابع ملك إنجلترا .

أجرى مصطفى رشيد مباحثات سرية مع بالمرستون استمرت ساعتين ، تناولا خلالها مشكلات السياسة الخارجية للإمبراطورية العثمانية ، وصرح فيها وزير الخارجية الإنجليزى لنظيره التركى أنه طلب من قنصل إنجلترا الثانى فى مصر ( الذى كان موجوداً آنذاك فى لندن ) أن يبلغ محمداً علياً أن إنجلترا لا تعتبره سوى تابع وخادم للسلطان ، وهذا يعنى أن مصر ، فضلاً عن سوريا ، يخضعان للسلطان وأن محمداً علياً نفسه ليس أكثر من وال لهاتين الولاياتين ، وعلى هذا فإن إنجلترا لا تؤيد إدعاءاته فيهما نهائياً . وأنه وعلى الرغم من أن سوريا فى الوقت الحالى تخضع لسلطانه ، فإن إنجلترا تأمل فى أن تقوم الإمبراطورية العثمانية فى أقرب وقت بإعادة الأمور إلى نصابها وتحرير سوريا ، وعلى الرغم من إصرار محمد على الذى ازداد حتى وصل إلى أنه يعتزم الإستيلاء على اليمن ليصل من خلالها إلى المحيط الهندى ، فإن إنجلترا لا يمكنها أن تسمح بذلك .

أعرب مصطفى رشيد عن امتنانه لبالمرستون وأعلن أنه سيبلغ حكومته على الفور بمضمون هذه المباحثات وعقب قائلاً : " لا شك أن جلالة السلطان سوف يسر لهذه الأخبار " ( ٤٦ ، العددان ١٧ ، ١٨ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ) .

وهكذا وبعد تسعة أشهر من وصول مصطفى رشيد إلى لندن تغيرت وبصورة جادة علاقة بالمرستون من قضية تحرير سوريا ومن حكم محمد على . وإذا به يتحدث فى أغسطس عام ١٨٣٧ لا عن مخاطر نشوب الحرب بين السلطان ومحمد على ، كما حدث فى أكتوبر ١٨٣٦ ، وإنما عن التحرير الوشيك لسوريا . كانت هذه الكلمات موجهة فى حقيقة الأمر إلى الوالى المتمرد ، ولكن بالمرستون رأى أن من الضرورى أن يبلغ بها السفير التركى لعلمه بأن السلطان كان متعطشاً للحرب .

وخلال المباحثات التى تمت بعد ذلك ببضعة أيام ، لفت بالمرستون انتباه وزير خارجية الإمبراطورية العثمانية إلى أن محمداً علياً يستخدم الفرنسيين بأعداد كبيرة فى الجيش والأسطول . فعلى سبيل المثال فإن قائد ترسانة طولون يقوم للسنة السادسة بمتابعة تطور الشؤون البحرية فى مصر ، وأن فرنسا لم تكف بإعطائه راتباً مساوياً لما كان يتقاضاه من قبل ، وإنما أنعمت عليه بوسام لقاء ما قدمه من خدمات للوالى المصرى ، كما أن الضباط الفرنسيين يعملون على متن سفن محمد على وفى المدارس والمطابع التى افتتحت فى مصر وفى إدارات الجيش .

لقد بلغ تعاطف فرنسا مع محمد على ورعايتها له إلى حد أن قنصلها فى مصر لم يعرب من جانبها ، بناء على تعليمات من حكومته ، عن أى اعتراضات على نظام الاحتكار الذى كان محمد على يطبقه على الرغم من مخالفته للاتفاقات

الدولية ، حتى أن الرعايا والتجار الفرنسيين كانوا يضحون أحياناً بمصالحهم إرضاء لمحمد علي .

وقد ذكر بالمرستون فيما بعد أنه في الوقت الذي كان فيه محمد علي مجرد والٍ وخادم للسلطان ، فقد كان يسعى لتقوية مصر بدعم من الفرنسيين ، وكانت الإمبراطورية العثمانية ، للأسف الشديد ، تمانع في دعم قواها الذاتية قاصرة إهتمامها على سماع وشايات بعض إعداءها ، ولو أن السلطان قام بالارتفاع بمستوى الجيش والبحرية جنباً إلى جنب مع الإصلاحات التي حققت نجاحاً حتى الآن واستناداً إلى موقع الإمبراطورية العثمانية وكفاءات السكان فيها ، لنجح في تنظيم شئونها المالية ولاستطاع بالمرستون أن يقسم أنه بالإمكان بعد فترة قصيرة القضاء على محمد علي ، ولأصبح للإمبراطورية العثمانية ، فضلاً عن ذلك ، شأنٌ عظيمٌ يضارع الدول الأخرى .

رفض مصطفى رشيد تأكيد بالمرستون على وجود تدخل أجنبي ( يعني الدبلوماسية الروسية ) ، ولكنه أعرب عن رضائه عن الثقة التي يوليها له محدثه وقال إن السلطان ينظر بعين الاهتمام دائماً للإصلاحات التي من شأنها أن تعود على البلاد بالفائدة ، وإن كان الأمر يتطلب إنجازها بالتدريج ، وهو ما وافقه عليه بالمرستون (٤٦، العديدين ١٧ ، ١٨ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ ) .

إن هذا التقرير الأخير ( المؤرخ ١٠ أغسطس ١٨٣٧ ) ، والذي كتبه مصطفى رشيد عشية رحيله إلى الوطن قادماً من لندن ، يتضمن الحديث عن أوضاع كثيرة جديدة ، كما يتعرض أيضاً لموقف إنجلترا من الصراع التركي المصري .

لقد تغير موقف إنجلترا من قضية إشعال الحرب بين السلطان ومحمد علي . لم يعد بالمرستون يطالب الباب العالي بعدم الدخول في حرب ضد محمد علي ، ولم يعد يذكره بخطرته على تركيا السلطانية ، وإنما راح على العكس من موقفه السابق ، يدعو لرفع قوته العسكرية ودعم أوضاعه الداخلية ، وأعرب له عن ثقته في إحراز النصر على الوالي المتمرد بعد أن يعد لكل شئٍ عدته اللازمة . ومن الملاحظ أيضاً أن تقديرات بالمرستون لسياسة فرنسا في مصر قد تغيرت هي الأخرى . لقد أدان بالمرستون هذه السياسة صراحة وأوضح لمصطفى رشيد أنه يعتبر ما تقوم به فرنسا من أعمال موجهة ضد مصالح السلطان . كما تحدث بالمرستون عن محمد علي حديثاً يشوبه التهديد ، وذلك بعد أن شعر بالقلق من جراء مخططات محمد علي بغزو اليمن وخروجه إلى المحيط الهندي .

على أن المصادر التاريخية ، للأسف ، لا تقدم لنا شروحات لأسباب هذه التغيرات



في هذه الفترة تحديداً<sup>(١)</sup>، وإن كان مضمون المباحثات يدل على أن الأمل الذي كان يحلو لمصطفى رشيد في الحصول على دعم عسكري من إنجلترا يؤازره في صراعه مع محمد علي كانت وراءه مبررات حقيقية .

واستناداً إلى التقارير الدبلوماسية التي أرسلها مصطفى رشيد من لندن في الفترة من أكتوبر ١٨٣٦ وحتى أغسطس ١٨٣٧ ( ٤٦ ، الأعداد ١٤ - ١٨ ) ، يمكن أن نصل إلى استنتاج مفاده أن الباب العالي كان يتبع سياسة مزبوجة تجاه روسيا ، فعلى الرغم من عدم ثقته الكاملة تجاهها ، وهو ما انعكس بشكل واضح في تقارير مصطفى رشيد ، حاول الباب العالي أن لا يتسبب أي شيء في إفساد علاقته الطيبة معها . ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك أن الباب العالي فضل تبرم إنجلترا على فقدان رضا روسيا ، فقد رفض الباب العالي ، لهذا السبب ، دعوة الخبراء العسكريين الإنجليز إلى الإمبراطورية العثمانية خشية اعتراض روسيا على هذه الخطوة ( ٤٦ ، العدد ١٥ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ، قارن ما جاء في المرجع ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٠ - ٢٧٣ ) .

ويدلنا الحرص البالغ وعدم التدخل التام من جانب الإمبراطورية العثمانية في الصراع الإنجليزي الروسي ، والذي انفجر على اثر إستيلاء الروس على السفينة الشراعية الإنجليزية " ويكسن " في نهاية عام ١٨٣٦ ، على أن الباب العالي نجح في الحفاظ على موقف حيادي صارم ، فضلاً عن نجاحه في إخفاء تعاطفه مع الإنجليز في هذه الحادثة عن الروس ( أنظر ٤٦ ، العدد ١٦ ، ص ٤٩ - ٥٣ ، العددان ١٧ ، ١٨ ، ص ١٧٦ - ١٧٨ ) .

لقد أظهر الباب العالي هذا الحذر ، عندما أعلن بالمرستون عن اهتمامه بتأييد الإمبراطورية العثمانية لبلجيكا المستقلة وللملكة إسبانيا ، التي كانت قد دخلت في صراع ضد أنصار الملك كارل . فقد حاول مصطفى رشيد أن يجد حجة يؤجل بمقتضاها إتخاذ الحلول الملائمة للباب العالي ، وخاصة وهو يعلم أن روسيا لا تقف في صف ملكة إسبانيا ، كما أنها لا تؤيد العلاقات السياسية مع بلجيكا ( ٤٦ ،

١- يمكن أن نفترض أن دفع بالمرستون للسلطان تجاه الحرب في أغسطس ١٨٣٧ ، كان مرتبطاً بزيارة الأمير أ. ف. أرلوف إلى لندن في يوليو ١٨٣٧ . وقد أسفرت زيارة أرلوف عن تسوية نهائية لحادثة السفينة " ويكسن " ، التي كانت أن تؤدي إلى وقوع صدام عسكري بين الدولتين . إن الثقة التي بثها أرلوف لدى الوزير الإنجليزي من ناحية أن روسيا راغبة عن الدخول في تعقيدات عسكرية ، ربما تكون قد شجعت بالمرستون نحو مشروعات أكثر شجاعة في الشرق الأوسط ، موجّهة سواء ضد مصالح روسيا أو ضد فرنسا . على أن هناك احتمال لتفسير آخر يستند إلى تقارير ومذكرات مصطفى رشيد ومفاده أن بالمرستون كان يخشى إمكانية قيام تحالف فرنسي روسي موجه سواء ضد الإمبراطورية العثمانية أو ضد إنجلترا .

العددین ١٧ ، ١٨ ، ص ١٨١ - ١٨٢ ) . على أى حال ، فقد عقد مصطفى رشيد معاهدة تجارية ودية مع بلجيكا بعد مرور عام وفى الوقت نفسه اعترف الباب العالي بملكة إسبانيا ، وهو أمر لم يجد ترحيباً فى بطرسبورج ( أنظر ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ) .

وعلى الرغم من أن الباب العالي كان يوافق فى أحيان كثيرة على رغبات روسيا باعتبارها حليفة له ويستمتع إلى مشورتها ، إذا لم تتعارض هذه المشورة مع مصالحه ، فإن هذا لم يمنع الباب العالي من أن يتحرى تحقيق أهدافه السياسية فى القضايا الأكثر أهمية والتي تمس مصالح الدولة العليا ، وقد توجت سياسة تركيا السلطانية بالنجاح: لقد استطاعت هذه السياسة ، ودون أن تفسد العلاقات الودية مع روسيا مستغلة إياها لصالحها ، أن تحصل فى الوقت نفسه على مساعدة إنجلترا فى حل الصراع التركى المصرى ، وهو ما لم تكن تريده روسيا ، التى لم تكن ترغب فى أن يكون لإنجلترا دور رئيسى فى التدخل فى شئون الإمبراطورية العثمانية .

## الفصل الرابع

### التقارب مع إنجلترا وتوقيع إتفاقية التجارة الإنجليزية التركية عام ١٨٣٨

تحتوى المراجع الأوروبية على معلومات تفيد أن الحكومة التركية تقدمت فى عام ١٨٣٦ ( ١٨٢ ، ص ٦٧ ) ، أو فى عام ١٨٣٧ ( ١٥١ ، ص ١٦٧ ) إلى إنجلترا باقتراح عقد تحالف عسكرى ضد محمد على . ويشير ف. أ. بايلى إلى أن الباب العالى اقترح هذا التحالف وهو يعنى الضعف الذى آلت إليه العلاقات بين روسيا والنمسا وبروسيا ، كما كان على علم بالخلافات التى دبت بين إنجلترا وفرنسا فى تلك الفترة ( ١٥١ ، ص ١٦٧ ) . والواقع أن الدبلوماسية العثمانية كانت ترقب باهتمام فتور العلاقات بين إنجلترا وفرنسا عامى ١٨٣٦ و ١٨٣٧ ( ٤٦ ، ١٧ - ١٨ ، ص ١٨٤ / ٤٨ ، ص ٨٥ - ٨٧ ، أنظر أيضاً ١٨٢ ، ص ٦٦ ) . وعن أسباب سخط إنجلترا (انظر ٨٥ ، ص ٥٦٠ / ٧١ ، ص ٣٥٩ - ٣٦١ ، ٣٨٠ - ٣٨١ ) . وقد كان لدى إنجلترا أيضاً مخططاتها لعقد تحالف مع النمسا ، ومن الممكن دراسة ظهور هذه المخططات والمحاولات التى تمت من أجل تحقيقها استناداً إلى الوثائق العثمانية لتلك الفترة . لقد كان الباب العالى يضع فى حسبانته آنذاك تفاقم التناقضات الروسية الإنجليزية بسبب استيلاء الروس على السفينة الشراعية الإنجليزية " ويكسن " ( ١٣٢ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٢ ، ٤١١ - ٤١٣ ، ٨٩ ، ص ١١٤ - ١١٦ ، ٤٦ ، العدد ١٦ ، ص ٥٣ ) .

وبعد عودة مصطفى رشيد إلى الوطن فى سبتمبر عام ١٨٣٧ وتعيينه وزيراً لخارجية الإمبراطورية العثمانية ، قام بتسليم السلطان محمود الثانى مذكرة ( انظر ٤٨ ، ص ٨٤ - ٩٣ )<sup>(١)</sup> ، أورد فيها ، استناداً إلى ما تجمع لديه من ملاحظات شخصية إبان نشاطه الدبلوماسى فى باريس ولندن فى الفترة من ١٨٣٤ وحتى ١٨٣٧ ، الحلول الممكنة للقضاء على مشكلتين من أهم مشكلات العلاقات الخارجية

١- المذكرة غير مؤرخة . ويشتمل نصها على عبارة ( ٨٤ ، ص ٢٩ ) تؤكد أنها قد كتبت قبل بدء الانتفاضة السورية ضد محمد على . فالانتفاضة بدأت مع نهاية عام ١٨٣٧ ( أنظر ٨٤ ، المجلد ٤ ، ص ٢٤٢ ) ، ومن ثم يمكن إعتبار تاريخها هو الرابع الأخير من عام ١٨٣٧ ، فى الفترة الواقعة بين وصول مصطفى رشيد إلى إسطنبول فى سبتمبر عام ١٨٣٧ وبدء الانتفاضة فى سوريا .

للدولة: الصراع التركي المصري ، وعودة الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية . وتدل المذكرة على أن هاتين المشكلتين كانتا من أكثر المشكلات التي أرقت حكومة السلطان في عام ١٨٣٧ . وتحتوي المذكرة على مقترحات الوزير حول أهم الاتجاهات في السياستين الخارجية والداخلية للإمبراطورية العثمانية . وقد قدم مصطفى رشيد رؤيته للوضع الدولي والسياسات الخارجية لكل من إنجلترا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا ، وعلاقة هؤلاء بالصراع التركي المصري وبالإحتلال الفرنسي للجزائر . وتورد الوثيقة كذلك استشهادات جاءت على لسان رجال دولة مثل بالمرستون ومترنيخ والأمير إسترجازي ، سفير النمسا لدى إنجلترا والسيد ديزاج ، رئيس إدارة البروتوكول في وزارة الخارجية الفرنسية ، كما تورد آراء مصطفى رشيد الشخصية .

لقد لفت مصطفى رشيد انتباه السلطان إلى وجود جماعتين سياسيتين متنافستين داخل أوروبا وهما فرنسا وإنجلترا من جانب ، وروسيا والنمسا وبروسيا من جانب آخر .

إن التقرير - الوثيقة ملئ بالحقائق التي تؤكد على التنافس الواضح بين الدول الأوروبية ، وخاصة بين إنجلترا وروسيا ، على الإمبراطورية العثمانية . ويشير مصطفى رشيد إلى كلمات بالمرستون ، التي نستدل منها على أن أكثر ما كان يؤرق إنجلترا آنذاك هو وجود معاهدة أونكيار إيسكيليسى الموقعة عام ١٨٣٣ . وكان السفير التركي يعرب دائماً عن ثقته في أن إنجلترا سوف تؤيد السلطان عسكرياً ضد محمد علي ، وكثيراً ما لفت انتباه السلطان إلى أن هذا التأييد يلبي مصالح السياسة الخارجية الخاصة لإنجلترا ، وهي المصالح التي كانت تصطدم مع مصالح روسيا في الشرق ( ٤٨ ، ص ٩٠ )<sup>(١)</sup> ، كما أن مصطفى رشيد كان دائم التأكيد على أن روسيا تدعم محمداً علياً وهو دعم يمكن أن يؤدي إلى انفصال مصر عن الإمبراطورية العثمانية ووقوعها تحت سلطة روسيا ، كما كان يرى أن إمكانية وقوع هذا الأمر هو واحد من أسباب الكراهية الشديدة التي تكنها إنجلترا لروسيا ، إذ كانت الأولى ترى أنه في حالة استيلاء روسيا على مصر فربما يصبح بإمكانها عندئذ غزو إيران والهند<sup>(٢)</sup> . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أعرب مصطفى رشيد بشئ من الإرتياح أن

١- كانت لدى إنجلترا مخاوف من نيات عنوانية روسية مزعومة نحو الهند ( انظر ٨٥ ، ص ٥٥٨ - ٥٥٩ ) .

٢- حول انتفاء أي نية لدى روسيا لغزو الهند انظر أعمال المؤرخين الروس والسوفيت: ( ٧٩ / ٢٤ ، المجلد ١٢ ، ص ٧٤ - ٧٦ / ١٣٠ ، ١٥٠ ) ، وعن العلاقات الروسية الإيرانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر انظر: ( ٨٧ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ / ١٠٨ ، ص ١٤٠ - ١٤٦ ) .

محمداً علياً لا يولى ثقته لإنجلترا وروسيا وإنما يوليها لفرنسا ( ٤٨ ، ص ٨٩ ) .

كان مصطفى رشيد يشك في متانة التحالف بين فرنسا وإنجلترا ، وهو ما حاول بالمرستون إقناعه به ، وأكد رشيد أن الإستخفاف الذي شاب بعض عبارات بالمرستون عن فرنسا ، وكذلك المعلومات التي استقاها من أعضاء البرلمان الفرنسي حول وجود بعض المؤيدين لروسيا داخله ، تدل على إمكانية حدوث تقارب بين فرنسا وروسيا ، وقد أكد هذا الإستقراء للأمور ، في رأى مصطفى رشيد ، الآراء الهجومية التي صرح بها الوزراء الإنجليز بشأن فرنسا ونظرائهم الفرنسيين بشأن إنجلترا . في الوقت نفسه صرح الوزير التركي أن ملك فرنسا كان يخبره بميله وبمشاعره الودية تجاه السلطان ، كما أعرب له عن أمله أن لا تلقى الخلافات القائمة بينهما بسبب الجرائز بظلمها على العلاقات بين بلديهما .

اهتم التقرير اهتماماً كبيراً بالشائعات التي انتشرت في تلك السنوات حول التقارب الملحوظ بين روسيا وفرنسا ، ولهذا فقد كتب مصطفى رشيد يقول: " إن العمل الدائم على تحقيق الإجراءات الهامة والسرية بهدف إعاقه التقارب بين فرنسا وروسيا يمثل أحد المهام القديمة للسفارة التركية في باريس " ( ٤٨ ، ص ٨٩ ) ، وعلى امتداد التقرير نجد أن مصطفى رشيد جاء على ذكر إمكانية التقارب بين روسيا وفرنسا ست مرات ، معتبراً إياه ، إلى جانب الصراع مع مصر ، من أخطر الأمور التي تشكل تهديداً للإمبراطورية العثمانية .

وفي معرض تحليله لسياسة الدول الأوروبية ( إنجلترا ، فرنسا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا ) ، قام وزير الخارجية التركي بدراسة في ضوء سياسة دولته . لقد رأى مصطفى رشيد أن من واجبه تعريف السلطان والباب العالي بالوضع العالمي الراهن ، فضلاً عن تعريفه بصورة ما بتاريخ العلاقات السياسية الدولية الأوروبية . كما قام أيضاً بوصف كل التدابير والخطط المتوقعة إتخاذها من جانب الدول الأوروبية ، وذلك حتى يتسنى له تحاشي الوقوع في الخطأ عند اختياره لتوجهه السياسى ، وليتمكن من امتلاك القدرة على متابعة التغيرات والتقلبات المنتظرة في المخططات السياسية ومن ثم إعادة حساباته تجاهها في الوقت المناسب . وقد أكد مصطفى رشيد وجود تحالفين سياسيين في أوروبا ( إنجلترا وفرنسا من ناحية ، وروسيا والنمسا وروسيا من ناحية أخرى ) ، وأشار إلى الأسباب التي جعلت منهما تحالفات ضعيفة . كان مصطفى رشيد يرى أن من أهم ما يعوق التحالف بين إنجلترا وفرنسا هو التنافس بينهما فيما يتعلق بالسياسة الشرقية بما فيها مصر ، والعلاقة الحميمة التي تربط بين محمد علي وفرنسا . كما نبه صاحب التقرير أيضاً لخطورة التقارب بين فرنسا وروسيا من جهة ، وبين إنجلترا والنمسا من جهة أخرى ، وأشار إلى إمكانية انضمام النمسا وروسيا

وجميع الدول الجرمانية الأخرى إلى التحالف الفرنسي الروسي المزمع .

وبناء على ما ذكره مصطفى رشيد ، فإن الخطوات السرية التي قامت بها النمسا بهدف زيادة قوة روسيا وفرنسا ، بالإضافة إلى غياب علاقات سياسية متينة بين بروسيا وروسيا ، وتوجه رجال الدولة البروسيين إلى الدول الغربية لا إلى روسيا ، كانت جميعها عوامل مهددة للتحالف الروسي النمساوي البروسي .

وفيما يخص النمسا ، كتب مصطفى رشيد منبهاً أن التوجه الرئيسي لسياسة الأمير مترنيخ لا يخدم على نحو جاد المصالح الحقيقية لروسيا: " إن موقف الأمير مترنيخ يتلخص فيما يلي: التظاهر بمظهر الصديق الوفي لروسيا والإفصاح لها عن رغباته الدفينة ، في الوقت الذي يقوم فيه بشكل غير ملحوظ بموائمة تصرفاته بحيث تتوافق وتصرفات الدول المعادية لروسيا والتي تستهدف في واقع الأمر إعاقة روسيا عن تحقيق آمالها من خلال وساطة هذه الدول " ( ٤٨ ، ص ٨٦ ) .

بمقتضى العرض الذي قدمه مصطفى رشيد لتصريحات مترنيخ ، نجد أن الأخير لم يكشف ( ظاهرياً ) أمام السفير التركي عن موقفه العدواني تجاه روسيا ، على أن مصطفى رشيد كان على علم بهذا الموقف ، كما لاحظ رشيد بحق أنه في حالة وقوع حرب شاملة ، فإن النمسا لن تكون حليفاً لروسيا ، على الرغم من احتمال بقائها مؤيدة لها<sup>(١)</sup> . وأشار إلى أن " نموثرة وقوة روسيا من شأنه الإضرار بالنمسا وأنه لا يوافق رغبة النمساويين " . وقد افترض الوزير التركي ، استناداً إلى تحليله للعلاقات الروسية النمساوية وعلى ملاحظاته الشخصية ، وجود تحالف إنجليزي نمساوي سرى جرى عقده كنوع من خلق توازن في مواجهة التقارب المفترض بين روسيا وفرنسا ( ٤٨ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، قارن مع المرجع ٩٠ ، ص ١٩٦ ) .

استشرف مصطفى رشيد أيضاً إمكانية قيام تحالف بين روسيا وفرنسا ، يمكن أن تنضم إليه بعد ذلك النمسا وبروسيا وجميع الدول الجرمانية ، بينما من المحتمل أن تبقى إنجلترا معزولة عنه . وقد لاحظ مصطفى رشيد أن مثل هذا الموقف يمكن أن ينعكس على نحو سلبي على الإمبراطورية العثمانية ، وعدد وزير الخارجية ، محلاً هذا الاحتمال ، العوامل التي يمكنها ، بناء على جميع الظواهر ، أن تعوق قيام التحالف الروسي الفرنسي وهي: التزام الدول الأوروبية تجاه أسرة البوربون الملكية المخلوعة ، ومن ثم الموقف السلبي لنيكولاى الأول تجاه حكم لويس فيليب في فرنسا ، كراهية الفرنسيين لروسيا ، العلاقات الطبيعية والحميمة بين الإنجليز والفرنسيين والقائمة على التجارة والتقارب الإقليمي .

١- تاکد ذلك إبان حرب القرم . وعن موقف النمسا انظر ( ١٣١ ، المجلد ١ ، ص ٩ ، ٢٥١ ) .



يتعرض صاحب التقرير ( المذكرة ) بعد ذلك لموقف الدول الأوروبية من محمد علي، مشيراً إلى التعاطف الخاص نحوه من قبل الفرنسيين ، ويؤكد مصطفى رشيد ، في سياق حديثه عن موقف إنجلترا تجاه هذا الأمر ، أن من المتوقع في الوقت الراهن أن تبدى إنجلترا موافقتها الكاملة على تغيير العلاقات القائمة بين السلطان ووالي مصر ، إذ أنها قد أصيبت بالإحباط من جراء السياسة الخارجية لمحمد علي ، وأنها باتت تخشى علاقاته مع روسيا ( ٤٨ ، ص ٨٩ )

وفي ختام تقريره يشير مصطفى رشيد إلى ضرورة القيام بعدد من الإصلاحات الداخلية ، نتيجة للوضع الدولي المتدهور ، بهدف رفع هيبة الدولة واستمالة الرأي العام الأوروبي ، تماماً مثلما فعل محمد علي .

نستطيع أن نلاحظ في هذا التقرير برنامج الإصلاحات الذي شمل توسيع الإدارة العسكرية ، إنشاء المدارس العسكرية ، زيادة حجم الجيش وتحديث سلاحه وتحسين نظام الالتزام ( فرض الضرائب وتحصيلها من سكان الإمبراطورية ) ، إنشاء الحجر الصحي ، بناء المصانع ودعوة المتخصصين لها من أوروبا ، زيادة إنتاج السلع المحلية، بما في ذلك السلع المعدة للبيع خارج البلاد مع خفض الاستيراد من أوروبا .

ومن أجل أن يستحث مصطفى رشيد السلطان والباب العالي على تطبيق الإصلاحات استند في تقريره على الرأي العام الأوروبي وكتب يقول إن الإصلاحات الجارية الآن في الإمبراطورية العثمانية " تلقى استحساناً واعتراحاً من أوروبا بأسرها " وأن " أوروبا كلها تعارض " نظام الالتزام المطبق في الإمبراطورية العثمانية . كان مصطفى رشيد يعلم أن محمود الثاني في تلك الفترة تتملكه الرغبة في أن يضع واليه المتمرد موضع الاتهام ، ولهذا فإن الرأي العام الأوروبي ، الذي كان مصير المشكلة المصرية يتوقف عليه بدرجة معلومة ، كان يمثل أهمية فائقة بالنسبة للسلطان ، كما كان يمثل مبرراً قوياً يمكن استخدامه كأداة للضغط عليه لدفعه لاتخاذ خطوات إصلاحية أكثر إيجابية . وفي معرض حديثه عن ضرورة إقامة نقاط للحجر الصحي في مختلف مناطق الإمبراطورية العثمانية ، أكد مصطفى رشيد أن وجود نقاط للحجر الصحي في إقليمين فقط من أقاليم الإمبراطورية العثمانية هما فلاحيا وصربيا أمر لا طائل من ورائه من الناحية السياسية<sup>(١)</sup>.

ويدل التقرير الدبلوماسي إلى أن مصطفى رشيد كان مؤيداً للتوجه الإنجليزى وخصماً صريحاً لروسيا .

١ - أقيمت مراكز الحجر الصحي في هذه الأقاليم بواسطة الإدارة الروسية إبان الحرب الروسية التركية ( ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ) .

ولعل قواعد الرسميات السائدة آنذاك في البلاط التركي ، والوضع الذي لم يستقر بعد للوزير الجديد ، والذي كان على علم بأن هناك مؤيدين أقوياء لروسيا<sup>(١)</sup> داخل البلاط ، أمور لم تسمح لمصطفى رشيد أن يصرح على نحو أكثر تحديداً بموقفه السابق ، علماً بأن توجهات سياسته الخارجية في هذه الوثيقة واضحة تمام الوضوح بحيث لا يصعب رصدها . كما أنه من الواضح أيضاً أن السلطان محمود الثاني كان ما يزال في تلك الفترة متردداً بشأن قضية علاقته بروسيا ، كما أنه لم يكن واثقاً من أن إنجلترا ستقف إلى جانبه . ويترك هذا التقرير لدينا انطباعاً أن مصطفى رشيد كان يسعى لاستمالة السلطان إلى جانبه حتى يشاركه اقتناعه وخطته .

لم يكن لدى إنجلترا ، كما اتضح في أربعينيات القرن التاسع عشر ، أي موانع لضم مصر إلى ممتلكاتها ( ٨٥ ، ص ٥٦٣ ) ، لكنها كانت تعتزم القيام بذلك مستقبلاً. آنذاك لم تكن إنجلترا تطمح في الإستيلاء على مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية ، وكانت حكومتها تطبق سياسة معادية لروسيا وفرنسا في الشرق ، معلنة عن عزمها الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية العثمانية ، ربما بقصد التخفيف من وضوح التأثير الإنجليزي في كل مجالات الإمبراطورية ، وقد اقترح مصطفى رشيد استغلال هذا الظرف .

كان تأكيد مصطفى رشيد على أن روسيا تؤيد محمداً علياً مبالغة واضحة ، فبعد صلح أدرة ( عام ١٨٢٩ ) رأت روسيا أن من صالحها أن يكون لها جارة ضعيفة هي تركيا ( ٣٤ ، المجلد ٤ ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، انظر أيضاً ٤١ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ) . ولهذا فقد أظهرت روسيا بعد عام ١٨٣٣ ، وعلى امتداد فترة الصراع كله ، لا مبالاة تجاه التسوية الإقليمية السلمية بين السلطان ومحمد علي ( ٢٣ ، ٣٦ ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ / ٤٤ ، ص ٥٥ - ٥٦ / ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٥١ / ١٣٢ ، ص ٥١٠ ) . كانت روسيا مهتمة بأن يبقى الوضع على ما هو عليه ، ومن ثم لم تقدم للسلطان أي دعم عسكري لاستعادة سوريا من يدى محمد علي . ويرجع هذا الموقف أيضاً لتخوف روسيا من تدهور موقفها مع إنجلترا وفرنسا اللتين دأبتا على التصريح بأنهما لن تسمحا لروسيا بأي تدخل عسكري جديد في الصراع التركي المصري .

ومن الحقائق المثيرة للانتباه أن مصطفى رشيد لا يعبر في تقاريره أو مذكراته عن عدم ترحيبه بسياسة فرنسا لمحمد علي من دعم ، وهذا الموقف يمكن تفسيره بأن تحالف محمد علي مع دول أكثر قوة من فرنسا آنذاك ، كان يمكن أن يشكل خطورة

١- كان السرعسكر خسرو باشا والقبودان دار أحمد فوزى باشا وزير الداخلية عاكف باشا من المناصرين لروسيا .

أكبر على وحدة الإمبراطورية العثمانية ، وهو ما يمكن أن نفسره كذلك بطموحات إنجلترا في تقوية الخلافات بين فرنسا وروسيا بسبب معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، مع السعى لدعم علاقاتها مع فرنسا في مواجهة السياسة الروسية في الشرق . فالحكومة الفرنسية لم تستطع ، بدافع الخوف من " الخطر الروسى " ، أن تستمر في زيادة حدة توتر علاقاتها مع إنجلترا ( ٦٣ ، ص ٧٤ ) ، وقد عملت إنجلترا على التهويل ، عن وعى ، من حجم هذا " الخطر الروسى " سواء في عيون فرنسا أو لدى الباب العالي ( انظر ١٣٢ ، ص ٣٣٩ ، ١٨٢ ، ص ٥٦ ) . ومن الحقائق المثيرة للانتباه ، استناداً إلى الوثائق التركية ، أن رجال الدولة في إنجلترا لم يتحدثوا إطلاقاً مع ممثلى الباب العالي إلا عن موقف إنجلترا من المسألة الشرقية وإن كانوا قد تحدثوا عن تضامن فرنسا معها<sup>(١)</sup> . وكانوا بذلك يوحون إلى الباب العالي أن تأييد فرنسا لمحمد على لا يمثل أى خطورة على تركيا ، إذ أن الخلاف بين فرنسا وروسيا خلاف كبير للغاية بحيث لن يسمح لفرنسا أن تضعف الإمبراطورية العثمانية . وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت فرنسا ، بالنسبة للباب العالي ، حليفاً أكثر منها خصماً . ومن البديهي أن إنجلترا لم تكن ترى أن سياسة فرنسا في مصر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر تشكل خطورة كبيرة على وحدة الإمبراطورية العثمانية طالما ظلت فرنسا خصماً لروسيا .

ومن واقع الحال نرى أن الباب العالي ، في فترة الصراع التركى المصرى ، كان يفضل أن يساهم في دعم العلاقات الفرنسية الإنجليزية على حساب العلاقات الفرنسية الروسية . وهذا الاستنتاج يقودنا إليه مضمون مذكرة مصطفى رشيد وتعليماته التى أرسلها إلى السفير التركى فى فرنسا فى سبتمبر عام ١٨٤١ مكلفاً إياه بضرورة المساهمة في دعم روابط الصداقة بين إنجلترا وفرنسا ، إذ أن قيام مثل هذه الصداقة أمر يعود بالفائدة على الإمبراطورية العثمانية ( ٤٨ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ) .

لقد أولى مصطفى رشيد اهتماماً كبيراً لاحتمال قيام تحالف بين فرنسا وروسيا ، فمثل هذا التحالف ، لو تم ، لكان من الممكن أن يحمل في طياته خطراً كبيراً على الإمبراطورية العثمانية . ويعود السبب في عدم قيام هذا التحالف للتحذير الشخصى الذى وجهه نيكولاى الأول للملك لويس فيليب ، ملك فرنسا ، " ملك المتاريس " وكذلك بسبب المخاوف التى أثارته الثورة الفرنسية ( انظر ١٣٢ ، ص ٤٧٥ ) . على أن المخاوف التى راودت مصطفى رشيد بشأن احتمال قيام تقارب بين روسيا وفرنسا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان لها ما يبررها . " إن هذا العمل المشترك والمستحيل

١- هناك استثناء واحد مشهور وهو مباحثات بالمريستون مع مصطفى رشيد فى لندن فى العاشر من أغسطس ١٨٣٧ .

فى الوقت الراهن قد أثار الفزع والرعب لديهما ( إنجلترا وفرنسا - المؤلف ) فيما يمكن أن يسفر عنه فى المستقبل ، فالنتيجة التى لا مناص عنها ، لو أنه تم ، كما يرى اللورد بالمرستون ، هى انقسام الإمبراطورية العثمانية إلى دولتين منفصلتين ، أحدهما مصر وسوريا والجزيرة العربية ، وهذه ربما تخضع لفرنسا ، والأخرى ، أى تركيا الأوروبية وآسيا الصغرى ، فسوف تدور فى فلك روسيا " ( ١٣٢ ، ٤٧٥ ) . وسوف نرى فيما بعد أن مصطفى رشيد سيضمن أحد تقاريره من باريس عام ١٨٣٩ ملحوظة مفادها أن عدداً من بين نواب الجمعية الوطنية فى فرنسا قد تناقشوا طويلاً حول المسألة الشرقية وأن مؤيدى روسيا ذكروا أن غزو الإمبراطورية العثمانية من جانب روسيا أمر يتعارض ومصالح إنجلترا فقط لا مصالح فرنسا ، وأنه فى حالة قيام تحالف بين روسيا وفرنسا فإن ذلك سوف يؤدى إلى اتساع حدود فرنسا لتصل إلى نهر الراين ، وإلى الحدود مع بلجيكا ( ٤٨ ، ص ١٥٨ ) .

وقد أشارت الباحثة السوفيتية ي. ن. كوشيفا إلى التقارب الفرنسى الروسى الذى حدث فى أربعينيات القرن التاسع عشر بقولها: «على الرغم من الفارق الكبير بين بنية الدولة فى فرنسا بعد الثورة وروسيا القيصرية ، فقد لوحظ فى الكتابات الاجتماعية الفرنسية فى الأربعينيات وجود تيار يثبت ضرورة قيام تحالف بين روسيا وفرنسا ضد إنجلترا» ( ٩٥ ، ص ١٣٩ ) . وقد احتوت بعض المؤلفات الفرنسية التى ظهرت فى تلك الفترة على مبررات تقف فى صف قيام هذا التحالف ، وهى تتفق والمبررات التى أوردها مصطفى رشيد فى تقريره .

إن نفس هذه التيارات الموجهة ضد إنجلترا ، لوحظت أيضاً فى الفكر الاجتماعى الروسى فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، الأمر الذى انعكس فى المراجع الروسية ( ٩٥ ، ص ١٣٩ - ١٤١ ) . فعلى سبيل المثال نجد أن بوتسودى بورجو ، سفير روسيا لدى فرنسا فى الفترة من ١٨١٥ وحتى ١٨٣٤ يؤيد قيام تحالف روسى فرنسى . وقد ظل يعمل بحماس على دعم التفاهم المشترك بين فرنسا وروسيا فى القضايا الشرقية حتى انتهاء خدمته فى باريس ( انظر ٣٤ ، المجلد ١٥ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ / ١٧٨ ، ص ٦١ - ٦٦ ) .

وعلى الرغم من أن مصطفى رشيد لم يكن يولى ثقته روسيا القيصرية ، فإنه سعى مع ذلك لتقديم بعض التنازلات لها كما سعى ألا يفسد علاقاته معها .

كان تقدير مصطفى رشيد باشا للعلاقات النمساوية الروسية ينم عن دراية واسعة بها . كانت النمسا فى تلك الفترة لا تثق بالفعل فى السياسة الشرقية التى تنتهجها روسيا ، على الرغم من أن مخاوف مترنيخ بدت هادئة بفضل إتفاقية ميونخ ( ١٨

سبتمبر عام ١٨٣٣ ) والوعود التي بذلها نيكولاى الأول فى مؤتمر ميونخ وخلاصتها أنه فى حالة تفاقم الأوضاع فى الإمبراطورية العثمانية ، مما يتطلب معه تدخل روسيا وفقاً لشروط معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، فإن أى إجراء لن يتخذ إلا بوساطة النمسا أدبياً.

ومن الحقائق اللافتة للنظر هنا أن القائم بالأعمال الروسى فى فيينا عام ١٨٤٠ ، أ. م. جورتشاكوف قيّم متانة التحالف النمساوى الروسى بنفس الكلمات تقريباً التى استخدمها مصطفى رشيد عام ١٨٣٧ . كتب جورتشاكوف يقول أنه يشك فى متانة التحالف مع النمسا وأنه فى حالة وقوع الحرب فإن " كل ما نتوقعه منها ( النمسا - المؤلف ) هو الحفاظ على حيادها " ( الاستشهاد من المرجع ١٣٢ ، ص ٤٠٤ ) .

وكما هو واضح ، فقد أكد مصطفى رشيد على وجود تناقضات بين النمسا وروسيا تهدف إلى دفع السلطان نحو اتخاذ موقف معاد للتحالف مع روسيا وإثبات أن مواقف روسيا ليست إلى هذا الحد من القوة ، حيث أنها لا تعتبر أن النمسا حليف مخلص لها .

ويقترح مصطفى رشيد فى مذكرته القيام بعدد من الإصلاحات ولكنه لا يُسمى مجمل الإصلاحات التى أشار إليها . بطبيعة الحال فإن من الضرورى التعرض بالشرح لطابع هذه المذكرة - التقرير ، والتى تتناول أساساً مشكلات السياسة الدولية . إن ورود ذكر الإصلاحات الداخلية فى هذه الوثيقة يمكن تفسيره ، فى المقام الأول ، إلى أن الوزير الجديد أراد أن يؤكد على مغزى هذه الإصلاحات بهدف رفع هيبة الدولة فى المجال الدولى .

وهكذا نجد أن تقرير وزير الخارجية يحتوى على عرض شامل لقضايا السياسة الخارجية للإمبراطورية العثمانية ، التى كان قد طرحها من قبل فى تقاريره الدبلوماسية من موقعه كسفير لبلاده . إن محتوى التقرير يقودنا إلى الاستنتاجات التالية:

١- ضرورة التوجه نحو إنجلترا لحل الصراع التركى المصرى ، لأنها مهمة بتأييد السلطان وتقديم العون له .

٢- يرى مصطفى رشيد عدم الاعتماد على روسيا لأنها تؤيد محمداً علياً ، كما أنه لا يرى هناك أى خطورة من جانب روسيا أو من غضبتها التى يمكن أن تأتى نتيجة لتغيير الباب العالى سياسته ، فروسيا لا تملك حلفاء مخلصين يؤازرونها فى سياستها الشرقية .

٣- بذل الجهود لمنع التقارب بين فرنسا وروسيا ، إذ أن قيام تحالف بينهما يمكن أن يمثل خطراً حقيقياً على الإمبراطورية العثمانية ، فإذا ما حافظت فرنسا على تحالفها مع إنجلترا ولم تدخل حليفاً لروسيا فإن الدعم الذي تقدمه فرنسا إلى محمد على لن يشكل أى تهديد لوحدة الإمبراطورية العثمانية .

وعلى الرغم من أن التحالف الإنجليزي الروسي الذي دافع عنه مصطفى رشيد كان مفيداً لكلا الجانبين ، فإن تحقيقه لم يكن أمراً هيناً . وقد حالت عوامل السياسة الخارجية والداخلية دون قيامه .

ولعل النتائج المباشرة لهذا التحالف على إنجلترا كانت ستتمثل فيما يلي: زيادة تأثير إنجلترا على تركيا ، فقدان روسيا لإمكانية تقديم قواتها نحو الأراضي التركية ( وهو ما كانت تخشاه دول أوروبا الغربية ) ، فبعد ما تراجعت الحاجة لدعوتها من قبل السلطان ، ضعف التأثير الروسي على الإمبراطورية وكذلك قيام تحالف عسكري مع إنجلترا من شأنه أن يؤدي إلى خضوع محمد على للسلطان ومن ثم عودة سوريا ومصر إلى حكم السلطان .

وفي الوقت نفسه فإن الاتفاق الثنائي بين إنجلترا وتركيا لم يكن ليوقف سريان إتفاقية أونكيار إيسكيليسى ، وبالتالي يظل التهديد بالتدخل العسكري من جانب روسيا قائماً فى حالة تجدد الصراع العسكري بين السلطان ومحمد على ، ثم إن تدخل إنجلترا من جانب واحد كان من الممكن أن يفسد " الإتفاق الودى " بين إنجلترا وفرنسا ، أو قد يخلق حالة من الإستياء لدى دول أوروبا الغربية الأخرى .

نتيجة لذلك فإن المعاهدة الإنجليزية التركية المزمعة لن تؤدي إلى تحقيق الهدف الرئيسى لبارستون وهو التقييد المحكم للمبادرة الروسية ، بل ربما أدى الأمر إلى نتائج غير مرغوب فيها بالنسبة لعلاقات إنجلترا الخارجية .

بطبيعة الحال فقد كان السلطان والباب العالى يدركان مدى صعوبة عقد اتفاق عسكري ثنائي مع إنجلترا ضد محمد على . ولهذا فقد كان لمؤيدى التوجه الروسى داخل تركيا نفسها على امتداد فترة الصراع مكانة راسخة ( ١٧٨ ، ص ١٢١ ) .

فى هذه الظروف اضطرت الحاجة كلاً من إنجلترا والباب العالى لأن يعملوا تدريجياً ، فإنجلترا ، بهدف أبعاد الباب العالى عن الدخول فى تحالف مع روسيا ، أعلنت أنه باستطاعتها مد يد العون إلى الإمبراطورية العثمانية ، ورأت أن أفضل مبرر لها للتدخل فى خضم التناقضات فى الشرق هو نشوب الحرب بين السلطان ومحمد على ، على أنها راحت تتخذ كافة الإجراءات بحيث لا تصبح معاهدة أونكيار إيسكيليسى سارية المفعول عند وقوع الحرب . وكم ذكرنا آنفاً ، فقد تم تحذير الباب



العالى أنه فى حالة استدعاء السلطان للقوات الروسية ، فإن دول أوروبا الغربية سوف تتحد فى جبهة واحدة ضد روسيا وتركيا . لقد تعجل بالمرستون فى اتخاذ موقفه من مجمل الأحداث وراح يُعد تدخلاً جماعياً يوقف به أى مبادرة من جانب روسيا ، بل إنه وجه له اللوم لكونها تشعل نيران الصراع عمداً لكى تتمكن من التدخل بقواتها العسكرية استناداً إلى الصراع التركى المصرى المسلح .

لقد كانت هناك مصاعب جمة أخرى أمام الباب العالى . كان الباب العالى يخشى نقض تحالفه صراحة مع روسيا مع فقدانه الثقة فى استعداد إنجلترا تقديم مساعدة عسكرية له ضد محمد على . فإذا ما أُلغى هذا التحالف ، فربما يجد نفسه وحيداً أمام قوة محمد على والدول الأوروبية الأخرى بما فيها روسيا وفرنسا والنمسا ، وكانت كل واحدة منها ، وهو ما كانت حكومة الباب العالى تعرفه تماماً ، تطمح فى أراضيها . لقد دفع الحادث الذى وقع عام ١٨٣٣ ، عندما رفضت الدول الأوروبية مساعدة السلطان ، بالحكومة التركية للتراجع عن اتخاذ أى خطوة تتسم بالمخاطرة .

كان مصطفى رشيد على علم بكل هذه الظروف ، إلا أنه كان ما يزال على ثقة فى إمكانية قيام تحالف بين إنجلترا وتركيا .

\*\*\*

مع نهاية عام ١٨٣٧ هبت من جديد فى سوريا انتفاضة الدروز المسلمين ضد نظام قرعة التجنيد وزيادة الضرائب اللتين فرضتهما إدارة محمد على ( ٢٧ ، ص ١٣٢ - ١٣٦ ) . ومن الواضح أن الباب العالى كانت له يد فى هذه الانتفاضة ( ٤٨ ، المجلد ٤ ، ص ٢٤٣ / ١١٠ ، ص ١١ ) . وقد نجح إبراهيم بن محمد على فى إخماد هذه الانتفاضة بعد معركة دامية استمرت ثمانية أشهر .

وبعد إنقضاء هذه الأحداث مباشرة أعلن والى مصر من جديد فى مايو عام ١٨٣٨ قناصل إنجلترا وفرنسا وروسيا عن عزمه إعلان الاستقلال ودعمه بالسلاح ، وقد حاول محمد على الحصول على حق انتقال الحكم إلى أولاده بالميراث فى المناطق الخاضعة له وذلك بعد أن تلقى رداً سلبياً حاداً من الدول الأوربية ( ٢٧ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ) . وفى تلك الفترة ازداد استعداد كل من السلطان ومحمد على للدخول فى الحرب ( ١٣٢ ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ ) .

وقد قدم مصطفى رشيد ، بعد أن تولى منصب وزير الخارجية مبادرة لإجراء عدد من الإصلاحات التى كان يرى من وجهة نظره ، أنها ضرورية لتقوية الأوضاع الداخلية .

وفي مارس عام ١٨٣٨ وبناء على مبادرة مصطفى رشيد الخاصة بإعداد مشروعات الإصلاح تم إنشاء مجلسين حكوميين عاليين .

كان تطوير الإقتصاد يشغل أهمية كبرى وقد أنشئت لذلك لجنة خاصة أطلق عليها مجلس الأعمال الإجتماعية، دأبت على دراسة وبحث مشكلات استخدام المصادر الطبيعية وتنمية الزراعة والحرف والتجارة والصناعة إلى جانب التعليم المدني ( ١٠٩ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ / ٢٠٨ ، ص ١٦٢ - ١٦٤ ، ١٧٧ / ٨٤ ، ص ٩٩ / ١٨٥ ، ص ٥٤ - ٥٧ ) .

في صيف عام ١٨٣٨ وإبان المباحثات التي دارت بين محمد علي والقناصل الأجانب بشأن إعلان استقلال مصر ، اعتزمت تركيا بفضل المشاركة الفعالة لمصطفى رشيد باشا تقديم تنازلات حقيقية للمصالح التجارية الإنجليزية تمثلت في موافقة الحكومة التركية على عقد اتفاقية تجارية تعود بأرباح طائلة على إنجلترا<sup>(١)</sup>.

تقضى الاتفاقية التجارية التي سعت إنجلترا إلى عقدها مع الإمبراطورية العثمانية على مدى عدة سنوات ( ٢٢٤ ، ص ١١ - ٢٢ ) بإنشاء نظام للتجارة الحرة في الإمبراطورية ، أى إمكانية بيع وشراء جميع السلع ، مهما بلغت كمياتها ، تبعاً لأسعار السوق ، سواء في الموانئ أو في جميع أنحاء الإمبراطورية ، فضلاً عن وضع نظام لتحصيل الجمارك ( وعلى رأسها السلع التي لم يتم تحصيل رسوم جمركية داخلية عليها من التجار الإنجليز ) .

وعلى الرغم من رغبة الباب العالي في الحصول على دعم عسكري في إنجلترا يساعده في حربه ضد محمد علي ، إلا أنه ظل لسنوات طويلة يرفض اقتراح إنجلترا توقيع مثل هذه الاتفاقية .

في عام ١٨٣٨ فقط كان مشروع الاتفاقية معداً من قبل لجنة عادية واشترك في إعداده عن الجانب التركي نوري أفندي وزير المالية وبوجود ديس محافظ جزيرة ساموس ، وعن الجانب الإنجليزي القائمين بالأعمال ج. ل. بولفار وج. كارترايت . وقد لقت المعاهدة استحسان السلطان محمود الثاني ووقعها في السادس عشر من أغسطس عام ١٨٣٨ مصطفى رشيد باشا وزير خارجية الإمبراطورية العثمانية ويونسونبي سفير إنجلترا ( ٢٢٤ ، ص ٢١ / ١٨٠ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ) . وقد حدثت بعض الخلافات في وجهات النظر أثناء مناقشة مشروع الاتفاقية التي شارك فيها مصطفى رشيد باشا وقانى بك نائب الصدر الأعظم ( ٤٩ ، المجلد ١ ، ص ٢٧٢ ) ،

١- للإطلاع على نص معاهدة التجارة التركية الإنجليزية عام ١٨٣٨ انظر : ( ٤١ ، ص ١١٠ - ١١١ / ٤٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٣ / ٤٩ المجلد ١ ، ص ٢٧٢ ) .

لكن الوثائق التي كان من الممكن أن تكشف لنا عن مغزى هذه الخلافات لم يتم العثور عليها ( ٢٢٤ ، ص ١٧ ) . من المحتمل أن يكون لمشروع الاتفاقية الإنجليزية التركية التي وضعها سكرتير السفارة الإنجليزية د. وركفارت علاقة بجوهر الخلافات المذكورة . يفترض وركفارت ، على سبيل المثال ، أن يكون فرض ضرائب جمركية على دخول وخروج البضائع قيمتها ٣٪ إلى جانب بعض الشروط الأخرى كانت ستعود بفائدة أقل كثيراً على تركيا مما كانت تعود به عليها شروط الاتفاقية التي عقدت عام ١٨٣٨ ( ص ١٩١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ) .

كان مصطفى رشيد في صيف عام ١٨٣٨ قد وعد السفير الإنجليزي بونسونبي أن يؤيد المفاوضات المناسبة . واعتبر بالمرستون أن نجاح المفاوضات توقف بشكل كبير على موافقة مصطفى رشيد ( ١٨٠ ، ص ١٢٤ ) .

في الأول من مارس عام ١٨٣٩ أصبحت الاتفاقية سارية المفعول . ويتفق المعاصرون والباحثون في أن ظروف السياسة الخارجية المتعلقة بالصراع التركي المصري هي التي فرضت على الباب العالي توقيع هذه الاتفاقية . كان محمود الثاني يعتبر أن القضاء على نظام الاحتكار في الإمبراطورية العثمانية ، الذي كان محمد علي يطبقه بصورة واسعة في مصر ، سوف يقضي على القوة الإقتصادية لهذا الوالي المتمرد . كان السلطان يأمل أيضاً أن تقوم إنجلترا بالموافقة على إنشاء تحالف عسكري ضد محمد علي مقابل هذا التنازل من جانبه ( ٢٧ ، ص ٢٢٤ / ١١٠ ، ص ٢٣ - ٢٥ / ١٣٢ ، ص ٤١ / ٤١ ، ص ١١٠ / ٢٠٨ ، ص ١٤٠ / ٥٣ ، المجلد ٥ ، ص ١١١ - ١١٢ / ٢٢٤ ، ص ٢٢ ) .

كانت المعاهدة مفيدة في المقام الأول لإنجلترا ، التي كانت بحاجة ماسة ، وقد راحت الرأسمالية تنمو وتتطور فيها ، إلى فتح أسواق جديدة ( أنظر ١٢٥ ، ص ٤١ - ٤٢ ، ٤٥ ) . لم تكن المعاهدة متكافئة ، إذ تعرضت للتجارة فوق أراضي الإمبراطورية العثمانية فقط ورسخت نظام الإمتيازات الذي أفقد الباب العالي إمكانية الدفاع عن صناعته الخاصة بفرض رسوم الحماية الجمركية ( ٨٠ ، ص ١٥٦ ) . وتقضى المعاهدة بحرية التجارة في جميع السلع سواء للأجانب أو لرعايا الإمبراطورية العثمانية ( بما في ذلك المنتجات المحلية ) فوق جميع أراضي الإمبراطورية وحددت حجم رسوم الاستيراد بـ ٥٪ و ١٢٪ بالنسبة للتصدير ( ٤٩ ، المجلد ١ ، ص ٢٧٢ ) . لقد كانت القوى الإقتصادية لإنجلترا ولإمبراطورية العثمانية مختلفة تمام الاختلاف بعضهما عن بعض وكان مفترضاً مقدماً تبادل السلع الجاهزة بالمواد الخام .

في الفترة ما بين عام ١٨٣٩ و ١٨٤١ انضمت إلى المعاهدة فرنسا وعدد من المدن

الألمانية ، وكذلك بروسيا وسردينيا وهولندا والسويد وإسبانيا وبلجيكا والدنمارك وتوسكانا ، وفي عام ١٨٤٦ انضمت إليها روسيا ( ٢٢٤ ، ص ١ - ٢ ) .

لقد بشرت المعاهدة بتحقيق مكاسب محددة للإمبراطورية العثمانية ، وقد ساهمت بالفعل في زيادة الرواج التجارى وأدت إلى إلغاء نظم احتكار الدولة والتنظيمات الحكومية والبيع الجبرى المميز للدول الإقطاعية والذي كان الباب العالى يطبقه على نحو كبير . من هذه المنطلق فقد ساعدت معاهدة ١٨٣٨ على تطور قوى الإنتاج فى الإمبراطورية العثمانية ( أنظر ٥ ، ص ٤٠٤ ) .

فى الوقت الحالى يعانى الباحثون من نقص الوثائق التى تسمح لهم بالإجابة على سؤال حول ما إذا كان لدى مصطفى رشيد أو لدى أى من معاصريه برنامج إقتصادى كامل<sup>(١)</sup>. إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب معرفة إلى أى حد كانت معاهدة ١٨٣٨ التجارية وليدة الظروف القهرية للسياسة الخارجية وإلى أى حد كانت عملاً واعياً إدارياً ، على الأقل من جانب الأشخاص الذين شاركوا فى إعدادها وعقدتها .

على أن هناك معلومات تسمح لنا بالتصريح بعدد من الافتراضات المحددة<sup>(٢)</sup>.

لقد شكلت الضرائب الباهظة ونظام الالتزام عند جمعها والإجراءات الحكومية ( انظر ٩٢ ، ص ٥ - ١٠ / ١٣٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ / ٤٤ / ٥٠ / ٢٢٦ ، ص ٦٩ - ٧٠ ) ، وكذلك احتكار الدولة والبيع الجبرى حجر عثرة أمام تطور الإنتاج الزراعى ( ١٠٤ ) ، أنظر كذلك ٢٧ ، ص ٢٤٤ / ١٤٨ / ٦٩ ، ص ٩٠ / ٥٢ ، المجلد ٦ ، ص ٧٢<sup>(٣)</sup>. لقد تسنى للدولة حتى عام ١٨٣٨ التدخل الكامل فى الإنتاج والتجارة وتحديد الأسعار بفضل الإجراءات الحكومية . إن هذه الإجراءات الموازنة نفسها هى التى أعاققت تمايز الطبقات الإجتماعية بين أصحاب الحرف وصعبت عملية تراكم رأس المال ووصلت بأجور الحرفيين إلى حد الكفاف ( ١٣٧ ، ص ٤١ ، ٤٨ - ٤٩ ) .

١- يرى المؤرخ التركى المعاصر نيازى بيركس أن السلطان محمود الثانى أدرك إبان فترة حكمه ، التى عقدت فيها المعاهدة ، أن الحكومة يمكن أن تكون عاملاً مساعداً فى إدخال نظام اقتصادى جديد . إن غالبية إصلاحات محمود كانت ، فى رأى بيركس ، مقدمة لتطبيق السياسة الإقتصادية الجديدة ، التى بدأت منذ عام ١٨٣٨ ، أى بعد إبرام معاهدة التجارة الإنجليزية التركية ( انظر ١٥٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ) . ويعتبر المؤرخ التركى أن المعاهدة قامت على الإيمان بأن إلغاء كافة القيود وإنشاء التجارة الحرة سيزيد أيضاً من حجم التجارة التركية ويساهم فى رخاء الشعب التركى ( ١٥٣ ، ص ١٢٩ ) .

٢- لمزيد من التفاصيل حول النتائج التى ترتبت على معاهدة التجارة الإنجليزية التركية عام ١٨٣٨ انظر المرجع ( ٧٣ ب ) .

٣- يصف الباحث الإنجليزى ف. ج. بريير هذا النظام بأنه " حق الامتياز فى الشراء " ( ١٨٠ ، ص ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٨٧ ) ، أما العالم البلغارى ج. ناتان فيرى فيه نظاماً للاحتكار .

وقد أشار المؤرخ السوفيتي أ. ج. إندجيكيان إلى أن " هناك أمثلة محددة مأخوذة من مجالات الزراعة والإنتاج الصناعي والتجارة تؤكد أن العامل الرئيسي في كبح التقدم هو نظام الدولة وتطفل الصفوة الإقطاعية وعسفها وتمزق الطبقات المالكة للشعوب المسيحية " ( ٨٢ ، ص ٤٧ ) (١).

وقد أعرب مصطفى رشيد في إحدى وثائقه عن موقفه الراض لنظام احتكار الدولة الذي كان سائداً في البلاد (٢). وقد لاحظ المؤرخ التركي لطفى أنه في عام ١٢٥٣ هجرية ( الموافق ١٨٣٧ / ١٨٣٨ ميلادية ) تقرر القضاء على نظام الاحتكارات الضار . وكتب يقول إن الضرر الذي تحدثه الاحتكارات وتقييد التجارة في الإمبراطورية العثمانية أصبح أمراً واضحاً وإن ضرورة حرية التجارة لن تمنع من رخاء البلاد ونمو ثروتها ( ٥٣ ، المجلد ٥ ، ص ١١١ - ١١٢ ) . كانت معاهدة ١٨٣٨ تلبي هذه الطموحات بالتحديد . وقد ورد في نص المعاهدة ما يلي: " تعلن الإمبراطورية العثمانية رسمياً إلغاءها التام لنظام الاحتكارات الذي كان مطبقاً سواء على السلع الزراعية والحرفية أو على السلع الأخرى ، وقد استبدل به نظام آخر سمح به الباب العالي ويقضى بالتجارة أو جلب السلع من مكان إلى آخر بناء على طلب البلديات والموظفين " ( ٤٩ ، المجلد ١ ، ص ٢٧٢ ) .

وبعد أن أصبحت المعاهدة سارية المفعول ازداد حجم التجارة ، ومن ثم حصيلة الجمارك وارتفع حجم المعاملات المالية ( أنظر ٢٧ ، ص ٢٤٣ / ٥٦ ، ص ٢٦ - ٢٨ / ٦٩ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٠ / ٩٦ ، ص ٦١ / ١٠٥ ، ص ١٥٣ - ١٥٥ / ١٠٦ ، ج ١ ، ص ١٥٠ / ١٠٩ ، ص ٢٦٥ / ١١٠ ، ص ١٥٨ / ١١٤ ، ص ١٩ / ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ / ١٢٨ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٤ / ١٥٣ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ / ١٨٨ ، ص ٨٣ - ٨٥ / ٢٠٩ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٩ ) .

وقد أشار الباحثون إلى أن عملية نشوء النمط الرأسمالي بدأت منذ القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر في أماكن متعددة من الإمبراطورية العثمانية ، على الرغم من بطء إيقاعها . ( ٥٦ ، ص ٦ / ٨٨ ، ص ٤١٥ / ٨٢ ، ص ٣٥ / ١١٤ ، ص ١٥ - ١٨ / ١٢٨ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٣٠٨ - ٣١٣ / ١٣٧ ، ص ٤٩ / ١٣٨ ، ص ١٨٥ ) . واستمر نمو الأشكال الرأسمالية للإقتصاد بعد توقيع المعاهدة . بل إنه ازداد قوة ،

١- حول أسباب التخلف الإقتصادي للإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر انظر أيضاً: ( ١٠٥ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ / ٩٣ ، ص ٤٥ / ٩٤ ، ص ٣٤ - ٥٧ ) .

٢- لا يحمل رد مصطفى رشيد على كتاب م. ديستريل ( أنظر ١٥٩ ) أى تاريخ ، وقد قام ر. كاينار بنشره ( ٤٨ ، ص ١٢٨ ) .

على أن الإصلاحات ، التي أدخلتها حرية التجارة مع الدول الرأسمالية ، قيدت النمو الرأسمالي بأطر مختلفة أدت إلى تكيف الإقتصاد العثماني مع حاجات السوق الرأسمالي العالمي .

وبعد عام ١٨٣٨ لوحظ بعض النهوض في الإنتاج الزراعي ( ١١٠ ، ص ١٥٣ ، ٦٩ ، ص ٣٣٨ - ٣٤١ / ١٨٩ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ) ، كما ازداد استغلال الفلاحين وبدأت عملية تمييزهم إجتماعياً ( ١٢٨ ، ص ٢٩١ - ٢٩٦ ) . كما حدث نمو أيضاً في أوساط الحرفيين ( ١٣٧ ، ص ٤٥ ) . وازدادت أعداد المصانع والورش في عدد من ولايات الإمبراطورية العثمانية ( ١٠٥ ، ص ١٧٤ / ٩٣ ، ص ٣١ - ٣٢ / ١٢٨ ، ص ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ - ٣٠٨ / ٢٢٠ ، ص ٤ ، ٦ - ٧ ) ، وأنشئت الشركات المساهمة ( ١٠٨ ، ص ١٧٤ - ١٧٩ ) ، وازداد الطلب على العمال الأجراء ( ١٢٨ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، ٣٠٨ - ٣٠٥ ، ٣١١ / ١٣٧ ، ص ٥٣ ) ، وارتفع معدل سكان المدن ( ١٣٧ ، ص ٥٢ ) ، وازداد دور البورجوازية التجارية الصناعية ( ١٢٨ ، ص ٣١١ ) . وبناء على ذلك يمكن القول أن النتائج الإقتصادية للمعاهدة كانت مزدوجة . فمن ناحية لوحظ تسارع نمو النمط الرأسمالي وزيادة الرواج التجاري ، ومن ناحية أخرى فقد كان لتنافس السلع الأوروبية الرخيصة أثره في إعاقة نمو عدد من الصناعات المحلية .

إن معاهدة عام ١٨٣٨ التي أبرمتها الحكومة التركية تحت ضغوط ظروف السياسة الخارجية تعد بناء على ذلك ، بداية مرحلة جديدة لوقوع الإمبراطورية العثمانية تحت الضغط الإقتصادي للرأسمالية الأوروبية . وفي الوقت نفسه كانت المعاهدة تمثل أول خطوة في الإصلاحات المتتالية التي دخلت التاريخ تحت اسم " التنظيمات " والتي كان لها طابع بورجوازي إيجابى .

إن إلغاء نظم الاحتكارات والبيع الإجبارى واللوائح الحكومية كان مطلباً من مطالب المرحلة ، وقد ساعد ذلك على خلق ظروف موضوعية لتطوير النمط الرأسمالي ، على الرغم من أنها جاءت بشروط خضوع البلاد إقتصادياً لرأس المال الغربى .



## الفصل الخامس

# الصراع الدبلوماسي في المراحل الختامية للصراع التركي المصري ( ١٨٣٨ - ١٨٤١ ) المبادرة التركية لعقد تحالف إنجليزي تركي ضد محمد علي

في مايو عام ١٨٣٨ واجه محمد علي مقاومة جماعية من جانب الدول الأوروبية عندما حاول إعلان استقلاله عن الإمبراطورية العثمانية ، لكنه عاد في سبتمبر من نفس العام ليقابل القناصل العموميين لكل من روسيا والنمسا وفرنسا داعياً إياهم لتأييده لدى السلطان في طلبه الاعتراف بحق الوراثة في حكم ولايته . وبالإضافة إلى ذلك فقد تعتمد محمد علي أن يتجنب - لأسباب دبلوماسية - الخوض في مسألة حدود إقطاعيته المستقلة<sup>(١)</sup> . وفي مواجهة التهديد الجديد لوحدة الإمبراطورية العثمانية قرر بالمرستون ، كما يؤكد س. س. تاتشيف: " ألا يكرر أخطاء عام ١٨٣٣ وأن يؤيد السلطان من كل قلبه ويكل قوة ، سواء بالاشتراك مع فرنسا أو حتى بدونها " ( ١٣٢ ، ص ٤٢٣ ) . وقد بذل بالمرستون جهوداً مضنية من أجل الدعوة لعقد مؤتمر لمناقشة المسألة الشرقية ( ١٧٨ ، ص ١١٧ ) ، معلقاً على هذا المؤتمر آمالاً محددة . كانت المشكلة في تلك الظروف تتلخص فيما إذا كان باستطاعة إنجلترا - كما أشار ف. موصلي - القضاء على أفضلية روسيا لدى تركيا وتحويل معاهدة أونكيار إيسكيليسى لتصبح حبراً على ورق ( ١٧٨ ، ص ٩٣ ) .

وقد أعلن الباب العالي رسمياً - بعد عقد إتفاقية التجارة بين إنجلترا وتركيا - أن الأسطول التركي سوف ينضم إلى نظيره الإنجليزي تحت قيادة اللورد ستوبفورد للقيام برحلة بحرية مشتركة في اتجاه غير معلوم ( ١٧٨ ، ص ٩٧ ) . كان الجانب

١ - لمزيد من التفاصيل حول المذكرة التي أرسلها محمد علي للدول الأوروبية والمؤرخة ٥ سبتمبر ١٨٣٨ وحساباته الدبلوماسية في تلك الفترة راجع ( ٢٧ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ) .

الإنجليز يسعى من وراء هذه الرحلة لأن يثبت الأمل لدى السلطان في إمكانية استخدام هذين الأسطولين في ضرب الباشا المصري ( ١٧٨ ، ص ٩٤ ) . ولقد تم بالفعل جمع الأسطولين لكن الإعلان عن وحدة إنجلترا وتركيا لم يثمر عن شيء ، إذ لم يؤد بالفعل للقيام بأية أعمال ملموسة .

ما إن تم توقيع المعاهدة التجارية حتى سارع الباب العالي بوضع مشروع معاهدة عسكرية مع إنجلترا تقتضى سرعة البدء في الدخول في عمليات عسكرية بحرية ضد محمد علي . وقد أحيط بونسونبي السفير الإنجليزي لدى إسطنبول مقدماً إبان مباحثاته مع قاني بك نائب الوزير الأعظم علماً بذلك . ولما كان بونسونبي متخوفاً من احتمال تدخل روسيا في الصراع التركي في حالة تفاقم الموقف فقد بادر بسؤال محدثه عما إذا كان بنية الباب العالي طلب المساعدة من روسيا ، وهل يرغب حقاً في الحصول على دعم من الأسطول البريطاني . ثم ذكر بعد ذلك أنه على الرغم من أن روسيا - على حد قول بوتسو دي بورجو سفيرها في لندن - متفقة مع الدول البحرية بشأن القضية المصرية وأنها وعدت عند الضرورة بالاعتراف بإرسال الأسطول الإنجليزي إلى الإسكندرية وسوريا ، إلا أنه صرح في هذا الصدد أن روسيا سوف تقدم المساعدة للباب العالي إذا لم يستجب محمد علي إلى النصائح والتحذيرات وظل مصراً على مطالبه . واستطرد بونسونبي قائلاً إنه إذا جرى استدعاء الجيش والأسطول الروسيين إلى تركيا ، فإن جميع دول أوروبا الغربية سوف تجد نفسها بلا شك في حالة عداء تجاه روسيا وتجاه الإمبراطورية العثمانية ، وسوف يصبح الموقف إجمالاً خطيراً للغاية . ورداً على سؤال بونسونبي حول ما هو المطلوب ، من وجهة نظر الباب العالي ، من أجل تسوية الصراع التركي المصري ، عدّد قاني بك النقاط الأربع التالية لعقد الاتفاقية الإنجليزية التركية الموجهة ضد محمد علي:

- ١- يقوم السلطان ، باعتباره السلطة العليا لمصر ، بتكليف السفن الحربية الإنجليزية والسماح لها باحتجاز السفن الحربية والتجارية المصرية .
- ٢- حيث إن محمداً علياً استطاع أن ينقل قواته وإمداداته العسكرية إلى سوريا على سفن بعض الدول المحايدة فإن بإمكان الأسطول العثماني ، استناداً إلى الحقوق العليا للسلطان ، احتجاز هذه السفن وتفتيشها .
- ٣- يقوم الأسطول العثماني بالإشتراك مع أسطولى إنجلترا وفرنسا بعملياتهم قبالة السواحل المصرية والسورية .
- ٤- تصبح هذه الشروط مؤكدة بموجب إتفاقية تتراوح مدتها من ست إلى ثمانى سنوات ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٧ - ٨ ، ٤٨ ، ص ١٣١ ) .

أبلغ قانى بك السفير الإنجليزى أن الباب العالى يعتزم أن يرسل إلى إنجلترا بمشروع الإتفاقية إلى جانب دفاتر تحوى معلومات عن أعداد القوات التركية فى الأناضول . كانت هذه الدفاتر ضرورية لإثبات أن الباب العالى قد استعد تماماً لأن يخوض الحرب ضد محمد على . وفى محاولة منه للتأثير فى السفير الإنجليزى وإقناعه بضرورة تأييد إنجلترا للباب العالى على نحو حيوى ، أكد قانى بك أن محمداً علياً ربما يتخلى فى الوقت الحالى عن عزمه الحصول على حق الحكم الوراثى فى مصر وسوريا بعد أن بلغه نبأ الأعمال المشتركة للدول البحرية والباب العالى ، علاوة على خوفه من قيام انتفاضة سورية ، وعلى أى الأحوال فإنه ( قانى بك ) سوف ينتظر دائماً الوقت المناسب للشروع فى تحقيق الهدف . وأشار قانى بك بعد ذلك إلى المبادرة التى أعلنها نيكولاى الأول لتقويض الإتفاق الإنجليزى الفرنسى وإقامة تحالف روسى فرنسى . وعلى الرغم من أن فرنسا قد رفضت هذا الاقتراح ، على حد قول قانى بك ، فإن روسيا لم تتوقف عن الاستمرار فى محاولة إقامة هذا التحالف . ورأى أنه إذا ما ظهرت فى المستقبل أى مصاعب داخلية أو خارجية لدى إنجلترا وفرنسا تستحوذ على اهتمامها ، فإن ذلك سوف يعد ، دون أدنى شك ، فرصة مناسبة ، سواء لروسيا أو لمحمد على ، لتنفيذ مخططاتهما

لقد حاول قانى بك ، عندما جاء على ذكر إمكانية قيام تحالف بين فرنسا وروسيا ووجود نيات عدوانية لدى محمد على وربما لدى روسيا ، أن يثير مشاعر القلق لدى إنجلترا وأن يحثها على إزالة الصراع التركى المصرى .

وافق بونسونبى قانى بك ، إلا أنه أشار إلى أنه لا يملك الحق ، بتقديمه المشورة ، فى تجاوز ما لديه من تعليمات . واستطرد قائلاً إن نتائج المفاوضات التركية فى إنجلترا سوف تتوقف على السفير الذى يجب أن يحسن اختيار الوقت وعلى قيامه بالتنفيذ المتقن للإجراءات ، وأنه مهما فعلت إنجلترا بخصوص مصر ، فإنه مما لا شك فيه أن فرنسا سوف يكون لها دورها ، وأن المعاهدة التجارية الموقعة من الممكن أن تسهل فى حل المشكلة .

واستمراراً لمحاولته استيضاح موقف إنجلترا ، على نحو أكثر تحديداً ، من مسألة إمكانية إشعال فتيل الحرب بين السلطان ومحمد على وأفاق تقديم إنجلترا لدعم عسكرى فى مثل هذه الظروف ، سأل قانى بك محدثه عن رأيه فى الكيفية التى ينبغى على تركيا أن تتصرف بمقتضاها إذا ما جرى توقيع معاهدة بينها وبين إنجلترا .

وعندما لفت قانى بك نظر بونسونبى إلى الظروف المواتية المتمثلة فى: الانتفاضة السورية ضد محمد على والخسائر الفادحة فى صفوف الجيش المصرى ثم الأعداد الهائلة لقوات الباب العالى ، رد بونسونبى على هذه الملاحظة بحرص شديد مشيراً إلى

أن الحروب تتم الغلبة فيها لا لأصحاب الأعداد الغفيرة أو الشجاعة الشخصية ، وإنما لمن يملكون المعرفة والمهارة . وأشار بونسونبي إلى أن محمداً علياً يمتلك قادة عسكريين أوروبيين ، ولهذا فإن هناك مخاوف من أن يضطر الباب العالي للجوء إلى طلب المساعدة من روسيا . وأكد بونسونبي أن لدى الفرنسيين نفس المخاوف ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٦ - ٩ ) .

وفي مباحثاته التالية مع وزير الخارجية مصطفى رشيد باشا ، أشار بونسونبي عليه تحديداً ، باعتباره أكثر الدبلوماسيين الأتراك حنكة ، بالذهاب إلى إنجلترا والإعراب عن أمله في أن المعاهدة التجارية السابقة بين إنجلترا وتركيا سوف تساعد بشكل كبير على تحقيق الهدف المطروح .

وكرر بونسونبي على مصطفى رشيد أن دول أوروبا الغربية تشعر بالقلق إزاء إمكانية الباب العالي طلب المساعدة من روسيا . وهذا ما جعل كل من فرنسا وإنجلترا يتوصلان بعد حوالي خمس سنوات إلى استنتاج حول ضرورة بقاء الوضع على ما هو عليه بالنسبة للعلاقات التركية المصرية طالما أن الباب العالي لم يصبح بعد قويا بشكل كاف . ووعده بونسونبي بأن يبذل كل جهوده ليصل إلى حل نهائي للمشكلة المصرية (دون أن يحدد بدقة خطته في هذا الشأن) . وأكد بونسونبي إلى أن المصاعب التي يمكن أن تواجه مصطفى رشيد في لندن يمكن أن يكون مرجعها الرأي السائد هناك حول ميل الباب العالي نحو روسيا ، ولهذا فإن مصطفى رشيد ، باعتباره وزيراً لخارجية تركيا ، سوف يتمكن من تهدئة المخاوف الموجودة لدى حكومة إنجلترا . قال بونسونبي لمصطفى رشيد باشا " أمل أن تكمل مهمتك بالنجاح ، ولست أرى شيئاً من شأنه أن يعوق تنفيذ رغبتك " . وألمح بونسونبي إلى أن إنجلترا لا تريد أن تدفع الباب العالي لاتخاذ خطوات من شأنها إثارة حفيظة روسيا ، إلا أنه صرح أن روسيا لا تجرؤ بمفردها على مهاجمة الإمبراطورية العثمانية . وأضاف قائلاً إن النمسا لن تتصرف ضد سياسة إنجلترا وفرنسا وهو ما يمكن اعتباره إثباتاً مناسباً ( ٤٨ ، ص ١٣٤ - ١٣٦ ) .

على هذا النحو اعتبر الباب العالي ومعه السفير الإنجليزي بونسونبي أن عقد إتفاقية عسكرية بين إنجلترا وتركيا سوف يؤدي إلى عزل سوريا عن مصر عن طريق فرض حصار بحري عسكري ، وهو ما سوف يوفر بدوره ظرفاً مواتياً تماماً لتنفيذ مخططات السلطان في سلخ سوريا عن مصر محمد علي بالقوة ، وفي الوقت نفسه فإن هذا التحالف الإنجليزي التركي ربما يجعل السلطان التركي في غير حاجة لطلب المساعدة من روسيا ، ومن ثم ، يتم دفن معاهدة أونكيار إيسكيليسى نهائياً ( انظر ٦٣ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ١٧٨ ، ص ٩٣ ) .

يذكر المؤرخ الإنجليزي هـ. تمبرلي ، استناداً إلى أرشيف بالمرستون الخاص والموجود في برودلين ، أن بونسونبي في فبراير ١٨٣٩ " قدم اقتراحاً مباشراً للسلطان بأن يهاجم محمداً علياً ، واعداء إياه بتأييد إنجلترا له بحرباً " ( ١٨٦ ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ ، انظر أيضاً ٦٣ ، ص ٧٥ ) .

لقد أدى التأكيد الذي أبداه بونسونبي لنجاح مهمة مصطفى رشيد باشا إلى أن أصبح جيش السلطان في حالة تأهب تام لا ينقصه سوى تلقى الأوامر لبدء العمليات العسكرية ( ١٧٨ ، ص ١٣٤ ) . وفي الوقت نفسه أبدت حكومة السلطان رفضها ، بناء على نصيحة روسيا ، المشاركة في الاستعدادات التي كان يجريها بالمرستون لعقد مؤتمر أوروبي شامل لبحث المسألة الشرقية . كان الوزراء الأتراك يخشون أن يتوصل هذا المؤتمر إلى قرارات لصالح محمد علي لا لصالح تركيا ، على غرار تلك المؤتمرات التي عقدت من قبل لبحث مصير اليونان وبلجيكا وأسفرت عن إعلان استقلال الدولتين ( ١٧٨ ، ص ١١٧ - ١١٨ ) . كان السلطان مفعماً بالعزم على إخضاع الوالي المتمرد بالقوة العسكرية سواء بمساعدة إنجلترا أو بدون مساعدتها . وبعد أن أعلن الباب العالي رفضه الاشتراك في المؤتمر الذي كان على وشك الانعقاد ، قرر إرسال سفيره إلى لندن ، وكان على السفير أن يمر في طريقه بفيينا وبرلين وباريس ليستوضح مرة أخرى موقف الدول الكبرى قبيل قيامها بتنفيذ الخطط المرسومة .

كان مصطفى رشيد قد قام في أوائل أغسطس عام ١٨٣٨ بإطلاع السفير الروسي لدى إسطنبول أ. ب. بوتينيف أن السلطان يشعر بالضيق للتأييد الذي طال أمره لبقاء الأوضاع على ما هي عليه ، وأن السلطان قد أرسله إلى لندن وباريس لطلب دعم حاسم من حكومتى إنجلترا وفرنسا ( ١٧٨ ، ص ٩٧ ) .

وفي أكتوبر عام ١٨٣٨ بدأ مصطفى رشيد باشا رحلته ( ١١٨ ، ص ٥ / ١٧٨ ، ص ١٢٠ / ١٩٠ ، ص ١٥٤ ) . في فيينا أجرى وزير خارجية تركيا مباحثات مع مترنيخ ، وقد صرح مستشار النمسا أن محمداً علياً لن يتنازل عن سلطته طوعية وأشار بالانتظار حتى توافيه المنية . وفي سياق مباحثاته مع مصطفى رشيد في برلين أشار وزير خارجية بروسيا فيرتر أيضاً عليه بتأجيل النظر في المشكلة المصرية ، معرباً عن رضائه بالوضع الحالي والفوائد الناجمة عن التحالف مع روسيا ( ١٧٨ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ) . وفي مارس ١٨٣٩ قام مصطفى رشيد بزيارة فينيسيا في طريقه إلى لندن ( ٤٨ ، ص ١٤٧ ) .

وفي لندن بدأ مصطفى رشيد باشا مباحثاته مع بالمرستون . وعلى الرغم من أن بالمرستون كانت لديه الرغبة في تقديم المساعدة للسلطان ، إلا أنه كان يرى أن من المستحيل أن تتخذ إنجلترا موقفاً منفرداً في المؤتمر . كانت الحكومة الإنجليزية مرتبطة بعدد من الالتزامات الدبلوماسية استهدفت جميعها الحيلولة دون وقوع صراعات

مسلحة في الشرق . كان بالمرستون يخشى أن يواجه باحتجاج شديد من جانب روسيا وفرنسا ( ١٧٨ ، ص ١٢٢ ، ١٢٦ ) . وفي الوقت نفسه كانت روسيا مرتبطة بالباب العالي بمعاهدة ثنائية ، إلى جانب امتلاكها جيشاً قوياً ، الأمر الذي كان من الممكن أن يجعل باستطاعتها المشاركة في رسم الخرائط إذا ما تدخلت في الصراع . كانت فرنسا نصيراً واضحاً لمحمد علي ، وكان من المستبعد تماماً أن توافق على سلخ سوريا عن مصر وهو ما أكدته أحداث عامي ١٨٣٩ و ١٨٤٠ فيما بعد . كل هذه الملابسات دفعت إنجلترا لاستبعاد المشروع التركي للمعاهدة والذي كان يقضى بسرعة فرض الحصار على السواحل السورية . على أن وصول مصطفى رشيد باشا إلى لندن ، كان مقدراً له ، وفقاً لحسابات بالمرستون ، أن يعمل على تدهور العلاقات التركية الفرنسية ( ١٧٨ ، ص ٩٤ ) وهو ما كان يلبي أهداف حكومة إنجلترا . وقد تم اقتراح المشروع الإنجليزي لصياغة المعاهدة الإنجليزية التركية بدلاً من المشروع التركي .

تميز المشروع الإنجليزي عن التركي بمقدمته التي غيرت جوهرياً من مغزاه: إن العمل الإنجليزي التركي المشترك يتم فقط " في حالة إعلان الباشا المصري للإستقلال أو بوفاته وعدم خضوع أولاده لإرادة السلطان " . استمر المشروع الإنجليزي بعد ذلك متفقاً مع المشروع التركي في أفكاره:

١- يكلف السلطان الأسطول الإنجليزي بإيقاف السفن العسكرية والتجارية للباشا . وحيث إن الباشا يرسل شحناته من المؤن والعلف والقوات إلى سوريا على متن سفن محايدة فإن من حق أسطول السلطان تفتيش هذه السفن ومصادرة ما تحمله من شحنات .

٢- يعمل الأسطول الإنجليزي بالاشتراك مع الأسطول التركي ويقومان بالدوريات في المياه المصرية والسورية<sup>(١)</sup>.

وفي الفترة من العاشر وحتى السادس عشر من أبريل عام ١٨٣٩ ناقش الباب العالي والسلطان المشروع الإنجليزي وتوصلا إلى استنتاج مفاده أن المشروع لا يلبي مصالح الدولة العثمانية ( ١٧٨ ، ص ١٢٨ ) ، وإن كان لا يشجع محمداً علياً على إعلان الإستقلال ( ٤٨ ، ص ١٤٨ ) . وقد أعلن نوري أفندي نائب وزير الخارجية: " أن المعاهدة التي يقترحها بالمرستون سوف ترغم تركيا على الانتظار إلى أجل غير مسمى ... كما أنها تمنعها من استغلال الظروف المواتية التي يمكن أن تتشكل لصالحها مستقبلاً " ( ٦٣ ، ص ٨٠ ) ، وفي هذا الصدد أيضاً كتب ف. موصلي يقول: " أن

١- لمراجعة نص المشروع الإنجليزي للمعاهدة باللغة الفرنسية انظر: ( ١٩ ، المونيات ٧٨ - ٨٠ ) .



الفشل في توقيع معاهدة هجومية مع إنجلترا ، لم يزد عن أن دفع السلطان لوضع  
مصير جيوشه على الخريطة فقط " ( ١٧٨ ، ص ١٣٤ ) .

بداية فإن إنجلترا كانت راضية تماماً عن الأوضاع التي تشكلت والتي كانت  
ستؤدي حتماً إلى نشوب الحرب بين السلطان ومحمد علي ، إذ إن كليهما قد أعطى  
بذلك المبرر للتدخل الدبلوماسي من جانب الدول الأخرى والتي كانت تسعى إليه في تلك  
الفترة . وعلى الرغم من رفض إنجلترا عقد معاهدة إنجليزية تركية تتفق والمشروع  
التركي ، إلا أنها لم تتخل عن عزمها تقديم مساعدة فعلية للباب العالي من أجل  
إخضاع محمد علي للسلطان . وهو ما تؤكد جميع الأحداث التي وقعت فيما بعد .

لقد أدى الصدام المسلح الذي وقع في ربيع عام ١٨٣٩ بين جيشي السلطان  
ومحمد علي دوره وساعد إنجلترا في حصولها على النتيجة التي كانت تطمح إليها دون  
أن تسوء علاقاتها بالدول الأوروبية الأخرى ( ٦٣ ، ص ٧٥ - ٧٦ ) . " كانت القطيعة  
بين الباب العالي والباشا المصري بمثابة نقطة إنطلاق نحو مفاوضات متصلة ومعقدة  
بين الدول الكبرى أدت إلى ما عرف باسم الاتفاق الأوروبي بشأن الشرق " ( ١٣٢ ،  
ص ٤٣٠ ) .

كانت حكومة السلطان تشعر بالإحباط التام من نتائج المفاوضات التي أجراها  
مصطفى رشيد باشا في لندن ، ومن ثم قررت إتخاذ إجراءات تهدف إلى تقوية تحالفها  
مع روسيا ( ٦٣ ، ص ٨٠ ) . وفي اجتماع مجلس الوزراء تقرر طرح الإجراءات التالية  
لإعتمادها من السلطان: إقالة فتحي باشا سفير تركيا لدى باريس من منصبه ، وكانت  
روسيا قد اشتكت من تصريحاته المعادية لها ، تعيين مصطفى رشيد سفيراً لدى كل  
من باريس ولندن في نفس الوقت ، بعد إعفائه من منصب وزير الخارجية . وتجنباً  
لمشاعر عدم الإرتياح من جانب إنجلترا تجاه إقالة مصطفى رشيد باشا اقتضى الأمر  
توضيحاً يفيد أن مصطفى رشيد أرسل إلى باريس من أجل توطيد العلاقات مع  
الحكومة الفرنسية . على أن السلطان عاد فأعرب عن شكه في صحة إتخاذ هذه الخطوة ،  
بعد أن كتب في قراره أن استبدال الوزير وتعيينه في باريس أمور لم يكن ينبغي أن  
تظهر أمام إنجلترا على هذا النحو المتعجل . وأنهى السلطان قراره بقوله " إن رشيد  
باشا قد لا يعد شخصاً ضرورياً ، ولكنه شخصية ينبغي حمايتها من القرارات المتعجلة " ( ٥٣ ،  
المجلد ٦ ، ص ١٧ ، انظر أيضاً ٤٨ ، ص ١٥٠ - ١٥١ )<sup>(١)</sup> .

١- حول الإحباط الذي أصاب السلطان والباب العالي لنتائج سفارة مصطفى رشيد في لندن وعن  
الإجراءات التي اتخذتها حكومة السلطان لتقوية التحالف مع روسيا أنظر كذلك: ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٢٥ -  
٢٢٦ / ١٧٨ ، ص ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٢٣ - ١٢٤ ، ١٢٦ - ١٢٨ ) .

إبان المفاوضات التي أجراها مصطفى رشيد في لندن ، كانت الحكومة التركية تقوم بإحاطة السفير الروسي لدى إسطنبول أ. ب. بوتينيف علماً بمسار هذه المفاوضات ، وكانت تنبه دائماً إلى أنها سوف ترفض المعاهدة إذا ما أبدت روسيا تأييداً أكثر فعالية للسلطان . وبعد فشل المفاوضات تظاهر الباب العالي بأنه هو الذي رفض التحالف الإنجليزي التركي ، وذلك حتى يتمكن من دعم علاقات تركيا بروسيا . ومما يؤكد اهتمام تركيا باحتفاظها بتحالفها مع روسيا هذه العبارات التي وردت في مرسوم السلطان ، الذي صدر قبيل سفر مصطفى رشيد إلى لندن .

في هذه الوثيقة يأمر السلطان بإحاطة السفارة الروسية لدى إسطنبول علماً ببعثة رشيد باشا وذلك قبل سفره بأسبوع ، كما يصدر السلطان كذلك أمراً بإحاطة الإمبراطور نيكولاي الأول شخصياً نيابة عنه بذلك سراً حتى لا يزعج روسيا بأخبار مفاجئة ولتجنب حدوث أي جفوة معها ( ٤٨ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ) . لكن هذه الوثيقة للأسف لا تحتوى على أي معلومات تصف الطريقة التي كانت ترسل بها أنباء المفاوضات إلى كل من السفير الروسي وإلى نيكولاي الأول .

لقد دفعت خطورة التقارب الإنجليزي التركي روسيا لأن ترسل في العاشر من أبريل عام ١٨٣٩ بمذكرة إلى محمد علي تطلب منه فيها وقف تركيز قواته العسكرية في سوريا وسحب جيش إبراهيم إلى دمشق ( ٦٣ ، ص ٨٠ ، ٨٢ - ٨٣ ) . آنذاك كان الجيش التركي يقف عند الحدود السورية مستعداً لعبورها . " كان بوتينيف يلح على الديوان محذراً إياه من نقض السلام القائم بكل طريقة ، حتى يؤكد بذلك أن صمت مجلس الوزراء الروسي لا يعنى تأييد الاستعدادات العسكرية للباب العالي " ( ١٢٤ ، الجزء الأول ، ص ٣١١ ، ٢٠ ، انظر أيضاً ٦٢ ، ص ١٧٥ ، ٦٣ ، ص ٧٧ ، ١٧٨ ، ص ١٢٩ ) . لكن التحذيرات لم يكن بمقدورها أن تغير من الأمر شيئاً: ففي الواحد والعشرين من أبريل عام ١٨٣٩ اجتازت القوات التركية نهر الفرات ، وبعد مرور شهرين تماماً على بدء العمليات الحربية وفي الواحد والعشرين من يونيو عام ١٨٣٩ انهزم جيش السلطان على يد قوات محمد علي عند نصيبين .

وصلت أنباء بداية الأعمال العسكرية إلى مصطفى رشيد وهو في باريس بعد وصوله من لندن إليها ، بهدف التعرف على موقف فرنسا منها . وسرعان ما رجع مرة أخرى إلى لندن .

وبإبان المفاوضات التي أجراها مصطفى رشيد في كل من لندن وباريس تلقى في الرابع من يونيو عام ١٨٣٩ وعداً من المرستون بأن يتلقى مساعدة عسكرية من أساطيل فرنسا وإنجلترا في حالة تعرض جيش السلطان للهزيمة وبعدم التدخل في

حالة الانتصار . وقد جاء في التقرير الذي بعث به مصطفى رشيد يوم الرابع من يونيو عام ١٨٣٩ ( ٤٨ ، ص ١٥٤ ) " أن الحكومة الإنجليزية تعتزم اتخاذ إجراءات حذرة أخرى سوف تحيط بها فرنسا والنمسا علماً " . وفي إسطنبول أبلغ بونسونبي الباب العالي أمر اعتزام إنجلترا تقديم مساعدة للأسطول التركي الذي كان يتحرك تجاه السواحل السورية ( ٦٣ ، ص ٣٦ ) .

كان مصطفى رشيد يرى أن رفض إنجلترا بدء الحرب ضد محمد علي لا يعنى خيانة لسياستها الشرقية . ولهذا فقد اقترح في تقاريره ، كما فعل سابقاً ، التوجه نحو إنجلترا لا نحو روسيا . وفي أحد هذه التقارير كتب مصطفى رشيد يقول إنه سمع بنشوب الحرب بين محمد علي وجيش السلطان وأنه دعا الله أن ينصر جيش السلطان وأن لا يضطر السلطان لطلب المساعدة من الجيش الروسى مرة أخرى . وصف مصطفى رشيد طلب المساعدة من روسيا بأنه مشكلة عويصة وشديدة الحساسية . واستطرد قائلاً إن وصول القوات الروسية سوف يغضب الدول الأخرى التى لن تكتفى فى سياق الأحداث بالوقوف فى مواجهة روسيا وإنما سيمتد الأمر لدخولها فى حرب ضد بعضها البعض وضد الإمبراطورية العثمانية أيضاً . ودعا رشيد إلى التنبؤ ببدء هذه الأحداث ( ٤٨ ، ص ١٥٨ ) . إن هذا الخوف الذى أعرب عنه مصطفى رشيد يشير إلى النظرة الواقعية فى الموقف السياسى للإمبراطورية العثمانية وسياسة الدول الأوروبية . وهو موقف يدعونا لأن نفكر كيف أن التوجه نحو إنجلترا ، والذي جاء اختياراً ومبادرة من جانب مصطفى رشيد ، كان موقفاً أكثر فائدة للإمبراطورية العثمانية لحل الصراع التركى المصرى ، فضلاً عن أنه كان تقديراً صحيحاً لأهمية هذا التوجه . بعبارة أخرى ، لو أن الإمبراطورية العثمانية أرادت استدعاء القوات الروسية ، استناداً إلى شروط معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، فإن دول أوروبا الغربية لم تكن لتسمح بذلك ولدخلت فى حرب ضد روسيا ، التى يمكن أن تسقط فيها ، وهى الحليفة ، ضحية للتنافس بين دول أوروبا وبين الإمبراطورية العثمانية .

نفس هذا رأى حول أفاق التحالف الثنائى بين تركيا وروسيا طرحه فى حينه أيضاً ك. ف. نيسيليرودى الذى كتب إلى نيكولاى الأول يخبره أنه لا أمل فى مد العمل بمعاهدة أونكيار إيسكيليسى ، وكان يعنى ليس فقط مغزاها بالنسبة للباب العالي وإنما أيضاً وبصورة أساسية علاقة دول أوروبا الغربية بها . كتب نيسيليرودى يقول: " ليس باستطاعتنا مد يد العون للسلطان دون أن نكون مستعدين لدخول الحرب ضد الإنجليز " ( ٢١ ، أنظر أيضاً ١١٥ ، ص ٨٠ ، ٣٤ ، المجلد ١٢ ، ص ٧٣ ، ٦٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ ) . لقد جاء رفض روسيا تقديم مساعدة عسكرية لتركيا بعد هزيمة قوات السلطان فى نصيبين إنطلاقاً من هذه الأفكار تحديداً .

وترى المراجع التاريخية أن بعثة مصطفى رشيد إلى لندن أمر جانبه التوفيق كلية ( ١٦٩ ، ص ٤٥٨ ) وترجع السبب في ذلك إلى رفض إنجلترا التوقيع على المشروع التركي للمعاهدة . على أن جميع الأحداث التي وقعت بعد هزيمة الجيوش التركية عند نصيبين تدفعنا للشك في هذا الرأي . فعلى الرغم من أن إنجلترا رفضت توقيع معاهدة عسكرية هجومية مع الباب العالي ، إلا أنها واصلت الدفاع عن مصالح تركيا فيما يتعلق بالصراع التركي المصري ( انظر ٦٣ ، ص ٩٥ - ٩٧ ، ١٠٩ ، ١٤٦ - ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ - ١٧٣ ، وغيرها ، ١٣٢ ، ص ٤٤٣ ، ٤٨ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ) . وقد لعب هذا دوراً حاسماً في نتائج تصعيد الصراع ، عندما تترك هزيمة القوات العسكرية التركية عند نصيبين أي أثر سلبي على علاقتهم . لقد تم إعداد شروط إخضاع محمد علي للسلطان نتيجة المفاوضات الدبلوماسية بين ممثلي الدول الكبرى والباب العالي في كل من لندن وإسطنبول في الفترة من عام ١٨٣٩ وحتى عام ١٨٤١ ، والتي كان موقف إنجلترا فيها مرتبط ، بشكل خاص ، بنشاط الدبلوماسية التركية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وكذلك بموقف محمد علي الذي أثار كل الدول الأوروبية عليه باستثناء فرنسا .

## المباحثات التي دارت بشأن المسألة الشرقية والتنظيمات الإصلاحية

توفي السلطان محمود الثاني في الأول من يوليو عام ١٨٣٩ ، أي بعد بضعة أيام من الهزيمة التي لحقت بالجيوش التركية عند نصيبين ، وفي الرابع من يوليو قام القبودان باشا أحمد فوزي بخيانة الإمبراطورية وتسليم أسطول السلطان إلى محمد علي . لقد أدت سلسلة الخسائر التركية إلى إثارة الإضطراب لا في تركيا فحسب وإنما في أوروبا أيضاً . كانت دول أوروبا الغربية في هذا الوقت تخشى من قيام روسيا بالتدخل العسكري . على أن الجهود الدبلوماسية التي بذلت في وقت سابق لم تذهب هباء . لقد دفعت انتصارات محمد علي بالدول الأوروبية للتدخل على نحو أكثر حماساً لتسوية الصراع .

ما إن وصلت أنباء هزيمة القوات التركية إلى مسامع مترنيخ مستشار النمسا ، حتى سارع في نهاية يوليو ١٨٣٩ بتقديم اقتراح إلى السلطان عبدالمجيد الأول بأن تقوم الدول الأوروبية بمعالجة هذا الصراع . كان مترنيخ يأمل أن يتم حل هذا الصراع في إطار دبلوماسي حتى يحرم روسيا من فرصة تطبيق معاهدة أونكيار إيسكيليسي

وأن يمنع محمداً علياً من أن يواصل تطوير نجاحاته ( ٤٣ ، المجلد ٢ ، ص ٤١٧ ، انظر أيضاً ٦٥ ، ص ٤٥ ) . وقد وافق السلطان على الاقتراح . وكان قد لجأ ، قبل ذلك بفترة قصيرة ، إلى أسلوب الصلح الذي كانت حكومة السلطان قد وافقت عليه أكثر من مرة: " العفو " عن محمد علي . وقد أبلغ السلطان نبأ العفو إلى القبودان باشا أحمد فهمي أيضاً ، الذي وقع في أسر المصريين هو والأسطول التركي وأمر بإعادة الأسطول . وقد صرح عاكف أفندي ، سفير السلطان بأن محمداً علياً يطلب أن يضم إليه كل الأراضي التي تمكن من الإستيلاء عليها . وقد وصل الأمر بحكومة السلطان ، التي فقدت روحها المعنوية أمام سيل الأحداث المتلاحق ، مثل وفاة السلطان محمود الثاني وهزيمة الجيش وتسليم الأسطول ، إلى إعلان استعدادها لتلبية مطالب محمد علي معتبرة أن الحل الوحيد لإنقاذ البلاد هو عقد الصلح معه ( ٤٨ ، ص ١٦٠ ) . في تلك الفترة كان نيكولاي الأول قد ترك تركيا دون أن يقدم لها أي مساندة ، بعد أن نصح السلطان بالقيام بإجراء مفاوضات مباشرة مع محمد علي واعداء إياه بتقديم " خدمات قيمة " له في الاسكندرية ( ٦٣ ، ص ٩١ ، ٦٥ ، ص ٤٤ ، ١١٠ ، ص ٥٠ ) .

على امتداد الصراع التركي المصري ( ١٨٣١ - ١٨٤١ ) بذل كل من السلطان ومحمد علي محاولات أربع للإتفاق فيما بينهما متجاوزين الوساطة الأوروبية ، مدركين أن كليهما بحاجة للتسوية السلمية للصراع . كان السلطان قد وافق على إعطاء محمد علي حق الحكم الوراثي لمصر باعتباره نائباً له فيها ، وكذلك حق إدارة سوريا مدى الحياة ، بشرط رفع قيمة الجزية السنوية التي تدفع للباب العالي . لكن محمداً علياً ظل رافضاً التخلي عن سوريا ، مصمماً على أن يحكمها هو وأسرته من بعده . وقد دارت المفاوضات المباشرة في فبراير عام ١٨٣٣ بمبادرة من السلطان محمود الثاني ، وفي عامي ١٨٣٦ و ١٨٣٧ بمبادرة من محمد علي ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ / ٢٧ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ) ، وفي يوليو عام ١٨٣٩ بمبادرة من السلطان عبد المجيد ( ١٩ مدونة ٣٧٠ - ٣٨٠ ) ، ثم في نهاية عام ١٨٣٩ بمبادرة من محمد علي ( ٢٢ ) .

في يوليو عام ١٨٣٩ كان محمد علي ينتظر هو والسلطان في آن واحد قرار الدول الأوروبية . وكان محمد علي يعول على أن الانتصار الذي أحرزه على جيش السلطان سوف يساعده من جديد في الاحتفاظ بسوريا .

لم يتم افتتاح أعمال المؤتمر الأول في لندن لشئون الشرق إلا في ديسمبر عام ١٨٣٩ ( ٦٣ ، ص ١١٦ ) . وقد شارك في أعمال مؤتمر لندن بدءاً من مارس ١٨٤٠ نوري أفندي وشكيب أفندي ممثلين لتركيا فيه ( ١٣٢ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ ، ٥١١ /

٢٠٣ ، ص ١٥) (١). كان مصطفى رشيد ، الذي عاد إلى إسطنبول عام ١٨٣٩ لتسلم مهام منصبه مرة أخرى كوزير للخارجية ، سعيداً بدعوة ممثلين عن تركيا إلى المؤتمر . فقد اعتبر أن حضورهم إليه يمثل ضماناً لعدم وجود أي تواطؤ من جانب الدول الأوروبية لتقسيم الإمبراطورية العثمانية . كل ما كان يخشاه مصطفى رشيد آنذاك أن تقوم كل من إنجلترا وروسيا بالاتفاق فيما بينهما على تقسيم الإمبراطورية ( ٦٣ ، ص ١٢٣ ) .

كان بالمرستون قد اقترح قبل ذلك في خريف عام ١٨٣٨ أن تقوم الدول الخمس الكبرى بافتتاح المؤتمر في لندن لمناقشة شئون الشرق . وقد أجابت روسيا في البداية بالرفض القاطع لكنها عادت بعد ذلك فأبدت موافقتها : وهذا يعني أن روسيا كانت قد قررت ، تحت تأثير دول أوروبا الغربية ، رفض إجراء أي إتفاق ثنائي مع الإمبراطورية العثمانية ( ٦٣ ، ص ٩٤ ) .

كان الهدف الرئيسي لدول أوروبا الغربية هو استبدال معاهدة أونكيار إيسكيليسى بإتفاقية أوروبية مشتركة ، تمكنها من حل مشكلة نظام المضائق وحرمان روسيا من إمكانية تنفيذ سياسة من جانب واحد في الإمبراطورية العثمانية . في الوقت نفسه كان على هذه الدول أن تصل إلى رأي موحد بخصوص الإجراءات التي ينبغي اتخاذها لمساعدة السلطان في معركته مع محمد علي . أما المشكلة الثانية والأكثر حدة بالنسبة لتركيا فقد تضمنت ، بعد الهزيمة الثانية لجيش السلطان في عام ١٨٣٩ ، مسألة الشروط الخاصة بإخضاع محمد علي للسلطان .

وإبان المفاوضات التي جرت في لندن عام ١٨٤٠ ( ٦٣ ، ص ٩٥ - ١٢٨ ) أثارت الخلافات الإقليمية بين السلطان ومحمد علي خلافات أخرى بين الدول الأوروبية ، التي راحت تماطل في إصدار قرار نهائي . كانت سوريا محل جدل بين إنجلترا وفرنسا ، فبينما راحت إنجلترا تسعى لإعادة سوريا إلى السلطان ، ظلت فرنسا تسعى لإبقائها ضمن ممتلكات محمد علي .

وقد اقترح بالمرستون على فرنسا ، أثناء سير المفاوضات معها ، على الرغم من الإختلاف في وجهات النظر بينهما ، أن يعملوا معاً ضد روسيا . وقد وافقت فرنسا ، إذ أن ذلك كان يعطيها الفرصة لعرقلة خطط روسيا ، ويوفر في الوقت نفسه مناخاً ملائماً لمحمد علي لحل مشكلاته . وبدورها فقد سعت الحكومة القيصريّة لاستغلال الخلافات بين إنجلترا وفرنسا لعزل فرنسا وعقد إتفاقية ثنائية بينها وبين إنجلترا ، وذلك بعد أن

١ - وصل نوري أفندي إلى لندن في منتصف مارس عام ١٨٤٠ ( ٦٣ ، ص ١٢٣ ) ، وفي يونيو من نفس العام حل محله شكيب أفندي ( ٦٣ ، ص ١٢٤ ) .



تبين لها أنه من غير الممكن أن تعمل بمفردها ، وإلا أدى ذلك بها إلى الدخول في حرب ضد دول أوروبا الغربية المتحالفة .

والآن وقد أصبح حل الصراع عن طريق الإتفاق المشترك في أيدي الدبلوماسيين ، راحت إنجلترا تبذل كل ما في وسعها لتصبح أكثر الدول تشجيعاً للسلطان . أما فرنسا ، التي بالغت في تقديرها لقوة محمد على العسكرية ، فقد أظهرت صلابته في آراءها إبان المفاوضات ، واستندت إلى أن الباشا المصرى سوف يستطيع بقوته العسكرية أن يحقق مطالبه الإقليمية .

في هذا الوقت أعلن مصطفى رشيد باشا من إسطنبول اعتراضه الشديد على مقترحات فرنسا إعطاء سوريا وجزيرة كريت ليصبحا تحت إدارة ورثة محمد على ، وكان معتمداً في اعتراضه على تأييد إنجلترا له . وقد فسر دى بونتوا ، سفير فرنسا لدى إسطنبول رغبة حكومته في التخلي عن الباب العالي لصالح محمد على بزعم وجود تهديد عسكري روسي بالتدخل وإحتمال قيام حرب شاملة . وقد أشار مصطفى رشيد بحصافة إلى أن القوات الروسية لا يمكنها أن تأتي إلى تركيا على أساس معاهدة أونكيار إيسكيليسى دون دعوة من السلطان ، وأن روسيا ، في الوقت الراهن ، لن تقوم بأى عمل منفرد دون اتفاق مع الدول الأوروبية . وأعرب مصطفى رشيد عن عدم ثقته في محمد على ، طالما أنه لم يعد الأسطول التركى حتى الآن ( ٤٨ ، ص ٣١٧ - ٣٢٠ ) والذي سلمه إليه أحمد فوزى بعد وفاة محمود الثانى . أما ما حدث في عام ١٨٣٩ فيعد تكراراً لما حدث عام ١٨٣٨ إذ حاول مصطفى رشيد ، عند توقيع المعاهدة التجارية بين إنجلترا وتركيا ، استغلال الأوضاع السياسية المعقدة المحيطة بالإمبراطورية العثمانية ليحصل على موافقة الباب العالي في القيام بعدد من الإصلاحات . ومما ساعده على ذلك صغر سن السلطان عبدالمجيد إضافة إلى تأثير مصطفى رشيد القوى عليه . لقد استهدفت الإصلاحات ، وفقاً لمخططات مصطفى رشيد ، القضاء على أسباب السخط لدى الشعوب الخاضعة للإمبراطورية والعمل على وحدة وقوة الدولة . وفي الوقت نفسه توقع رشيد أن يكون لهذه الإصلاحات صدى إيجابياً في أوروبا ، الأمر الذى رأى أنه قد يساعد في إيجاد حل ملائم للمشكلات السياسية الخارجية بما فيها الصراع التركى المصرى .

في الثالث من نوفمبر عام ١٨٣٩ وفي احتفال مهيب في حضور ممثلين عن كل الطبقات والسفراء الأجانب أعلن عن خطى شريف جولخانه ( أنظر ٢٠٨ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٨ / ٤٨ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ / ٣٩ ، ص ١٧١ - ١٧٥ / ٤٢ ، ص ١٧٦ - ١٨٠ / ١٥١ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ ) .

لقد فتح بيان خطى جولخانة عهداً جديداً فى تاريخ الدولة العثمانية ، إذ وضع عدداً من الشروط الضرورية لحفز النظام الرأسمالى فى الإقتصاد على النمو . كما ساعد كذلك على نشر التقاليد البورجوازية فى حياة المجتمع العثمانى . لقد أعلن البيان بصورة احتفالية عن حرمة حياة وشرف وممتلكات رعايا السلطان ومساواتهم أمام القانون ، سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين ، وسمو القانون المدنى على إرادة السلطان ... إلى آخره . لقد اشتمل خطى جولخانة على أفكار جديدة تعارضت بدرجة كبيرة مع التقاليد والشرعية ولهذا فقد تنبأ مصطفى رشيد بأنها سوف تثير معارضة السكان المسلمين<sup>(١)</sup>. كان مصطفى رشيد مؤمناً ، كما تؤكد المصادر ، بأن الإصلاحات التى بشر بها خطى جولخانة ممكنة التحقيق ، ورأى أن الضمان الرئيسى لذلك يتمثل فى موافقة السلطان عليها ودعمه لها ( ١٧٧ ، ص ٣٩٦ ، ١٥١ ، ص ٢٧٤ ) ، كما رأى أن العقيدة الإسلامية قادرة على تكييف أفكار الغرب البورجوازية لصالحها ( ١٥١ ، ص ٢٧٤ / ١٧٧ ، ص ٣٩٣ ) . على أن صدور أمر من السلطان لوضع هذه الأفكار ، التى تطورت فيما بعد فى إصلاحات الفترة من ١٨٣٩ إلى ١٨٥٦ ( والتى عرفت باسم فترة التنظيمات الإصلاحية الأولى ) موضع التنفيذ لم يكن كافياً فى حد ذاته . لقد انعكست مثالية مصطفى رشيد فى المبالغة فى دور السلطان تجاه العمليات الاجتماعية ، وفى سوء تقديره للقوى المناوئة من مختلف فئات المجتمع العثمانى لهذه الإصلاحات . لقد اعتبر خصوم الإصلاحات أن خطى جولخانة ما هو إلا إجراء وقتى استعراضى وأن الحاجة إليه ستزول بمجرد زوال الصراع التركى المصرى ( ٤٧ ، العدد ٦ ، ص ٧ / ١٥٧ ، ص ٣٨ / ١٧٧ ، ص ٣٨٧ ) . أما أنصار الإصلاحات فقد أدركوا أن ضرورتها التاريخية والفائدة التى ستعود بها على تطوير المجتمع سوف تكون ضئيلة للغاية .

وفى عام ١٨٤٨ علق فريدريك إنجلز على الطابع البورجوازى للتنظيمات الإصلاحية بقوله: " وهذه النجاحات الباهرة ( للحضارة ) فى تركيا ومصر وتونس وفارس وفى غيرها من البلاد الهمجية لم تتمثل سوى فى تهيئة الظروف من أجل ازدهار البورجوازية القادمة " ( ١٠ ص ٤٦٨ ) . وقد لاقت هذه الآراء الخاصة بالإصلاحات تأييداً من جانب المؤرخين السوفيت أيضاً ( انظر على سبيل المثال ١٠٠ ، ص ٧٠ / ١١٠ ، ص ١٩٨ / ١٢١ ، ص ٤٠ / ١٤٦ ، ص ٣١ ) . وقد تحدث أ. ف. ميللر عن الخطط الإصلاحية لمصطفى رشيد بقوله: " فكر مصطفى رشيد فى إجراء إصلاحات جذرية حتى يضع بلاده على قدم المساواة مع أوروبا ... وعلى الرغم من أن

١- فى الليلة التى سبقت إعلان الخط صرح مصطفى رشيد لرئيسه أنه لا يدرى إذا كان سيظل على قيد الحياة حتى اليوم التالى ( انظر ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ٦٠ - ٦٤ / ٤٨ ، ص ١٧٥ ) .

الأمر كان يكتنفه الغموض والتشويش ، فقد تشكل هناك وعى بأن تركيا يجب أن تتخلى عن أسلوب الاستبداد الشرقي للعصور الوسطى وأن تنتقل إلى نظام جديد يضمن لها الحياة وحقوق الملكية " .

بالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب المبادرة للتغيير والإصلاحات ذات الطابع البورجوازي رأوا أن من الضروري الاحتفاظ بالمؤسسات التقليدية الأساسية للمجتمع الإسلامي: تعايش قوانين الشريعة مع القوانين الجنائية الجديدة ، الحفاظ على تفوق المسلمين على غير المسلمين في الإدارة الحكومية ( إدارة الدولة ) وفي الوقت نفسه تحرير نظام الدولة وإكسابه طابعاً ليبرالياً ، استمرار نظام التعليم في المدارس في أداء وظيفته عن طريق التدريس بالطريقة التقليدية التي وضعها المفكرون الإسلاميون ، وفي الوقت نفسه يُنشأ في البلاد نظام للتعليم المدني ويتم الاستفادة من منجزات العلوم الغربية ، إقامة المؤسسات الرأسمالية مع الاحتفاظ بمبادئ السياسة الضريبية للدولة الإقطاعية ... إلخ .

لقد أعاقَت هذه الازدواجية من قيام مؤسسات بورجوازية جديدة ، على أن هذه الازدواجية نفسها كانت حتمية ، إذ أن المصلحين لم يكن باستطاعتهم ( حتى ولو أرادوا ) أن يصبحوا منطقيين تماماً في إنجاز الإصلاحات البورجوازية . وفي هذا الصدد كتب كارل ماركس عام ١٨٤٥ يقول: " ... هل من الممكن المساواة أمام القرآن في الحقوق بين المسلمين والكفار ، بين المسلمين وباقي الرعية ؟ إن هذا قد يعنى حتماً في الواقع استبدال القرآن بقانون مدني جديد ، بعبارة أخرى: تحطيم بنية المجتمع التركي وإقامة نظام جديد للأشياء على أنقاضه » ( ٧ ، ص ١٣٠ ) . وقد ذكر الباحث الأمريكي الشهير ر. هـ. دافيون المتخصص في فترة الإصلاحات أنه كان من الضروري هدم المجتمع كله من أجل إرجاء إصلاحات أكثر نجاحاً وحسماً ( ١٥٨ ، ص ٧٨ ) . وقد عبر عن هذه الفكرة نفسها إ. ن. بيريزين عام ١٨٥٨ ( ٢٨ ، ص ٥١ ) .

على أي حال فقد قوضت التنظيمات الإصلاحية النظام القائم سواء من الناحية الإقتصادية أو الأيديولوجية . ويوماً بعد الآخر أدى اندماج الإمبراطورية العثمانية في السوق الرأسمالية العالمية إلى تراكم الثروات لدى التجار ورجال الصناعة ، وكان ثراؤهم هذا مصدر قلق فضلاً عن الاضطهاد من جانب الدوائر الحاكمة التي كانت الفئات الطفيلية والخاملة تشكل الجزء الأكبر منها والتي كانت تخشى - في الوقت نفسه - التيارات الانفصالية في أوساط الشعوب الخاضعة . وقد انعكست التناقضات القومية ، سواء الطبقية أو الدينية ، أو تلك التناقضات التي جرى استيعابها على نحو مشوش لدى السكان المسلمين ، في الصراع الداخلي الذي دار في فترة الإصلاحات .

لقد أحدثت المبادئ التي أعلنها خطى جولخانة طفرة أيديولوجية ( ثورة أيديولوجية ) فى المجتمع . إن هذا البيان وما تلاه من إصلاحات حدثت إبان حياة مصطفى رشيد باشا قد ألقت ببذور أيديولوجية بورجوازية جديدة ، كما خلقت مؤسسات إجتماعية بورجوازية لم تكن موجودة من قبل ، لكنها مع ذلك لم تضع اساساً لنمو البلاد فى المستقبل . وفى الوقت نفسه فقد استخدم مصطفى رشيد باشا خطى جولخانة باعتباره " سلاماً دبلوماسياً " ( ١٥٧ ، ص ٣٨ ) يمكن أن يساعده فى جذب انتباه الرأى العام فى الدول الأوروبية إلى جانب السلطان وضد محمد على .

### الصراع الدبلوماسى فى إسطنبول

أثارت المفاوضات المطولة التى أجرتها الدول الأوروبية فى لندن شكوك غالبية الوزراء الأتراك فى أن تسفر هذه المفاوضات عن نتائج مبشرة ، بينما ازداد الصراع لدى الباب العالى ، الذى اعتبر بعض ممثليه ، ومن بينهم الصدر الأعظم خسرو باشا ، أن المفاوضات المباشرة مع محمد على أجدى وأكرم ( ١٢٤ ، ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣٢ / ٤٨ ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ - ٣٢٩ )

وحتى يتفادى تدخل إنجلترا ، التى كانت تقف ضد انضمام سوريا إلى مصر ، قام السيد تير رئيس حكومة فرنسا بمحاولة من وراء ظهر الدول الأخرى أيضاً استهدفت التوصل إلى إتفاق مباشر بين السلطان ومحمد على .

وقد أجرى خسرو باشا ، وكان معروفاً بمناصرتة لروسيا ، مراسلات سرية مع محمد على . ولما علمت النمسا بالخطابات السرية التى أرسلها خسرو باشا إلى محمد على أبلغت بونسونبى ، الذى قام بدوره بإبلاغ مصطفى رشيد باشا ( ٤٨ ، ص ٣٢٨ - ٣٣١ ، انظر أيضاً ٢٧ ، ص ١٧٩ - ١٨١ ) . كانت إنجلترا تأمل ألا يقدم محمد على أى تنازلات هو وراعيته فرنسا ، وراحت تبذل كل مساعيها من أجل عرقلة قيام مفاوضات مباشرة ، إذ كانت تخشى أن تؤدي هذه المفاوضات إلى انقسام الإمبراطورية العثمانية إلى دولتين ، إحداهما تابعة لفرنسا ، والأخرى تدور فى فلك روسيا ( ٣١٢ ، ص ٥١٦ ، ٤٨ ، ص ٣٢٩ ) . وفى هذا الوقت بالتحديد قررت إنجلترا أن تعمل بالتعاون مع روسيا ضد فرنسا .

كان بونسونبى يخشى أن يعطى مصطفى رشيد أفضلية للمفاوضات المباشرة على انتظاره لقرارات المجتمعين فى لندن . فكتب إلى مصطفى رشيد يخبره أن التأخير

الذي كان سبباً لقلق الباب العالي يعود إلى ضرورة التوصل لحل النزاع التركي المصري لصالح السلطان ، وأن الباب العالي سوف يصطدم بمؤامرات ومضايقات جديدة من جانب محمد علي لو أنه استجاب لمطالبه ، كما أن وساطة جارته ( روسيا ) سوف تؤدي إلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية . وأن العداوة والحرب سينتج عنهما استيلاء شخص آخر على السلطة العليا ( يعني محمداً علياً ) ، وأن توقيع معاهدة صلح سوف يؤدي إلى وجود حاكمين ( محمد علي والسلطان ) . واستطرد بونسونبي قائلاً ، إن فرنسا تأمل في تأييد محمد علي ، وحيث إنه لن يستطيع تحقيق أي نجاح إلا بمساعدتها ، فإن من البديهي أن يسعى السفير الفرنسي لحل مشكلات الإمبراطورية العثمانية دون وبسطاء . وأكد بونسونبي على أن ترك الجزء الأصغر أو الأكبر من سوريا لمحمد علي يمثل خسارة بل وخطراً على الإمبراطورية العثمانية وأن روسيا أعلنت أيضاً أنه ليس باستطاعة أحد أن يجبر السلطان على إعطاء محمد علي أي أقاليم أخرى غير مصر .

وفي معرض حديثه عن المكاتبات السرية بين الصدر الأعظم خسرو باشا ومحمد علي كتب بونسونبي يقول ، إن سفير النمسا لدى إسطنبول عرض عليه وثيقة رسمية كتبها محمد علي إلى الصدر الأعظم ، وإن السفارة الإنجليزية على علم بما يجري من مكاتبات بينهما . ثم أشار السفير الإنجليزي بعد ذلك إلى أن محمداً علياً لديه ميل عدواني تجاه السلطان ولكنه يخفي ذلك معتبراً أن إعلانه لهذا العداء فيه خطأ كبير . وأضاف بونسونبي إلى كل ما سبق أن خسرو باشا بكل تأكيد كان يعتزم تدمير مصطفى رشيد باشا<sup>(١)</sup> . وأن هناك خوف من أن تتدخل روسيا في هذه المؤامرة ، الأمر الذي سينتج عنه إنقسام الإمبراطورية العثمانية . وأن مصطفى رشيد باشا هو الوحيد القادر على الحفاظ على استقلال ووحدة الإمبراطورية . ولو أنه عارض تسليم محمد علي أراض أخرى ، باستثناء مصر ، فإن الدول الكبرى سوف تؤيده في ذلك وسوف تقف حائلاً أمام أي محاولات عدوانية يقوم بها محمد علي ضد السلطان . ولو أظهرت الإمبراطورية العثمانية إصراراً في هذه القضية ، فإن فرنسا سوف تتضامن مع إنجلترا في إرغام محمد علي على طلب العفو ، إذ ليس هناك ما يدعوها أن تدخل في خلافات مع إنجلترا ، طالما أن هناك مخاطر يمكن أن تهدد فرنسا من ظهور تحالف

١- فور عودة مصطفى رشيد باشا إلى إسطنبول في نهاية شهر سبتمبر عام ١٨٣٩ ، أصر الصدر الأعظم خسرو باشا على إعدامه ، تنفيذاً للحكم الذي كان قد أصدره السلطان محمود الثاني سراً ، قبل وفاته ، على مصطفى رشيد بسبب فشله في عقد معاهدة عسكرية ثنائية ضد محمد علي . وقد قرأ مصطفى رشيد بنفسه مذكرة خسرو باشا إلى السلطان الجديد عبد المجيد ( ٤٨ ، ص ١٦١ ) . من هنا كان لمصطفى رشيد أن يتق فيما قاله له بونسونبي بأن الأمر يمس حياته .

بين الدول الأربع ( روسيا والنمسا وبروسيا وإنجلترا ) ضدها . وحتى يهدئ بونسونبي من قلق مصطفى رشيد بسبب التأخر في إتخاذ مؤتمر لندن ١٨٤٠ لقرارات ، بين له أن بطء الدول الأوروبية لا يشكل أى خطورة على حكومة السلطان ، بل على العكس من ذلك تماماً ، إذ أنه يساعد في هزيمة محمد علي ، فها هو محمد علي يعاني من مصاعب في التصدير لعدة أشهر متوالية . ولو استمر تراجع التصدير أكثر من ذلك لأدى ذلك لفقدان محمد علي للسلطة . ووعده بونسونبي مصطفى رشيد أن يتم حل الصراع التركي المصري وكذلك " المسألة الروسية " ، وكان يعنى بالأخيرة إلغاء معاهدة أونكيار إيسكيليسى . كان بونسونبي يرى أن هذه المعاهدة أخلت بميزان القوى في أوروبا وأنها هددت النمسا وأعاققت حركة التجارة وسياسة فرنسا وسببت الكثير من المتاعب لإنجلترا ( ٤٨ ، ص ٣٢٨ - ٣٣١ ) .

يدل محتوى الخطابين اللذين قدمهما بونسونبي إلى وزير الخارجية التركي أن صاحبهما قد بحث عن كل الحجج الممكنة التي يمكن بواسطتها منع مصطفى رشيد من الدخول في مفاوضات مع محمد علي ، إذ كان يخشى أن تؤدي المفاوضات المباشرة إلى استمرار تأثير روسيا على الإمبراطورية العثمانية وتأثير فرنسا على مصر . وقد تؤدي التنازلات الإقليمية لصالح محمد علي إلى إضعاف الإمبراطورية العثمانية وهو ما لم تكن تريده إنجلترا .

في عام ١٨٤٠ اتهم خسرو باشا بعدم تنفيذه لما تقرر من تنظيمات إصلاحية ، علاوة على تقاضيه الرشوة ، وهو ما أدى إلى خلع من منصبه في شهر مايو من العام المذكور وأبعاده إلى مدينة رودوستو<sup>(١)</sup> لمدة عامين ( ٤٨ ، ص ٢١٨ - ٢٢٣ ) . ومن المحتمل تماماً أن يكون لنفي خسرو باشا علاقة مباشرة بالصراع الذي احتدم داخل الحكومة بين مؤيدي المفاوضات المباشرة مع محمد علي وبين معارضيها . وفي الوقت نفسه قام عملاء إنجلترا بإمداد السوريين بالسلح وساعدوهم على توسيع التمرد على محمد علي ( ٦٢ ، ص ١٧٨ ، ٩٧ ، ص ١٠١ ، ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٣٩٧ ) . وقد أدى هذا الأمر أيضاً إلى عرقلة المفاوضات المباشرة بين محمد علي وبين السلطان وجعل من احتفاظ الباشا المصري بسوريا أمراً صعباً .

ولما كانت فرنسا هي صاحبة المبادرة في إجراء المفاوضات المباشرة ، وهو ما قامت به على نحو سرى ، انطلاقاً من رغبتها في مساعدة مصر ، فقد توصلت الدول

١- رودوستو ( تكفور داجى أو تكيرداج ) - مدينة وميناء تقع في الجزء الأوروبي من تركيا في منطقة فراكيا على البحر الأسود ، مركز الصنّجق الذي يحمل نفس الاسم وصنّجق فيز في أيلة أدرنة ( ١٧٩ ، ص ٧٠ ) .



الأخرى إلى القرار التالي: الإسراع بإعلان الحرب على محمد علي إذا رفض قبول شروط الصلح وذلك منعاً لإمكانية قيام المفاوضات الثنائية المباشرة ، العمل بشكل جماعي مع استبعاد فرنسا . وقد تم تسجيل هذه القرارات في إتفاقية لندن التي وقع عليها في ١٥ يوليو ١٨٤٠ كل من إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ( انظر ٣٤ ، المجلد ١٢ ، ص ١٣٠ - ١٤١ / ٤٠ ، ج١ ، ص ٦٨٩ - ٦٩٧ ، ٤٣ ، ص ٣٠٥ - ٣١٤ ، ٤٣ ، ج٢ ، ص ٤١٧ ، ٤٨ ، ص ٣٣١ - ٣٣٥ ، وللإطلاع على تحليل الإتفاقية والوثائق الخاصة بها انظر ٦٣ ، ص ١٢٦ ) .

كان بالمرستون على يقين أن فرنسا لن تشعل نيران الحرب ضد الدول الأوروبية المتحالفة وأنها ستكتفي بإطلاق صيحات الإنذار .

### إخماد انتفاضة محمد علي

تعهدت الدول الأوروبية المتحالفة ، طبقاً لإتفاقية لندن ١٨٤٠ ، باستخدام الإجراءات الضرورية لإرغام محمد علي على قبول الشروط التي تم عرضها عليه . وبذلك أصبح باستطاعة السلطان قبول مساعدة إنجلترا والنمسا في البحر المتوسط في حالة عدم امتثال محمد علي ، كما أصبح بإمكانه طلب ما يشاء من قوات من الحلفاء بقدر حاجته ، إذا ما وجه محمد علي قوات برية بإتجاه إسطنبول . وقد اشتملت إتفاقية لندن على قرار يتعلق بإغلاق المضائق أمام السفن الحربية للدول الأجنبية<sup>(١)</sup> . وقد وردت فقرة بهذا المعنى في معاهدة أونكيار إيسكيليسى أيضاً ، لكن مسئولية الحفاظ على هذا القرار أصبحت الآن على عاتق الدول الكبرى ( ٣ ، ص ٢١١ ، انظر أيضاً ٩٠ ، ص ٢٢٣ ، ١١٦ ، ص ٢٣٩ ) . كانت روسيا وراء قبول قاعدة إغلاق المضائق ، التي وافق عليها الباب العالي . في تلك الفترة كان هذا القرار يتفق ومصالح الباب العالي ، إذ أنه وفر له الحماية ، بدرجة معلومة ، من العدوان المحتمل ( ٢٠٣ ، ص ١٩ ، ٢٠٨ ، ص ٢٠٩ ) .

بعد الإتفاق الخاص بوسائل إخضاع محمد علي ، تم توقيع معاهدة ( وضعها السلطان ) طرح فيها شروط إخضاع محمد علي له . اتفق السلطان على إعطاء محمد علي وأحفاده إدارة مصر بصفته والياً ، وحق حكم عكا وجنوب سوريا مدى الحياة .

١- حاول الباب العالي بعد مرور ثلاثين عاماً إلغاء الوصاية على المضائق ، " حتى يصبح سيد بيته " ( انظر ١٢٢ ، ص ٢٢٨ ) .

فإذا لم يوافق محمد علي على قبول هذه الشروط خلال عشرة أيام من إبلاغه بقرار المؤتمر ، يمتنع السلطان عن إعطائه حكم عكا مدى الحياة ، فإذا تأخر محمد علي عشرة أيام أخرى فإن السلطان لا يترك له عندئذ سوى مصر ليحكمها هو وورثته . وعلى محمد علي ، خلال المهلة المحددة ( ٢٠ يوماً ) ، أن يعيد أسطول السلطان ، وأن يصدر هو والمفوض التركي أمراً إلى قواته البرية والبحرية للإنسحاب من الأراضي التي احتلها محمد علي .

كان من المفترض أن تحدد الجزية السنوية تبعاً للمناطق التي سيؤول حكمها إلى محمد علي ، كما كان من الضروري أن تطبق المعاهدات وقوانين الإمبراطورية العثمانية على هذه المناطق ، وأن يمارس محمد علي سلطاته باسم السلطان بشرط دفع الجزية ، وأن تصبح القوات البرية والبحرية التي يمتلكها محمد علي جزءاً من القوات المسلحة للإمبراطورية العثمانية ( أنظر ٣٦ ، المجلد ١٢ ، ص ١٣٠ - ١٤١ / ٤٠ ، ج ١ ، ص ٦٨٩ - ٦٩٧ / ٤٢ ، ص ٢٥ - ٣١٤ / ٤٣ ، المجلد ٢ ، ص ٤١٧ / ٤٨ ، ص ٣٣١ ، ٣٣٥ / ٦٣ ، ص ٢٦ ) .

يتضح لنا من مقارنة شروط إخضاع محمد علي للسلطان والتي تم إقرارها في مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ بشروط الإخضاع ، التي طرحها الباب العالي في الفترة من ١٨٣٢ وحتى ١٨٣٣ أنها متطابقة تقريباً . ومن البديهي أن مبادرة طرح هذه الشروط في عام ١٨٤٠ قد جاءت على يد الباب العالي ، الذي سعى عام ١٨٣٢ و ١٨٣٣ لنقل حرية التصرف في الأسطول والجيش والمهمات الحربية لمصر إلى إسطنبول ، ولكي لا تتجاوز صلاحية محمد علي حدود الأراضي التابعة له ، وحتى تظل مصر خاضعة للوائح وقوانين الباب العالي . بالإضافة إلى ذلك فقد أراد الباب العالي أن يدير قلاع مصر: الاسكندرية وغيرها ، قادة معينين من قبل الباب العالي ، كما كان متبعاً من قبل . جدير بالذكر أن السفير التركي نامق باشا كان مفوضاً عامي ١٨٣٢ و ١٨٣٣ بالاعتراض بشكل حاسم على إعلان محمد علي السلطة على مصر له ولأحفاده من بعده ( ١٩٩ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ) .

وخلافاً للأعراف الدبلوماسية المتبعة فقد شرعت الدول في تنفيذ الإتفاقية دون انتظار لاعتمادها ( ٨٤ ، المجلد ٤ ، ص ٢٤٦ ) ، ومما دفع بها لاتخاذ إجراءات حاسمة في هذا الصدد ، التهديد القائم بدخول الباب العالي ومحمد علي في مفاوضات مباشرة .

لقد كان توقيع معاهدة لندن عام ١٨٤٠ دون مشاركة فرنسا بمثابة " واترلو دبلوماسية " لها ، حتى أن الصحف الفرنسية راحت تهدد إنجلترا بالحرب ( ١٠٠ ، ص ٧١ ) .

فى الخامس من أغسطس عام ١٨٤٠ أعلن مصطفى رشيد موافقة الباب العالى الكاملة لقرارات معاهدة لندن . وفى نفس الشهر توجه صادق رفعت أفندى مستشار وزارة الخارجية إلى مصر لإعلان واليها باسم السلطان بالقرارات التى تم اتخاذها فى لندن . وفى محاولة منه لكسب أفضل الشروط ، لم يتقدم محمد على بالرد فى الموعد المحدد ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، ٦٣ ، ص ١٤٦ ) ، معتقداً أن فرنسا سوف تدخل الحرب إلى جانبه ومالبث أن أعلن حالة الحصار على الساحل السورى . وفى منتصف أغسطس أعلن شيخ الإسلام فى إجتماع موسع لمجلس الدولة أن محمداً علياً يستحق أشد العقاب . لقد تقرر " ضرورة تنفيذ المعاهدة الموقعة مع الحلفاء ، وأنه لا بديل عن ذلك . وأن كل من يطعن أو يعارض ذلك سوف يعاقب على الفور " ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، انظر أيضاً ٤٨ ، ص ٣٣٥ ، ٢٢٩ ) .

إن هذه الصياغة المتمثلة فى ضرورة البدء فى الأعمال العسكرية ضد محمد على فى اتحاد يضم قوات الدول الأوروبية المتحالفة ، إنما يشير إلى أن الباب العالى اعتبر قبول مساعدة الدول المتحالفة بالذات أمراً غير مرغوب فيه ، بعد أن تحقق التحالف الثنائى بين إنجلترا وتركيا . على أى الأحوال فقد اضطرت حكومة السلطان للاستسلام لهذا الأمر وقبول السير فى هذا الطريق . وكما ذكرنا من قبل ، فإن الباب العالى لم يعد باستطاعته أن يدخل فى صراع ضد محمد على معتمداً على قواه الذاتية بعد الخسائر التى تكبدها فى الجيش والأسطول ، وبعد موت السلطان الدؤوب محمود الثانى . كانت إنجلترا تنهز من الحرب إلى جانب السلطان وهو ما أفقد الباب العالى أيضاً إمكانية العمل استناداً إلى الاتفاق الثنائى بين إنجلترا وتركيا الذى نجح فى التوصل إليه بعد عدة سنوات .

من المحتمل أن يكون للقرار الذى ذكرناه آنفاً ، والذى اتخذته حكومة السلطان بشأن ضرورة تنفيذ المعاهدة مع الحلفاء ظلال أخرى . إن الطعن فى هذا القرار ومقاومته كان من الممكن أن يأتيا ، سواء من جانب المؤيدين للمفاوضات المباشرة بين محمد على ، أو من جانب المسلمين المتعصبين عموماً . لقد قابل بعض المسلمين هذا التعاون من جانب " الكفار " بالسخرية ، بل أنهم سخروا أيضاً من الاتجاه المعادى لمحمد على " المؤمن " ( انظر على سبيل المثال ٢٧ ، ص ١١١ - ١١٢ ، ١٢٤ ، ج١ ، ص ١٥٠ ، ١٧٣ ، ١٣٢ ، ص ٤٢٨ ) .

وفى إسطنبول ناقش مصطفى رشيد الوضع الذى تخلف عن هذا القرار مع سفراء الدول المتحالفة وفى المجلس الإستشارى للباب العالى المجتمع فى مقر إقامة شيخ الإسلام . وقد اعترف المشاركون فى الإجتماع أن محمداً علياً لم يلتزم بموعد

الامتنثال وأقروا عزله . أصدرت حكومة السلطان قرارا بنقل حاكم مصر مؤقتا ، على نحو رمزي ، لعزت باشا حاكم عكا ، وكان من المفترض ، بناء على قرارات اجتماع لندن ، ضرب الحصار على الشواطئ المصرية بعد شهر من تسلم محمد علي شروط المعاهدة ، وذلك في حالة رفضه لهذه الشروط ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، ٦٣ ، ص ١٤٦ ) ، وذلك بالجهود المشتركة لأساطيل إنجلترا والنمسا . وقد أبلغ مصطفى رشيد سفارات الدول المعنية علماً باقتراح بدء الحصار ( ٤٨ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٨ ) .

ولما كان قناصل الدول الأوروبية ما يزالون يواصلون اتصالاتهم بمحمد علي في الإسكندرية ، فقد أحاطهم مصطفى رشيد علماً بموعد بدء إجراءات التأديب ضد محمد علي واعتبر أن وجودهم أصبح غير ذي ضرورة ، واقترح على السفارات استدعاء قناصلها من المدينة . وقد تلقى سفراء الدول الأوروبية الأربعة في إسطنبول إخطاراً من مصطفى رشيد يعلمهم فيه بعزل محمد علي من منصب الوالي وبدء حصار الشواطئ المصرية والسورية وأسباب اتخاذ هذه القرارات ( ٤٨ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ) . وقد وصلت إخطارات مماثلة إلى سفراء الدول الأوروبية في إسطنبول<sup>(١)</sup> ، وكذلك جرى إبلاغ محمد علي بقرار السلطان عزله من منصبه عن طريق القائم بالأعمال الذي جاء على باخرة يرافقها الأسطول الإنجليزي ، وهي نفس الباخرة التي غادرت الإسكندرية وعلى متنها قناصل الدول المتحالفة .

وسرعان ما ضرب الأسطولين الإنجليزي والفرنسي المتحدين الحصار على الشاطئ السوري . أما فرنسا التي كانت راغبة عن الدخول في حرب ضد الدول المتحالفة فقد سحبت أسطولها من البحر المتوسط .

في الحادي عشر من سبتمبر عام ١٨٤٠ أمطر الكومودور ش. نيبير<sup>(٢)</sup> بيروت بقنابله وأنزل قواته شمالها . وفي لبنان اشتدت انتفاضة السكان ضد محمد علي وسرعان ما شملت سوريا وفلسطين بأكملهما ، وقد قام الإنجليز والنمسيون بتوزيع السلاح والمال على سكان الجبال ( ١٢٩ ، ص ٦٣ ، ٨٣ ) .

وفي أكتوبر لقي جيش محمد علي هزيمة منكرة قرب بيروت . وفي هذا الوقت

١- جميع الإخطارات المذكورة التي أرسلت للسفراء في إسطنبول وإلى السفارات في الخارج والقناصل في الإسكندرية منشورة في صحيفة " تقويم فيكاي " المؤرخة ٧ سبتمبر ١٨٤٠ ( ٤٨ ، ص ٣٤١ ) .

٢- قاد تشارلز نيبير أسطول البحر المتوسط الإنجليزي عام ١٨٣٩ على قدم المساواة مع الأدميرال ستوبفورد .

تقدم مترنيخ باقتراح إعادة حقوق محمد علي في حكم مصر . وأيدته في هذا الاقتراح روسيا ، التي كانت تخشى من تصاعد قوة إنجلترا في الشرق الأوسط . وفي الخامس عشر من أكتوبر عام ١٨٤٠ وجه بالمرستون ، أمام ضغط الحلفاء ، تعليمات جديدة إلى بونسونبي يقترح عليه فيها أن يوصى الباب العالي إعادة محمد علي للسلطة بشرط إعلان الطاعة وإعادته أسطول السلطان وسحب قواته من سوريا وعدن وكريت والمدن المقدسة " .

وقد أرسلت قيادة الحلفاء الكومودور نيبير إلى الاسكندرية لإبلاغ محمد علي بالقرار الجديد ( ٦٣ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ) . وفي منتصف نوفمبر توجه نيبير إلى الاسكندرية لإجبار محمد علي على الخضوع لقرارات مؤتمر لندن ١٨٤٠ ، بعد أن يقدم له وعداً لحكم مصر حكماً وراثياً . وفي السابع والعشرين من نوفمبر وقع محمد علي على الاتفاق الذي اقترح عليه وأرسل خطاباً إلى السلطان يعرب فيه عن ولائه له .

لم يكن الباب العالي راضياً عن القرار المستقل الذي اتخذته نيبير ، فبدلاً من أن يقوم هذا بإبلاغ محمد علي ، إذ به يأخذ على عاتقه مسئولية توقيع محمد علي على الاتفاق ( ٤٨ ، ص ٣٦٣ ) ، فقد كان الباب العالي يأمل في إقصاء محمد علي نهائياً لأنه تجاوز الموعد الذي حددته قرارات إتفاقية لندن ١٨٤٠ . وفي الثامن من ديسمبر أرسل شكيب أفندي إلى سفراء الدول المتحالفة في لندن مذكرة السلطان بشأن رفض السلطان تقديم حق حكم محمد علي لمصر وراثياً . وعندما كان الساحل السوري في ديسمبر من عام ١٨٤٠ مليئاً بقوات الحلفاء ، واصل جيش السلطان هجومه ، بينما ظل الباب العالي على رفضه توقيع معاهدة صلح مع محمد علي .

كان بالمرستون غير راضٍ أيضاً عن التصرفات التي قام بها نيبير دون إذن ، واتخذ قراراً بعدم التسرع في إعطاء محمد علي الحكم الوراثة نظراً للنجاحات التي كان الحلفاء يحرزونها في سوريا . وقد قام بالمرستون بإرسال خطاب إلى بونسونبي جاء فيه: " ليس هناك أحد على وجه العموم ، باستثناء السلطان ، بإمكانه إعطاء مثل هذه الضمانات " ( الاستشهاد من المرجع ٦٣ ، ص ١٥٥ ) . وقد طرح الباب العالي على سفراء الدول المتحالفة القرار النهائي لمناقشته . لم تكن حكومة السلطان تثق في إخلاص محمد علي ، ولهذا راحت تعول على مساعدة الحلفاء في صياغة شروط لإخضاع محمد علي وحرمانه من الاستقلال الحقيقي ، وقد تعزله حتى من منصبه .

## اجتماعات إسطنبول

في ديسمبر من عام ١٨٤٠ بدأت في إسطنبول اجتماعات ممثلي الحكومة العثمانية مع سفراء أوروبا تحت رئاسة مصطفى رشيد لدراسة شروط إخضاع محمد علي للسلطان ( ٤٨ ، ص ٣٤٣ ) .

تؤكد محاضر الاجتماعات وغيرها من الوثائق التي نشرها د. كاينار أن الثقة التامة قد سادت العلاقات بين وزير خارجية تركيا والسفير الإنجليزي (٤٨ ، ص ٣٢٣). كان موقف بونسونبي أثناء المباحثات متشدداً للغاية تجاه محمد علي ، حتى أن مصطفى رشيد والباب العالي اضطرا للبحث إلى حلول معتدلة تجنباً لإثارة سخط باقي المشاركين في هذه الاجتماعات ، وهم سفراء النمسا وبروسيا وروسيا ( ٤٨ ، ص ٣٥٠ - ٣٦٣ ) .

كان أهم سؤال ناقشه السفراء في اجتماعهم هو ما إذا كان من الممكن أن يصبح محمداً علياً أهلاً للثقة . في البداية كان مصطفى رشيد ومعه السفير الإنجليزي يتخذان من هذا الأمر موقفاً سلبياً ، أي أنهما كانا يعتزمان عزل محمد علي من منصب والي مصر . على أن الضغط الذي مارسه المشاركون الآخرون في الاجتماع إلى جانب المناخ الدولي بصورة أساسية قد اضطرها إلى تغيير عزمهما . وقد أعرب السفير النمساوي عن خوفه من أن يؤدي اتخاذ موقف متشدد تجاه محمد علي إلى تجدد الاشتباكات العسكرية . ونتيجة لذلك فقد قرر السفير أن يؤيد رأى السفير الإنجليزي - أيما ما كان هذا الرأي - فيما يتعلق بأهم قضية ، ألا وهي السماح بالحكم الوراثة لمحمد علي ( ٤٨ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٩ ) . وكان سفراء كل من روسيا والنمسا قد أعربا عن عدم رغبتهما في تصعيد الموقف .

تمت مناقشة محضر اجتماع السفراء الأوروبيين الأربعة في اجتماع مجلس وزراء الإمبراطورية العثمانية حيث تقرر طرح الثقة في محمد علي وذلك حتى لا يحدث خلاف على الموافقة الجماعية وإهدار ما تم التوصل إليه من نتائج . وقد تمت الإشارة في محضر الاجتماع إلى أن لورد بالمرستون يرى أن تكون هناك ثقة في محمد علي وإعلان ولائه ، على أن إعطاء محمد علي حكم مصر وراثياً ينبغي أن تصاحبه بعض الشروط المفيدة للإمبراطورية العثمانية " ( ٤٨ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ) .

وقد تم إرسال مفوضين أتراك إلى مصر يحملون إلى محمد علي إخطاراً بشأن القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء ، وعلى الفور قام محمد علي في ١١ يناير ١٨٤١ ( ١٢٤ ، ج ٢ ، ص ٤٩ ) بإعادة أسطول السلطان الذي كان موجوداً في مصر منذ



الرابع من يوليو ١٨٣٩ ، كما أرسل خطاباً جديداً يعرب فيه عن إخلاصه لحكومة السلطان . وقد أبلغ محمد علي الموظفين الموجودين في الأراضي التي أعيدت إلى السلطان ( في سوريا وكيليكيا والجزيرة العربية وكريت ) كتابة ولائه لحكومة السلطان وكان من نتائج ذلك تحرير المناطق بناء على طلب السلطان ( ٤٨ ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ) . وفي الثلاثين من يناير عام ١٨٤١ تقدمت الدول المتحالفة مرة أخرى إلى السلطان باقتراح إعادة محمد علي إلى منصبه وإلى مصر ( ٥٣ ، المجلد ٦ ، ص ١٢٠ ، ٦٣ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ) ، في محاولة لتفادي اندلاع الحرب مع فرنسا .

أما المسألة الثانية والتي جرت مناقشتها في اجتماع السفراء الأوروبيين والتي طرحت بعد تسليم محمد علي الأسطول للسلطان ، فقد كانت تتعلق بشروط إعطاء محمد علي الحق في حكم مصر وراثياً . وقد أصر بونسونبي على أن تكون هناك شروط صارمة مصاحبة لحق الحكم الوراثة من شأنها أن تخضع محمداً علياً خضوعاً كاملاً للباب العالي . وذكر بونسونبي أن المال قد أتاح لمحمد علي أن يعلو علواً كبيراً لدرجة أن إخضاعه تطلب جهداً عظيماً وأريقته من أجله دماء كثيرة . ولهذا فإن من المستحيل أن توضع في حوزته مرة أخرى ثروات ليس له حق فيها . وأكد السفير الإنجليزي أن معاهدة الدول المتحالفة قد أجبرت محمداً علياً على حل النزاع سلمياً وإن كان يفضل عليه الحرب . وقد اضطر الآن بعد هزيمته أن يخضع للسلطان دون أي شروط . كان بونسونبي يأمل أن تكبل هذه الشروط الصارمة من سلطة محمد علي ، فإذا ما رفض الانصياع لها فإن من الضروري عندئذ حرمانه من السلطة نهائياً .

حظت قيمة الجزية التي كان على مصر دفعها للباب العالي وكذلك وسيلة جبايتها باهتمام كبير إبان المفاوضات . وقد أشار بونسونبي إلى أن محمداً علياً كان يحصل سنوياً على ٢٥٠ ٨٢٧ ١٢ فرنكاً سنوياً ( ما يعادل ١٠٠ ألف كيس ) من جراء ابتزازه غير الشرعي لأموال المصريين ، وحتى يتم حرمانه من هذه العائدات اقترح بونسونبي إجبار محمد علي على تنفيذ بنود إتفاقية ١٨٣٨ التجارية ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى إلغاء نظام الاحتكار في مصر ، وهو المصدر الرئيسي لثروة محمد علي . وأوصى بونسونبي بأن يتم تحصيل الضرائب عن طريق الدفتردار وموظفي حكومة الباب العالي ( ٤٨ ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٢٧٨ ) . واقترح أيضاً تخفيض عدد القوات المصرية وحرمان محمد علي من حق تعيين كبار الضباط في الجيش ، ليجعل من المستحيل عليه مستقبلاً تجديد أعماله العدوانية ضد السلطان ( ٤٨ ، ص ٣٦٤ ) . في فبراير عام ١٨٤١ وصلت المفاوضات إلى ذروتها ، وأشار السفراء خلالها إلى ضرورة تحديد مبلغ معين للجزية ( ٤٨ ، ص ٣٧٢ ) ، وقد كان من المقرر مناقشة هذا القرار في مجلس وزراء الإمبراطورية العثمانية واعتماده من السلطان .

تردد مصطفى رشيد في اتخاذ قرار نهائي في هذا الشأن ، إذ تنبأ بأن محمداً علياً لن يقبل بحرمانه من حق التصرف في أموال مصر ، وعندئذ لن تكون لدى الباب العالي أى إمكانية على إجباره على الدفع دون مساعدة من الدول الأوروبية ، الأمر الذي يتوقف برمته على تنفيذ بنود معاهدة لندن ١٨٤٠ .

وقد لخص مصطفى رشيد شكوكه في التقرير الذي رفعه للسلطان في فبراير ١٨٤١ ( ٤٨ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٩ ) حيث كتب يقول : إن رأى بونسونبى بشأن إرسال دفتر دار الباب العالي إلى مصر ، أمر قد لا يوافق عليه السفراء الآخرون ، وإن تنفيذ هذا البند سوف يواجه بصعوبات جمة . ولا كان مصطفى رشيد يرى أن رفض اقتراح بونسونبى قد ييلو مجافياً للنوق ، فقد اقترح أن ترفق وزارة الخارجية في ردها تفسيراً مفاده أن " اقتراح السفير الإنجليزي مفيد ، ولكنه يستند بلا شك على حسن النية فقط " ، أما نص المعاهدة التي عقدت في لندن ، فقد اشتمل بوضوح على أن إدارة الشؤون المالية لمصر أمر من اختصاص محمد علي ، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال للإصرار على القرار الآخر للباب العالي . على أنه إذا اكتشف السفير الإنجليزي بنفسه مع مرور الوقت أموراً مواتية بالنسبة لاقتراحه ، منها أن يرفض محمد علي الإقرار بالمعاهدة المعقودة ، أو إذا ما نجح هو في إقناع السفراء الثلاثة الآخرين بإقتراحه ، أو لو ظهرت لدى الباب العالي إدعاءات ما ضد مصر في هذا الصدد ، فإن الباب العالي عندئذ سوف يستغل اقتراح بونسونبى . وأشار مصطفى رشيد إلى أن توقف حل المسألة عند شكل جباية الجزية من مصر من شأنه أن يعرقل قضية التسوية بأكملها .

وفي وقت لاحق أعلن مصطفى رشيد وجهة نظر السفير النمساوى شتيورمر . وكان الأخير قد أكد أن السلام الذي جاء الآن على أسنة الرماح يهدد الجميع ، وأن فرنسا لن تضع سلاحها ما دامت شروط تسوية الأزمة لم تعلن بالكامل ، إن البطء في التوصل إلى حل لبعض الشروط لا يعنى - في رأى شتيورمر - الإسراع في حل المشكلة بأسرها ، فهناك احتمال أن لا ترضى فرنسا عن القرارات التي ستتخذ مستقبلاً وأشار شتيورمر أيضاً إلى أنه ما لم تعلن الشروط الناقصة رسمياً باسم السلطان ، وما لم تنسحب قوات الدول المتحالفة ، البرية والبحرية ، من سوريا ، فإن من المتوقع أن تظهر بعض الصعوبات في إجبار باشا مصر على قبول الشروط التي تم إعدادها .

وقد أعلن مصطفى رشيد أيضاً أن السفارة الروسية تؤكد أن البطء في قضية التسوية أمر خطير - وأكد السفير التركي أن هناك في النهاية رأيان: السفير الإنجليزي بونسونبى ويقف إلى جانب البطء والتروى ، وسفراء النمسا وروسيا وبروسيا

وهؤلاء يناصرون اتخاذ قرار سريع ، إن مسئولية إجبار محمد علي على قبول دفتر دار الباب العالي تقع على كاهل إنجلترا وحدها ، إذ أن الدول الأخرى قد تنحت عنها . أما فرنسا فما تزال شاكية السلاح ، مستعدة لدخول الحرب ، وما تزال تسعى لإرغام إنجلترا على وضع هذا الأمر في اعتبارها . كما أن استعراض القوى أمام محمد علي لم يعد أمراً مقبولاً .

وفي الختام يقترح مصطفى رشيد البقاء على الشكل القديم لجباية الجزية طوال حياة محمد علي . كما يقترح كذلك تحديد مبلغ معلوم للجزية يتم دفعه لمدة خمسة أعوام بانتهائها يتقرر من جديد النظر في الأمر وتحديد قيمة الجزية التي تتناسب عندئذ والقدرة المالية لمصر . افترض مصطفى رشيد أن تكون القيمة السنوية للجزية طبقاً للدخل ١٠٠ ألف كيس . ولما كان مصطفى رشيد يدرك أن المبلغ يمكن أن يكون مبالغاً فيه ومن ثم يتعرض للتخفيض ، فقد رأى ألا يتم ذكره في فرمان السلطان . أما إذا تمت الموافقة فيكتب في التعليمات " وكما توقع مصطفى رشيد فقد طالب محمد علي بتخفيض الجزية التي تحددت في البداية بثمانين ألف كيس ( ٤٨ ، ص ٣٨٠ ) " .

وقد حدد مصطفى رشيد العدد الضروري للقوات في مصر بثمانية عشر ألف فرد . وكتب مصطفى رشيد يقول إن هذه الوحدات سوف تخدم في مصر ويمكن للباب العالي استدعائها إذا ما دعت الحاجة ، ويتولى السرعسكر مراقبة هذه الوحدات .

كان تأخر صدور القرار النهائي الخاص بالصراع المصري يعرقل انضمام فرنسا إلى المعاهدة الأوروبية المشتركة ، على الرغم من أن فرنسا أعربت عن استعدادها للتوقيع على المعاهدة الخاصة بالمضايق ، وذلك بعد تقاعد رئيس وزراءها تيسير في أكتوبر عام ١٨٤٠ . ولهذا السبب تجددت في لندن في يناير ١٨٤١ اجتماعات الدول الكبرى بخصوص المسألة الشرقية ( وعلى مستوى يفوق مستوى اجتماعات إسطنبول ) ، وقد توصلت الدول المشاركة إلى رأى موحد فيما يخص القضايا الجدلية حول حكم مصر<sup>(١)</sup> . آنذاك كان شكيب أفندي يمثل تركيا في لندن .

انتهت المفاوضات في التاسع والعشرين من مارس ١٨٤١ ، وبمقتضى خطى شريف السلطان قدم محمد علي عدداً من التنازلات: تحدد انتقال السلطة بالوراثة لأكبر الذكور ، يحق لمحمد علي تعيين الضباط حتى رتبة العقيد ، تحددت قيمة مبلغ الجزية بالإتفاق الثنائي . وتبعاً لشهادة د. ج. روزين بلغت الجزية ٣٠ مليون قرشاً أى ما يعادل ٤٠ ألف كيس ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ٥٠ ) . وهو نفس المبلغ الذي ذكره إ. ب.

١- لمزيد من التفاصيل حول اتفاقية لندن الثانية ١٨٤١ انظر ( ٦٣ ، ص ١٥٩ - ١٨٧ ) .

شابوليو ( ١٢٣ ، ص ٨٩ ) . بينما أورد إ. كارامورسال رقماً آخر هو ٦٠ ألف كيس . وهو ما يمثل ربع إجمالي عائدات مصر ( ٢١٢ ، ص ١٧٣ ) .

أعلن محمد علي نفسه والياً عن السلطان وأصبح حاكماً على مصر فقط ، وقام بإعادة المناطق الأخرى . تقلص جيشه إلى ١٨ ألف جندي يخضعون للسلطة العليا للباب العالي . أصبح للسلطان حق تعيين الرتب العسكرية العليا ولم يعد محمد علي يملك حق بناء السفن الحربية .

## نتائج نشاط الدبلوماسية العثمانية في فترة الصراع

على هذا النحو ونتيجة للصراع الدبلوماسي الممتد ( الذي كانت الحرب التي خاضها جيش الحلفاء ضد محمد علي من ١٨٤٠ إلى ١٨٤١ امتداداً لها ) انتهى الصراع التركي المصري بانتصار السلطان . لم يكن لهزيمة جيش السلطان على يد قوات محمد علي ( في يونيو ١٨٣٩ ) أي انعكاس على نتائج القرارات الدبلوماسية . لقد حصل محمد علي على حق الوراثة لأسرته في حكم مصر ، ولكن بالشروط التي عرضها عليه السلطان عدة مرات من قبل ورفضها محمد علي في حينه . بقيت مصر في نطاق الإمبراطورية العثمانية ، لكن حدود سلطة الحكم الذاتي لها تقلصت بشكل ملحوظ .

كان دور الدبلوماسية التركية في فترة الصراع الذي امتد عدة سنوات من أجل الوصول إلى هذا الحل بوراً بارزاً . كان هناك اتجاهين داخل الحكومة ، الأول وهو لم يدرس بعد دراسة كافية ، وكان يميل إلى التحالف مع روسيا ويرتبط بمعاهدة أونكيار إيسكيليسى . وكان أشهر ممثليه خسرو باشا وأحمد فوزي باشا وعاكف باشا .

لقد أتاح التحالف الروسي التركي دعم الوضع الراهن في العلاقات مع محمد علي وهياً الفرصة للمفاوضات المباشرة معه . من المحتمل أن يكون أنصار التوجه الروسي قد عولوا على مساعدة أكثر فعالية من جانب روسيا ، وحيث إن روسيا لم تقدم هذه المساعدة ، سواء بسبب معارضة دول أوروبا الغربية ، أو بسبب عدم اهتمامها بتقوية الإمبراطورية العثمانية ، فقد نجح خصوم التوجه الروسي في الانتصار على أنصار هذا التوجه .

كان مصطفى رشيد هو الروح الملهمة للاتجاه الثاني داخل حكومة السلطان ، وهذا الاتجاه هو الذي اختار التوجه الإنجليزي ، ونجح أنصاره في عقد التحالف

الإنجليزى التركى الذى أخذ منحى هجومياً ضد محمد على ، كما نجح فى تحييد فرنسا ( أو أضعف من تأييدها لمحمد على ) ، ثم رفض التوجه الروسى بداية من النصف الثانى للثلاثينيات . لقد وقفت الإلتزامات الدبلوماسية لإنجلترا ، إلى جانب معارضة كل من فرنسا وروسيا ، حائلاً فى طريق قيام التحالف الإنجليزى التركى ، ولهذا لم يكن من السهل على الدبلوماسية التركية أن تنجز المهام التى وضعتها أمامها .

إن كون الباب العالى على امتداد الثلاثينيات لم يستجب لرغبة دول أوروبا الغربية ، ولم يعقد معها معاهدة جماعية على غرار معاهدة أونكيار إيسكيليسى ، قد شدد من المنافسة بين هذه الدول وبين روسيا ، مما أدى فى النهاية إلى إعادة النظر فى معاهدة كوتاهية .

لقد كان من نتائج العلاقات الودية القائمة بين الباب العالى وروسيا ، وهى العلاقات التى كانت تثير قلق أوروبا الغربية ، أن دفعت إنجلترا إلى تأييد السلطان ضد محمد على بشكل أكثر فعالية مما قامت به روسيا . أما موقف فرنسا السلبى من معاهدة أونكيار إيسكيليسى فلم يسمح لها بمساعدة مساعى محمد على فى الحصول على الاستقلال .

وعلى الرغم من أن إنجلترا بدءاً من النصف الثانى من الثلاثينيات كانت قد حزمت أمرها على تأييد السلطان ، لا محمد على ، فقد كان على الدبلوماسية التركية أن تبذل جهوداً جبارة لإنشاء علاقة ثقة بين الدولتين وأن توعد بإنجلترا أن مساعدتها للسلطان سوف تحقق لها ما ترجوه من فائدة . وكان سبيل تركيا لتحقيق ذلك هو التنازل لصالح التجارة الإنجليزية عام ١٨٣٨ ، ورفض طلب المساعدة من روسيا .

لقد نجحت الدبلوماسية التركية فى تحييد فرنسا فى الصراع التركى المصرى مستغلة فى ذلك التناقضات الفرنسية الروسية والفرنسية الإنجليزية . فقد استطاع الدبلوماسيون الأتراك إبان المباحثات التى جرت فى كل من لندن وإسطنبول فى الفترة من ١٨٣٩ وحتى ١٨٤١ وعن طريق علاقاتهم بإنجلترا الوقوف ضد المطالب الفرنسية المؤيدة لمزاعم محمد على . وفى اللحظة الحاسمة التى قمع التحالف الأوروبى فيها قوات محمد على عام ١٨٤٠ ، اضطرت فرنسا للتخلى عن دعم مصر عسكرياً . وقد أسهمت سياسات محمد على الداخلية والخارجية أيضاً فى هزيمته . كان محمد على ينتهج سياسة إصلاحية تعسفية لصالح الطبقة الإجتماعية الجديدة . وفى السياسة الخارجية أقترن الصراع ضد السيادة التركية والسياسة الإستعمارية للدول الأوروبية مع النزعات التوسعية . " لم ينجح محمد على فى إقامة علاقات ودية مع السكان المحليين " سواء فى الجزيرة العربية أو فى السودان أو سوريا ( ١٠٨ ، ص ١٨٦ )

على أن انتصار السلطان على محمد علي لم يكن انتصاراً كاملاً ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أنه تحقق بمساعدة حلفاء ، وهو ما يؤكد الضعف الداخلي للدولة .

وبعد أن أقرت الدول الأوروبية بأسرها معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، قامت كل من إنجلترا وبروسيا وروسيا وفرنسا والإمبراطورية العثمانية بتوقيع معاهدة لندن بشأن المضائق وذلك في ١٣ يوليو عام ١٨٤١ . وفي هذه المعاهدة " قررت دول أوروبا بالإجماع ، بناء على دعم السلطان ، الاعتراف بالقانون القديم للإمبراطورية العثمانية الذي يقضى بإغلاق مضيقى الدردنيل والبوسفور أمام السفن الحربية الأجنبية ، ما دام الباب العالي في حالة سلام " .

على الرغم من أن وجود ضمانات للوحدة ، يعد في حد ذاته دليلاً على ضعف الدولة التي وضعت من أجلها الضمانات ، وهي ضمانات لم تكن معلنة صراحة ، لكنها نالت اعترافاً رسمياً واعتبرت قاعدة تسترشد بها الدول الأوروبية ( ١١٦ ، ص ٢٤٢ ، انظر أيضاً ١٦٩ ، ص ٤٥٩ ) .

لم يكن وضع الإمبراطورية العثمانية بعد توقيع معاهدة لندن بشأن المضائق وضعاً متيناً ، فالإمبراطورية لم يكن بمقدورها ، اعتماداً على قواها الذاتية وحدها ، حماية أراضيها .

إضافة إلى ذلك فإن نشاط الدبلوماسية التركية في فترة الصراع التركي المصري يمكن اعتباره نشاطاً حالفه النجاح ، إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن نتائجه تناسبت والإمكانات الحقيقية للدولة .



## الفصل السادس

### العلاقات التركية اليونانية

ما أن انتهت الأزمة التركية المصرية ، حتى ظهرت أمام الحكومة العثمانية مشكلات جديدة تتعلق بعلاقاتها الدولية . .

فى الواحد والثلاثين من مارس عام ١٨٤١ تم عزل مصطفى رشيد باشا من السلطة ، وهو الذى كان مثابة " روح الإدارة " إبان فترة تسوية الأزمة ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ٣٢ ) . وتعدد المصادر التى ذكرناها آنفاً أسباباً مختلفة لعزله . لكن الذى لا شك فيه أن السبب الرئيسى يتلخص فى أن السلطان والمقربون منه رأوا ، بعد حل المشكلة المصرية ، أن من الممكن السير قدماً دون الإستناد إلى شخصية لها كل هذا الثقل فى الدوائر الدبلوماسية ، شخصية مصطفى رشيد ، المبادر والقائد الأعلى لسياسة الإصلاحات ، التى بدأ بها منذ عام ١٨٣٩ عصر جديد ، والذى جعل الدخول الفعال للبلاد فى النظام الرأسمالى الدولى الهدف الموضوعى لهذه الإصلاحات .

ومن الجائز أن يكون عدم ترحيب مترنيخ بالمباحثات الطويلة التى امتدت بين مصطفى رشيد وسفراء الدول الأوروبية فى إسطنبول ، بشأن شروط التسوية التركية المصرية ، واحداً من مبررات تقاعد رشيد ، كما أشارت إلى ذلك كثير من المراجع التاريخية ( ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٤١٣ / ٢٠٢ ، ص ١٣ / ٢٠٣ ، ص ١٦ / ٢٠٧ ، ص ٧٠٢ / ٤٨ ، ص ٢ ، ٢٣٨ - ٣٨٣ ) . وقد يرجع الأمر إلى الخلاف الذى وقع عند مناقشة القانون التجارى الجديد والذى رأى فيه بعض أعضاء المجلس ما يخالف الشريعة الإسلامية ( ١١٠ ، ص ١٢٨ / ١٥١ ، ص ٢٠١ ) .

وفى يوليو عام ١٨٤١ يعود مصطفى رشيد إلى نشاطه الدبلوماسى بعد أن تم تعيينه سفيراً فى باريس . وقد ظل يشغل هذا المنصب ( بإستثناء فترة قصيرة من عام ١٨٤٣ ) حتى نهاية عام ١٨٤٥ . ويتبين لنا بالرجوع إلى التعليمات الدبلوماسية التى أصدرتها إليه حكومة السلطان ( ٤٨ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ، ٤٩٢ ) إلى أى حد كان مصطفى رشيد مطلعاً على المشكلات الداخلية والخارجية للإمبراطورية العثمانية ، وكذلك

على كل ما يخص الشؤون الأوروبية ، حتى أنه لم يكن بحاجة إطلاقاً لأي تعليمات مفصلة . وكان التوجه الرئيسى لنشاطه مجدداً يبذل جهده ، باعتباره سفيراً ، لبعث وتقوية التحالف الإنجليزى الفرنسى ، بعد ما لوحظ أن بعض الخلافات قد دبّت بين إنجلترا وفرنسا منذ فترة حول عدد من قضايا السياسة الدولية ( تمت الإشارة إلى هذه الخلافات فى التعليمات ) وأن هذه الخلافات شديدة الضرر على الامبراطورية العثمانية .

ويلى الحديث عن مضمون هذا الجانب من التعليمات فى سياق الخلافات التى وقعت منذ فترة غير بعيدة بين إنجلترا وفرنسا بسبب الصراع التركى المصرى ، والمخاوف التى انتابت الباب العالى من جراء حدوث تقارب سواء بين إنجلترا وروسيا ، أو بين روسيا وفرنسا .

ويتعلق الجانب الآخر من التعليمات التيارات المتحمسة التى سادت فرنسا آنذاك ، ويتناول هذا الجانب كيف أن بعض الفرنسيين رأوا ضرورة تخليص الرعايا المسيحيين من سلطات الإمبراطورية العثمانية، وكيف أنشئت فى باريس جمعية خاصة لتحقيق هذا الغرض ، وأن بعض أعضاء هذه الجمعية يشغلون مقاعد فى البرلمان الفرنسى . بل إن جمعية أخرى قد أنشئت فى لندن على غرارها . وقد صدرت الأوامر إلى السفير أن يتولى متابعة نشاط هاتين الجمعيتين ، وأن يعمل جاهداً على الحيلولة دون امتداد أثرها الضار على الإمبراطورية العثمانية إذا ما نجحتا فى استعداد الرأى العام الأوروبى على الإمبراطورية العثمانية .

وأشارت التعليمات بعد ذلك إلى أن إخماد انتفاضة كريت<sup>(١)</sup> كان من أسباب يقظة العقول فى اليونان ، وأن شائعات ذاعت تقول إن إجراءات يتم اتخاذها لتشجيع المتمردين اليونانيين فى الإمبراطورية العثمانية .

وهكذا نرى أن مضمون هذه الوثيقة ( التعليمات ) يشير إلى أن هناك قضيتين كانتا تثيران قلق الباب العالى بعد تسوية الصراع التركى المصرى وهما: الحفاظ على متانة الرابطة بين إنجلترا وفرنسا باعتبارهما عنصر توازن فى مواجهة التحالف القائم بين النمسا وروسيا وبروسيا ، ثم الخلافات التركية اليونانية ( ٢٠٢ ، ص ١٤١ ) إضافة إلى موقف فرنسا من القضيتين .

١- لم تتم الإشارة إلى تاريخ هذه الإنتفاضة . ويبدو أن الحديث هنا كان يدور حول إنتفاضة سكان كريت التى وقعت فى عام ١٨٤١ ، وكان السبب وراءها نقل إدارة الجزيرة من محمد على إلى الباب العالى . وقد طالب سكان الجزيرة اليونانيين ، الذين شاركوا فى النضال من أجل استقلال اليونان الانضمام إلى اليونان ( أنظر ١٢٤ ، ج٢ ، ص ٥٣ - ٥٥ ) .

في عام ١٨٣٤ فرضت قضية العلاقات الدبلوماسية بين الإمبراطورية العثمانية واليونان نفسها على سياسة الدول الكبرى قريبة الصلة بالخلافات التركية اليونانية (١٢٤ ، ج١ ، ص ٢١٧ - ٢٢٣) . وفي فترة النشاط الدبلوماسي لمصطفى رشيد في باريس من عام ١٨٤١ وحتى ١٨٤٥ ، لوحظت نفس الإتجاهات التي شاهدنا مثلها إبان الصراع التركي المصري ، فقد قامت الدول الأوروبية بدور كبير لفرض سياسة مناوئة لروسيا في اليونان ، وقد تجاوز هذا الدور التنافس بين هذه الدول بعضها ضد بعض .

لقد كانت التناقضات القائمة بين الدول الكبرى تتيح للدبلوماسية التركية أن تمارس ضغوطاً على محاولات الدولة اليونانية الفتية ضم الأراضي المأهولة بالسكان اليونانيين والتي ظلت ضمن نطاق الإمبراطورية العثمانية .

وقد سارعت الحكومة التركية أيضاً إلى إجراء مناورات سياسية محدودة فعلى سبيل المثال ، تحاشى الباب العالي الصراعات التي من شأنها أن تؤدي إلى خلافات حادة بينه وبين فرنسا ( على الرغم من اعتراضه على سياسة فرنسا في تونس ) ، وذلك بهدف المحافظة على تأييد فرنسا له في صراعه ضد اليونان في أربعينيات القرن التاسع عشر (٤٨ ، ص ٥٢٨ - ٥٣٣ ، ٥٣٧ ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، ٥٤٣) .

نجحت الدبلوماسية التركية أثناء صراعها مع اليونان في أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر في الحفاظ على الحدود الإقليمية الفاصلة بين البلاد آنذاك .

كانت فرنسا تؤيد اليونان ولكن بحماس يقل كثيراً عن تأييدها لمحمد علي ، ومن الواضح أن فرنسا لم تكن تعتزم مد اليونان بأى دعم عسكري أو تسمح بنشوب حرب بين تركيا واليونان<sup>(١)</sup> . وفي اليونان ذاتها ظهرت تيارات قوية مؤيدة لفرنسا . وبعد انتفاضة الثورة في اليونان عام ١٨٤٣ " أنتصر أصحاب التوجه الفرنسي على أصحاب التوجه الإنجليزي بفضل رفعهم لراية الهلينية " ( ١٣٢ ، ص ٥٦٥ ) . واعتبرت حكومة نيكولاي الأول أن " الموجة الثورية قد ارتفعت في اليونان وأنها سوف تطيح بالنظام القائم للدولة ... إنها مؤامرة يمكنها أن تضرم النيران في الشرق بأسره " ( ١٣ ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ )<sup>(٢)</sup> . ولهذا فقد توقفت تماماً عن تأييد الطموحات اليونانية .

تشير التقارير الدبلوماسية التي رفعها مصطفى رشيد من باريس في الفترة من

١- وقفت القوات العسكرية لدول أوروبا الغربية ، بما فيها فرنسا ، ضد رغبة اليونان في استغلال حرب القرم الدائرة آنذاك لتوسيع أراضيها .

٢- يؤكد س. س. ، تاتيشيف في كتابه " السياسة الخارجية للإمبراطور نيكولاي الأول " " أن الإنقلاب الذي حدث في أثينا ليلة الثالث من سبتمبر عام ١٨٤٣ أخرج اليونان نهائياً من دائرة نفوذنا " ( ١٣٢ ، ص ٥٦٤ ) .

١٨٤١ وحتى ١٨٤٥ إلى أن الحكومة الفرنسية سعت إلى إجراء مصالحة بين الأتراك واليونانيين ، عن طريق إقناع الأتراك بأن الجمعيات ذات التوجه القومي في اليونان لا تلقى تأييداً من جانب الحكومة اليونانية . وفي الأيام الأولى من وصوله إلى باريس في نوفمبر عام ١٨٤١ ، أجرى مصطفى رشيد مباحثات مع وزير الخارجية الفرنسي ف. جيزو حول مشكلات العلاقات التركية اليونانية . طلبت تركيا من اليونان تعويضات مقابل بقاء الأوقاف التي ظلت باقية فوق الأراضي اليونانية ، وتتمثل في العقارات التي كان يمتلكها مواطنون أتراك انتقلوا للعيش في مناطق أخرى من الإمبراطورية . وقد أبلغ جيزو نظيره التركي أن فرنسا سوف تعترف في هذه الحالة بالحقوق التركية . ومن الأمور التي أثارت الخلافات أيضاً ، شروط إتفاقية التجارة التركية اليونانية التي كانت المباحثات بشأن عقدها تدور آنذاك ، وقيام اليونان بإثارة انتفاضة سكان جزيرة كريت من اليونانيين وغيرهم في الأقاليم الأخرى للإمبراطورية العثمانية ، وهو ما كان يسبب قلقاً للإمبراطورية .

ترجع الخلافات حول الإتفاقية التجارية إلى أن اليونان طالبت الحكومة التركية بإعطاء اليونانيين الذين يعيشون في الإمبراطورية العثمانية نفس المزايا التي يتمتع بها رعايا الدول الأوروبية الأخرى . وفي الوقت نفسه طالبت اليونان باحتفاظ عمالها من أصحاب الحرف العاملين في الإمبراطورية العثمانية بإمكانية استخدام الورش الموجودة . لكن الباب العالي لم يوافق على ذلك . كان حجم اليونانيين الذين يعيشون في الإمبراطورية ويعدون رعايا يونانيين كبيراً للغاية ، وكانت الموافقة على الشروط المذكورة تعني إمكانية خلق مستوطنات يونانية مستقلة على أراضي الإمبراطورية وهو ما كان يشكل مصدراً لقلق حكومة السلطان . من ناحية أخرى فإن موافقة السلطان ، كان من الممكن أن تقنع اليونانيين " الخونة " ( من وجهة نظر الباب العالي ) في وضع أفضل مقارنة باليونانيين الذين احتفظوا بجنسيتهم العثمانية ( ١٢٤ ، ج١ - ص ٢٢١ - ٢٢٣ ، ج٢ ، ص ١١٢ - ١٢٠ / ٤٨ ، ص ٤٩٨ - ٥٠٠ ) .

بدأت المفاوضات حول شروط المعاهدة التجارية بين تركيا واليونان وكذلك بشأن رفع التعويضات مقابل الأملاك التي تركها الأتراك في الثلاثينيات واستمرت حتى الأربعينيات ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ ، ج٢ ، ص ١١٢ - ١٢٠ ، ٤٨ ، ص ٤٩٢ - ٥٠٠ ) ، وقد قام أ. مافروكورداتو ، الذي عين في الثامن عشر من فبراير عام ١٨٤٢ سفيراً لليونان لدى إسطنبول<sup>(١)</sup> بدور هام في هذه المفاوضات ( ٤٨ ، ص ٤٩٧ )

١- الكسندر مافروكورداتو ( ١٧٩١ - ١٨٦٥ ) - من أبرز المشاركين في الثورة اليونانية . شغل منذ عام ١٨٣٢ منصب نائب رئيس المجلس الوطني ، كما شغل منصب الوزير عدة مرات وكان مفوضاً لدى كل من ميونيخ وبرلين ولندن وإسطنبول وباريس . وفي عام ١٨٥٤ ترأس الحكومة اليونانية .

، وقد نجح كانينج سفير إنجلترا لدى تركيا في التوفيق بين اليونان والباب العالي . وقد اعتبر لويس فيليب الأول ملك فرنسا ومعه جيزو وزير خارجيته ، أن عقد الإتفاقية التجارية بين الدولتين يتفق ومصالح فرنسا ( ٤٨ ، ص ٤٩٨ - ٥٠٠ ) . وقد حاول لويس فيليب في حديث له مع مصطفى رشيد في أبريل عام ١٨٤٢ استمالة السفير التركي لتقديم بعض التنازلات بخصوص مسألة وضع الأتراك في الإمبراطورية العثمانية ( ٤٨ ، ص ٢٩٨ ) .

على أن الدولتين لم ينجحا في تجاوز الخلافات بينهما في هذا الشأن ، ومن ثم لم تعقد الإتفاقية التجارية بين اليونان وتركيا .

وفي ديسمبر عام ١٨٤١ أكد جيزو لمصطفى رشيد أن الدول الكبرى لا تؤيد مساعي اليونان في توسيع حدودها ( ٤٨ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ) . على أن مصطفى رشيد ، الذي كان على دراية بالمنافسة المحتدمة بين هذه الدول على اليونان ، ظل على مخاوفه في أن لا يدوم هذا الإتفاق . ولهذا فقد استمر يتابع باهتمام سياسة فرنسا تجاه هذه القضية .

يذكر مصطفى رشيد في التقرير الذي رفعه إلى الباب العالي والمؤرخ يناير ١٨٤٢ ، أن أياً من الدول الكبرى ، التي تسعى للتوصل إلى تسوية سلمية للصراعات الدولية ، لا تفكر في الوقت الراهن في عقد تحالف مع اليونان فالأخيرة تقع الآن تحت وصاية مشتركة لثلاث دول ( روسيا وفرنسا وإنجلترا ) ، وأن أي علاقة أكثر قرباً يمكن أن تنشأ بين إحدى هذه الدول وبين اليونان ، ربما تشعل المنافسة لدى الدول الأخرى ، وهو ما قد يشكل سبباً لمزيد من الخلافات السياسية ( ٤٨ ، ص ٤٩٥ ) .

وفي عام ١٨٤٢ ساءت من جديد العلاقات التركية اليونانية . فقد تبين أن هناك عضوين منتخبين في البرلمان اليوناني تعود أصولهم إلى جزيرة بيسار Ebsare ، التي ما تزال خاضعة للإمبراطورية وبناء على هذه الحقيقة قامت الحكومة اليونانية بإدخال تعديلات على مواد القانون اليوناني تسمح بانتخاب اليونانيين ، الذين يعيشون على أراضي الإمبراطورية العثمانية ، للبرلمان اليوناني . وقد اعتبر الباب العالي هذه الإجراءات إدعاء من اليونان في أراضي بيسار ( ٤٨ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٤ ) ورأت ضرورة إتخاذ إجراءات مناسبة . أرسل الباب العالي بالتعليمات اللازمة لسفراءه لدى لندن وباريس . وقد أعرب كوستاكي السفير التركي لدى اليونان عن احتجاجه على الحكومة اليونانية ، وسلم نسخة من الإحتجاج إلى سفراء كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا لدى أثينا . وقام السفراء الأتراك لدى لندن وباريس بإجراء المباحثات الضرورية مع وزراء خارجية هذه الدول ( ٤٨ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ ) . وفي فبراير

١٨٤٤ وعد جيزو مصطفى رشيد توجيه تعليماته إلى بيكاتورى السفير الفرنسى لدى اليونان تفيد بالآ يسمح بقيام تحركات من جانب الحكومة اليونانية تكون موجهة ضد الإمبراطورية العثمانية ( ٤٨ ، ص ٥٠٣ - ٥٠٤ ) .

ونتيجة للجهود الدبلوماسية التى بذلها ممثلو الدول سالفة الذكر ألغى التعديل الخاص بالسماح بانتخاب سكان الأراضى الخاضعة للإمبراطورية العثمانية للبرلمان اليونانى من مشروع الدستور اليونانى ، وتم الاحتفاظ بها على هيئة " سند " ، وقد كان هذا الموقف مبرراً لاتدلاع الخلافات بين اليونان وتركيا أكثر من مرة<sup>(١)</sup> ( ٤٨ ، ص ٥٠٥ ) .

كان نشاط جمعية " إتيريا " <sup>(٢)</sup> فى اليونان يقض مضاجع الباب العالى . وقد تلقى مصطفى رشيد تعليمات تقضى بأن يستوضح سراً موقف الحكومة الفرنسية من نشاط هذه الجمعية . وفى رده على الباب العالى المؤرخ ٢٨ مارس ١٨٤٤ أفاد مصطفى رشيد أن فرنسا وإنجلترا كانا يؤكدان يوماً نياتهما لتأييد وحدة وحياد الإمبراطورية العثمانية ، وإن لم يتمكن تماماً من أن يستوضح بشكل محدد نياتهم المبيتة . كان مصطفى رشيد نفسه يعتبر أن اليونانيين ، بفضل تاريخهم القديم وثقافتهم ، يتفقون بشكل كامل مع الأوروبيين فى وجهات النظر وفى العقيدة وفى مبادئ الإدارة الداخلية على وجه الخصوص ولم يكن لديه أدنى شك فى أن الإنجليز والفرنسيين سوف يتعاطفون مع اليونانيين . على أن آمال فرنسا وإنجلترا كانت تواجه صعوبات تمثلت فى موقف روسيا المعادى للخطوات اليونانية الأخيرة وفى إتفاق وجهات نظر النمسا وبروسيا مع وجهات نظر روسيا بشأنها . علاوة على ذلك كانت فرنسا وإنجلترا مشغولتين بمشكلاتهما الداخلية ، كما أنهما كانتا تنتهجان سياسة تجنبهما نشوب أى تدهور فى الأوضاع الخارجية . ويشير مصطفى رشيد إلى أن من الصعوبة تصور أن تكون لدى الدولتين أى طموحات تجاه اليونان فى المستقبل القريب . على أنه إذا اندلعت الانتفاضات فى الأيالات العثمانية المجاورة لليونان ، أو فى جزر البحر المتوسط ، التى كانت تدخل ضمن نطاق الإمبراطورية العثمانية ، فإن وزيرى خارجية

١- استغل السكان اليونانيين من مختلف أجزاء الإمبراطورية العثمانية إمكانية إيفاد نواب لهم لتمثيلهم فى البرلمان اليونانى وذلك كنوع من إظهار الإرادة فى انتمائهم لليونان ( انظر: الموسوعة التاريخية السوفيتية ، المجلد ٤ ، ص ٧٥٨ - ٧٥٩ ) .

٢- فى الأربعينيات سادت فى أوساط الجمعيات السياسية اليونانية فكرة إقامة إمبراطورية بيزنطية عن طريق التآصيل المستمر للعناصر اليونانية فى الإمبراطورية العثمانية وتحويلها إلى إمبراطورية عثمانية يونانية مع التوجه نحو تغليب العنصر اليونانى تدريجياً على حساب العنصر التركى ( ٢٠٩ ، ص ٨٠ - ٨٢ / انظر أيضاً ١٣٩ ، ص ٨٠ ) .



فرنسا وإنجلترا ربما يضطران ، تحت ضغط الرأي العام ، لإعلان تأييدهما لليونان ولو ظاهرياً ( ٤٨ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ ) .

أولى مصطفى رشيد ، بتكليف من حكومة السلطان ، اهتماماً أكبر لنشاط الجمعيات ذات النزعة الهلينية في فرنسا وإنجلترا وسعى لاستيضاح علاقات الحكومات الأوروبية بها . لقد أتاح الحديث الذي دار بين السفير التركي وبين جيزو في هذا الصدد ( ٤٨ ، ص ٥١٣ ) والقلق الذي أبدته روسيا من جراء إنشاء هذه الجمعيات تهديّة مخاوف الحكومة التركية ، حيث أكد جيزو أن هذه الجمعيات لا تشكل في الوقت الحالي أي خطر حقيقي على الإمبراطورية ( ٤٨ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ ) .

وفي عام ١٨٤٤ ترأس كوليتيس الحكومة اليونانية ، وكان معروفاً بتأييده للتوجهات الفرنسية ، مما دفع الباب العالي لمخاطبة فرنسا تحديداً بطلب توفير ضمانات لحصانة أراضي الإمبراطورية العثمانية . وفي تقريره المؤرخ ١٧ سبتمبر ١٨٤٤ يعود مصطفى رشيد مرة أخرى لينبه أن الحكومة الفرنسية ، شأنها في ذلك شأن الدول الكبرى الأخرى ، وعدت بالألا تسمح بالتوسع في حدود اليونان ، لا عن طريق الحرب ، ولا عن طريق الانتفاضات ، وأنها أحاطت الحكومة اليونانية علماً بذلك ( ٤٨ ، ص ٥١٥ - ٥١٦ ) .

كان مترنيخ قد اقترح ضم النمسا وبروسيا إلى تحالف الدول الثلاث الضامنة ، وتوقيع معاهدة تجمع بين الدول الخمس الكبرى بهدف الحفاظ على حدود ثابتة لليونان ( ٤٨ ، ص ٥١٦ ) . استحسنّت روسيا هذه الفكرة ، بينما وقفت منها إنجلترا وفرنسا موقفاً سلبياً . رفضت فرنسا الاقتراح النمساوي ؛ إذ رأت أن مثل هذه الضمانات ( وهو ما أوضحه سفير النمسا لدى فرنسا لمصطفى رشيد في يناير ١٨٤٥ ) يمكن أن تقلل من شأن التأثير الفرنسي في اليونان . وقد أعطى مصطفى رشيد أهمية فائقة لتصريحات الدول الكبرى فيما يتعلق بضمانات الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، إذ كان من شأن هذه التصريحات ، من جهة نظره ، أن تساهم في فرض طاعة السلطان على اليونانيين الذي يعيشون على أراضي الإمبراطورية .

وفي مايو ١٨٤٥ أوجز الباب العالي محصلة تقارير السفراء الأتراك لدى إنجلترا وفرنسا عن اليونان وتوصل إلى استنتاج مفاده أن ثلاث دول تؤيد الإمبراطورية العثمانية في نزاعها مع اليونان . وقد تعرض التقرير الذي رفع إلى السلطان إلى أن وزارة خارجية الإمبراطورية العثمانية والسفراء الأتراك لدى العواصم الأوروبية طالبوا بحظر نشاط الجمعيات اليونانية في لندن وباريس ، وأن سفارات الدول الراحية تؤيد هذه المطالب ( ٤٨ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٤ ) .

وأشارت التقارير أيضاً إلى أن كانينج السفير الإنجليزي لدى إسطنبول " يحدوه الأمل في إبلاغ الباب العالي بأفضل النيات وتصرفات حكومته تجاه الإمبراطورية العثمانية " ، عرض على وزارة خارجية الإمبراطورية العثمانية سراً تعليمات لورد أبردين ، التي قدمت للسفير الإنجليزي لدى أثينا . وتؤكد هذه الوثيقة الموقف الإنجليزي الراض للمشروعات اليونانية الخاصة بالتوسع في أراضيها . وأكد كانينج أن الدول الأوروبية الأخرى اتفقت بالإجماع على هذه المسألة مع إنجلترا ( ٤٨ ، ص ٥٢٦ ) .

وفي يناير عام ١٨٤٧ ، وكان مصطفى رشيد ما يزال يشغل منصب رئيس الحكومة التركية ، وقع صدام حاد بين الإمبراطورية العثمانية واليونان ، كان من نتيجته قطع العلاقات الدبلوماسية ، وكان السبب وراء هذا الصدام هو الإهانة التي تعرض لها موسوروس السفير التركي لدى أثينا ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١١٧ ، ١٣٢ ، ص ٦١٣ ، ٢١٣ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ) . وقد تدخلت الدول الأوروبية أيضاً في هذا الصدام ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١١٨ - ١٢٠ ) ، وكانت هذه الدول " متفقة فيما بينها على أمر واحد ، وهو بالتحديد رغبتها في منع وقوع حرب تركية يونانية ، كانت ، في رأيهم ، مقدمة لوقوع حرب بين إنجلترا وفرنسا ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١١٩ ) .

اتخذ الباب العالي بقيادة مصطفى رشيد باشا موقفاً متشدداً أثناء هذا الصدام ، وأحرز فيه انتصاراً دبلوماسياً واضحاً . وقد تحقق للباب العالي ما أراد فتم الاعتذار للسفير ، ويؤكد د. ج. روزين أن هذا الانتصار الدبلوماسي الذي حققته حكومة السلطان قد زاد من احترام الدوائر الدبلوماسية الأوروبية لها ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١٢١ ) .

لقد أتاح التنافس الدائر بين الدول الكبرى ، وخاصة التوجه السياسي للدول الغربية المناهض لروسيا ، أتاح للإمبراطورية العثمانية أن تستغل هذه العوامل لحل خلافاتها مع اليونان ، ورأت فيها ركائز للتأثير الدبلوماسي ولتحقيق النتائج المرجوة .

لقد كان طموح الشعب اليوناني لإعادة وحدته ، ظاهرة تقدمية من الناحية التاريخية ، على الرغم من النزعات الهلينية القومية التي شاركته فيها البورجوازية اليونانية . ولهذا فإن من الضروري النظر إلى سياسة الباب العالي والدول الأوروبية المؤيدة له في هذه القضية باعتبارها محاولة لوقف مسيرة التطور التاريخي .

## الفصل السابع

### المشكلة الجزائرية في السياسة الخارجية العثمانية

ذكرنا آنفاً أن مصطفى رشيد باشا سفير تركيا لدى باريس ، قد تم تكليفه ببدء المفاوضات مع حكومة فرنسا حول سحب قواتها من الجزائر . وكان الباب العالي يعلق آماله على وعد بذلته فرنسا ، وهو الوعد الذي ورد قبل ذلك في المذكرة التي سلمها له السفير الفرنسي في إسطنبول جيليمينو في عام ١٨٣٠ على أثر احتلال فرنسا للجزائر .

ويحتفظ أرشيف الدولة المركزي في إسطنبول بتعليمات دبلوماسية ( غير محدد بها المرسل إليه على وجه الدقة ) ، من الواضح أنها صدرت قبل تعيين مصطفى رشيد سفيراً لدى فرنسا ، جاء فيها : " حيث إن هناك نيات طيبة ثنائية<sup>(١)</sup> لتحرير الجزائر من أيدي الدولة الغربية ، فمن الضروري تعيين وإرسال شخص ما من دولتنا على وجه السرعة لبحث وسائل تحقيق هذا الهدف "<sup>(٢)</sup> . ( الاستشهاد من المرجع ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٩ ، حاشية رقم ٢ ) .

من الملاحظ أن جميع التقارير الدبلوماسية ذكرت مصطفى رشيد باعتباره الشخصية الرسمية المكلفة بالاتصال بشأن الجزائر ( ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٩ ) . وهو ما يعني أنه تسلم - بطبيعة الحال - تعليمات شبيهة بالتى أوردناها سابقاً .

ولما كانت سنوات أربع قد مضت منذ احتلال فرنسا للجزائر ، فإن الباب العالي كان يخشى أن ترفض فرنسا الدخول معه في مفاوضات بشأن هذه القضية . وقد أكد هذه المخاوف ما أعلنه سفير فرنسا في إسطنبول روسين عن عدم ارتياحه تجاه عزم الأتراك البدء في المفاوضات بشأن الجزائر ( ٢١٥ ، ص ٣٦ ) .

١- المقصود هنا بالثنائية ، على ما يظهر ، النية التركية الجزائرية .

٢- يفترض ج. بايسون ( صاحب الاستشهاد المأخوذ من التعليمات ) . أن هذه التعليمات كانت موجهة إلى مصطفى رشيد تحديداً ( انظر ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٩ ، الملاحظة ٢ ) . ويؤكد على هذا الرأي أيضاً مؤرخ تركي آخر هو إ. كوران ( انظر ٢١٥ ، ص ٣٥ ) .

لهذا السبب اتسمت مهمة السفير التركي بالسرية ، وقام مصطفى رشيد بالتمهيد لهذه المهمة بشكل جاد حتى يتسنى له أن يحصل على موافقة الحكومة الفرنسية على قبول مذكرة الحكومة التركية الرسمية بشأن المسألة الجزائرية . كان تسليم المذكرة يمثل - من وجهة نظر الباب العالي وكما تدل على ذلك التقارير الدبلوماسية لمصطفى رشيد - الخطوة الأولى التي ينبغي أن تتلوها خطوات أخرى . لقد كان بنية حكومة السلطان أن تصر مستقبلاً على مطلبها بإعادة الجزائر إلى كيان الإمبراطورية ، كما كانت تأمل أن تؤيدها كل من إنجلترا وروسيا والنمسا في هذا المطلب .

في مطلع عام ١٨٣٣ قدم اللورد جراي رئيس وزراء إنجلترا وعداً للسفير التركي نامق باشا ( الذي كان قد وصل لطلب المساعدة من إنجلترا في مسألة انتفاضة محمد علي ) ، مفاده أن إنجلترا سوف تضع المسألة الجزائرية على جدول أعمالها بمجرد أن تنتهي من حل مشكلاتها السياسية الخارجية التي لا تحتل التأجيل مع البرتغال وبلجيكا ، وفي الوقت نفسه يكون الباب العالي قد اتخذ خطوات نحو إنهاء مشكلته مع مصر . وقد صرح السفير التركي أن رئيس وزراء إنجلترا قد أعلن خلال مباحثاته معه: " أن المشكلة الجزائرية سوف تؤدي في المستقبل إلى نشوب الحرب ضد فرنسا " ( ١٩٩ ، ٢٤٧ ) .

ويشير المؤرخون الأتراك إلى أن مصطفى رشيد في الثلاثينيات قد بالغ بعض الشيء في تقديره لثقل إنجلترا في السياسة الدولية . فقد رأى أن جميع القضايا السياسية ، بما فيها الخلافات التركية الفرنسية ، لا تحل إلا عن طريق هذه الدولة بشكل أساسي ( ٤٨ ، ص ٨٣ ، ٢٠٢ ، ص ٧ ) . مع أنه لو تذكر أن لويس فيليب في بداية توليه الحكم رأى أن من الضروري وقف غزو الجزائر ، الذي كان كارل العاشر قد بدأه لتوه ، لتهدة إنجلترا " وأن " الحكومة الفرنسية أعلنت صراحة في عام ١٨٣٤ ، بعد تغلبها على التأثير الإنجليزي عليها ، عن رغبتها في إخضاع الجزائر بأكملها لسلطانها " ( ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٣٦٦ ) ، لكان من المحتمل أن تصبح حساباته بالنسبة لتلقى الدعم من إنجلترا في المسألة الجزائرية نون مبرر .

كان مصطفى رشيد يعول أيضاً على التعاون الدبلوماسي مع النمسا ، بعد أن تلقى وعداً من البارون أوتينفيلس سكرتير مترنيخ ، في مقابلة أجراها معه في فيينا في سبتمبر عام ١٨٣٤ ، بأن يقوم سفير النمسا في باريس بمساعدته ، على الرغم من أن أوتينفيلس أكد له على المصاعب التي ستواجه الباب العالي في حل المشكلة الجزائرية ( ٤٥ ، العدد ١ ، ص ٣٥ ) .

توفر لنا تقارير مصطفى رشيد الأساس لنؤكد أن سفير روسيا في باريس

بوتسو دي بوجو قد قدم له المساعدة في صورة مشورة .

ومن العوامل المؤثرة أيضاً والتي دفعت الباب العالي لطرح المسألة الجزائرية في عام ١٨٣٤ ، العريضة التي رفعها حمدان أفندي السكرتير السابق لبאי الجزائر ، الذي خلعه الفرنسيون ، للسلطان محمود الثاني في ١٨ يوليو عام ١٨٣٣ . يشكو حمدان أفندي في عريضته مما يقاسيه الشعب الجزائري منذ احتلال الفرنسيين للجزائر ويطلب المساعدة ويقترح اتخاذ بعض الإجراءات التي تستهدف تحرير البلاد ومن بينها: تعيين باشا تركي في الجزائر ، قد يستطيع إنشاء ديوان من المواطنين أصحاب الشأن الرفيع ، كما يقترح توحيد جهود باشوات الجزائر وتونس وطرابلس ، مما قد يسمح بتكوين جيش قوامه ما بين ٤٠ إلى ٥٠ ألف جندي يقفون في مواجهة الفرنسيين<sup>(١)</sup>. وقد كتب حمدان أفندي عريضته بعلم من باي مدينة قسطنطينية ( الجزائرية ) الحاج أحمد ، وأوصى بتعيين الأخير في منصب باشا تركيا في الجزائر . وجاء في العريضة أن أحمد بك قد جمع حوله بالفعل قوات عسكرية ، أخذت أعمالها في إزعاج الجيش الفرنسي المحتل .

وكان لهذه العريضة أثر بالغ على محمود الثاني . فقد قرر السلطان الإسراع باتخاذ الإجراءات اللازمة لتحرير الجزائر ، لكنه رأى أن العمل بالطرق الدبلوماسية هو المتاح فقط في الوقت الحالي ( ٢٠١ ، ٢١٥ ، ص ٤٤ - ٤٥ ) . لم يكن السلطان راغباً في قطع العلاقات الفرنسية التركية التي أصبحت ضرورية للوصول إلى حل ناجح لمشكلة أخرى أكثر أهمية بالنسبة له ، ألا وهي الصراع التركي المصري . كان السلطان يجهز قواته العسكرية بحمية بالغة للدخول في حرب ضد محمد علي . وكان يرى أنه ليس في مقدوره الدخول في حربين أحدهما ضد فرنسا والأخرى ضد الباشا المصري . وكان الباب العالي يأمل ألا تؤيد فرنسا محمداً علياً بأي قوات عسكرية في حالة دخول الأخير حرباً ضد السلطان .

فور وصوله إلى باريس قام مصطفى رشيد بالاتصال بحمدان أفندي وشخص آخر من طرابلس يدعى حسون الداغس ليتسنى له الاستفادة من معرفتهما بالوضع في الجزائر ، وحتى يكون باستطاعته استخدام هذه المعرفة إبان مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية ( ٢١٥ ، ص ٣٩ ) .

كان حمدان أفندي ينتمي إلى طائفة العلماء ، وكان رجلاً طاعناً في السن . وقد جاء إلى باريس في مطلع شهر أكتوبر عام ١٨٣٤ لعلمه بحضور السفير التركي كما

١- لم يساند الباب العالي الحركة الثورية للشعب الجزائري التي قادها الأمير عبد القادر عن هذه الحركة انظر ( ١٤٤ ) .

اتضح ، وفي باريس جرت اللقاءات بينه وبين مصطفى رشيد ، لكنهما اتفقا على استمرار الاتصالات بينهما كتابة وألا يلتقيا إلا عند الضرورة القصوى تجنباً لغضب السلطات الفرنسية ( ٤٥ ، العدد ٢ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ) .

بدأ مصطفى رشيد مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية في ديسمبر عام ١٨٣٤ ، أي بعد وصوله إلى باريس بثلاثة أشهر . وطوال هذه الفترة كان مصطفى رشيد يستعد لها ، وهو ما يمكن الاستدلال عليه من خلال تقاريره الدبلوماسية أثناء تلك الفترة . أجرى مصطفى رشيد عدداً من المشاورات مع سفيرى روسيا والنمسا ، وتبادل الرسائل مع نامق باشا سفير تركيا لدى لندن . وفي منتصف شهر نوفمبر عام ١٨٣٤ أبلغ مصطفى رشيد الباب العالي بالتحذير الذى تلقاه من نامق باشا والذى يفيد أن المباحثات بشأن الجزائر يمكن أن تضر بالقضية المصرية ، وأن لندن ، كما أخبر بالمرستون السفير التركى لديها ، لا يمكنها أن تقدم للباب العالي أى دعم فى هذه المباحثات ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٦ ) . على أن هذه المعلومات التى قدمها نامق باشا لم تثبط من عزم مصطفى رشيد ( ٤٨ ، ص ٦٦ ) . وبعد شهر واحد تغير المزاج فى العاصمة الإنجليزية ، وأبلغ نامق باشا مصطفى رشيد فى باريس بتجدد الأمل فى أن تقوم وزارة الدوق ويلنجتون ، التى كانت قد حلت لقوها محل الحكومة الإنجليزية السابقة بتأييد الجانب التركى فى مباحثاته مع فرنسا بشأن الجزائر ( ٤٥ ، العدد ٦ ، ص ٤٣٦ ) . وحيث أنه قد سارت شائعات تقول إن ويلنجتون لن يستمر فى السلطة أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر ، فإن من الضرورى عدم إضاعة الوقت ( ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٤ - ٤٥ ) .

وهناك سبب آخر يفسر لنا عدم شروع مصطفى رشيد فى الدخول فى المفاوضات بشأن الجزائر فور وصوله إلى باريس . ففي ربيع عام ١٨٣٤ ، أعلن محمد على والى مصر قناصل الدول الأوروبية عن عزمه إعلان الاستقلال ، الأمر الذى كان من الممكن أن يؤدى حتماً إلى دخول السلطان فى حرب ضد محمد على ، وبالتالي تدخل الدول الأوروبية فى الصراع التركى المصرى . وقد طلبت حكومتى كل من إنجلترا وفرنسا من محمد على التخلّى عن عزمه وتلقّتا منه رداً فى ديسمبر من العام المذكور . ولم تكن العلاقات مع مصر تسمح لمصطفى رشيد أن يبدأ مفاوضاته بشأن الجزائر قبل أن يعرف رد محمد على .

تحاشى نامق باشا فى خطابه المؤرخ ١٦ ديسمبر أى ذكر للتقلبات الأخيرة ( ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٤ - ٤٥ ) . لقد انتهت المشاورات التى أجراها السفير التركى مع سفيرى روسيا والنمسا فى باريس بأن أيد الأخيران فى ديسمبر ١٨٣٤ رأى مصطفى رشيد فى أن الوقت قد حان لعقد المفاوضات ( ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٥ - ٤٦ ) . وكان



مصطفى رشيد قد كتب قبل ذلك في الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٤ إلى إسطنبول يخبرها بأن الصحف الفرنسية مليئة بالأخبار عن الإصلاحات التي تجريها فرنسا في الجزائر ، ولهذا فإن سكوت السفير التركي يمكن أن يفسر هنا بأنه موافقة ضمنية على الاحتلال وعلى ما تفعله الإدارة الفرنسية . وكان من رأى السفير أن من الضروري أن يعلن باسم حكومته عن القضية الجزائرية ( ٤٨ ، ص ٦٦ ) . وقد أشار سفيراً كل من روسيا والنمسا على مصطفى رشيد بأن يقوم بتسليم مذكرة رسمية إلى وزير خارجية فرنسا ، فعندها ستضطر فرنسا إلى الرد عليها رسمياً ، وهو ما يمكن أن يكون مفيداً في المستقبل ( ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٦ ) . وفي ١٦ ديسمبر عام ١٨٣٤ كتب مصطفى رشيد يقول أن على صحيفة " تقويمى فيكان " التي تصدر في إسطنبول أن تعبر عن الاحتجاج الرسمي في حالة رفض فرنسا للمذكرة التركية ( ٤٥ ، العدد ٧ ، ص ٤٦ ) .

حدد مصطفى رشيد موعد تسليم المذكرة مع افتتاح جلسات البرلمان الفرنسي التي كان من المفترض أن تفتتح في ديسمبر ، وكان يرى أن المذكرة سوف تدرس خلال انعقادها ( ٤٥ ، العدد ١ ، ص ٤١ ) .

وخوفاً من رفض الجانب الفرنسي مناقشة مسألة إعادة الجزائر ، أعد مصطفى رشيد مبكراً احتجاجات مؤسسية على الأعراف الدبلوماسية التي تقضى بعدم جواز الرفض . إلى جانب ذلك أحضر مصطفى رشيد معه أدلة تؤكد أن فرنسا وعدت في عام ١٨٣٠ بإعادة الجزائر إلى السلطان ، كما أعد أيضاً تفسيرات لعدم تطرق الباب العالي على مدى الأربعة أعوام المنصرمة لمناقشة مسألة الجزائر خلال اتصالات بفرنسا .

في نهاية العقد الثاني دخل مصطفى رشيد في مفاوضات تم الإعداد لها على نحو جيد ( ٤٨ ، ص ٧٢ ) .

دارت المفاوضات مع وزير خارجية فرنسا الأدميرال دي ريني . وقد بدأ السفير التركي كلمته بالتأكيد على أن الهدف الرئيسى لنشاطه الدبلوماسي يتمثل في دعم العلاقات الودية المخلصة مع فرنسا ، ونبه إلى أن الجانبين دأبا على تجنب الأعمال العدوانية دائماً . وتحدث السفير قائلاً إن فرنسا قامت باحتلال الجزائر بسبب ما أبداه بايلر باي الجزائر في حينه من أعمال اتسمت بالرعونة، على أن الحكومة الفرنسية وعدت بإعادة الجزائر إلى مالكةا الحقيقي وهو السلطان ، وأعرب السفير عن أمله في أن تصل المفاوضات الودية إلى حلول مرضية للطرفين في هذه القضية . كان مصطفى رشيد قد اعتزم تسليم دي ريني مذكرة حكومته ، لكن الأخير بعد شئ من الرؤية أجاب

بأنه ليس باستطاعته قبول هذه المذكرة ، إذ أن الفرنسيين لن يتركوا الجزائر ، ولهذا فإنه يرى أن من غير الممكن الإستجابة للسفير التركي .

نظر مصطفى رشيد إلى الجانب القانوني للعلاقات الدبلوماسية وقال إن معنى تسليم المذكرة يكمن في تفسير أهداف ونيات الدولة ، وأن قبولها لا يعنى الموافقة على ما ورد بها . فإذا ما كانت هناك نقاط فيها تخرج عن حدود صلاحيات السفير ، فإن من الممكن تأجيل المفاوضات بشأنها حتى يتم تسلم توضيحات حكومة السلطان . وأعلن مصطفى رشيد أنه لا توجد دولة واحدة ترفض قبول مذكرات السفراء والإستماع إليها ، وأن هناك علاقات سلمية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية ، وأن إدعاءات الباب العالي في الجزائر تستند إلى وعد رسمي بذلته فرنسا قبل ذلك .

وهنا اضطر دي ريني إلى شرح موقف فرنسا فقال إن بلاده ترى إن الجزائر لا تدخل في نطاق الإمبراطورية العثمانية ، وإنما كانت دولة مستقلة يحكمها متمردون ، وقد أرسلت فرنسا أسطولها وقواتها إلى هناك وأنفقت في ذلك أموالاً طائلة<sup>(١)</sup> . وقد أجاب مصطفى رشيد أن الجزائر تنتمي للإمبراطورية العثمانية وأن سكانها يعدون رعايا للسلطان وهو ما يمكن إثباته بحجج دامغة ، وأعرب دي ريني عن دهشته لكون حكومة الإمبراطورية العثمانية ظلت على صمتها تجاه الجزائر وأن مصطفى رشيد لم يبدأ مفاوضات بشأنها فور وصوله إلى باريس .

وقد نبه السفير التركي إلى أن الجنرال جيليمينو سفير فرنسا قد سلم الحكومة التركية مذكرة رسمية<sup>(٢)</sup> بعد احتلال الجزائر ، جاء فيها أن الجزائر سوف تعود إلى الإمبراطورية العثمانية . وأعلن مصطفى رشيد أن اضطرابات داخلية<sup>(٣)</sup> وقعت في فرنسا بعد تسليم هذه المذكرة مباشرة ، وأن الإمبراطورية العثمانية رأت أنه من غير اللائق أن تقوم الإمبراطورية بإزعاج دولة صديقة في هذه الظروف ، وفضلت تأجيل الأمر بعض الوقت ثم تلا ذلك تبادل المذكرات . وقد نبهت الإمبراطورية العثمانية ، إبان الحوادث المؤسفة التي جرت بعد ذلك ( يقصد بدء الصراع التركي المصري عام ١٨٣١ ) ، مندوبي السفارة الفرنسية بموضوع الجزائر ، وقد أجابت فرنسا أن الجزائر

١- يدخل في هذه النفقات، بداية ، دين داي الجزائر لفرنسا ، التي أرادت أن تطالب به الإمبراطورية العثمانية في عام ١٨٣٠ ، وهو ما رفضته الأخيرة . في سبتمبر عام ١٨٣٤ أخبر الجنرال جيليمينو السفير السابق لفرنسا لدى إسطنبول ( ١٨٢٤ - ١٨٣١ ) مصطفى رشيد ، أن فرنسا تنفق سنوياً في الجزائر ٣٦ مليون فرنك ( أنظر ٤٥ ، العدد ١ ، ص ٤١ " تقرير مصطفى رشيد ، نهاية سبتمبر ١٨٣٤ " ) .

٢- للاطلاع على مضمون المذكرة الفرنسية التي سلمها السفير الفرنسي جيليمينو لدى إسطنبول إلى الحكومة التركية في الرابع عشر من أغسطس عام ١٨٣٠ . انظر ( ٢١٥ ، ص ٢٨ ) .

٣- المقصود هنا الثورة الفرنسية البورجوازية عام ١٨٣٠ .

سوف تعود . وصرح مصطفى رشيد قائلاً: " إن الهدف الرئيسي من نشاطي الحالي في باريس هو تقوية العلاقات الودية بين بلدينا ، ثم إن القانون الإسلامي هو الذي اضطر الإمبراطورية العثمانية للحديث عن الجزائر . وحيث إن الإمبراطورية قد عينت سفيراً لها الآن في باريس فإنني مضطر لطلب رد رسمي " .

أشار الوزير الفرنسي إلى أن الثورة التي قامت في فرنسا بعد احتلال الجزائر قد ألقت كل مواد المعاهدات السابقة ، وأنه إذا كان الجنرال جيليمينو قد تحدث عن إعادة الجزائر فهو قد تصرف على نحو شخصي إذ لم يكن على علم برأي الحكومة في هذا الصدد ، وهنا اعترض مصطفى رشيد قائلاً إنه لا يوجد سفير واحد يجرؤ على التصرف من تلقاء نفسه ودون موافقة حكومته ، وأن كلمة السفير في كل مكان تؤخذ بثقة كاملة وهي التزام رسمي في المقام الأول . وعلاوة على ذلك فقد سلمت الحكومة العثمانية - بعد الثورة أيضاً - مذكرة رسمية بشأن الجزائر وتلقت رداً من السفارة الفرنسية يؤكد ثبات موقف فرنسا من هذه المسألة . وقال مصطفى رشيد أن بإمكانه على أي حال إبراز هذه المذكرات ،

أنهى دي ريني مفاوضاته معلناً أن فرنسا لا تستطيع في الوقت الحالي أن تعيد الجزائر ، ولكنه سوف يبلغ حكومته بمضمون هذه المفاوضات ثم يحدد موعداً ليناقش فيه مع مصطفى رشيد نتائج مشاوراته ( ٤٨ ، ص ٧٢ - ٧٧ ) . كان مصطفى رشيد راضياً عن المفاوضات ، إذ تمكن من تسليم مذكرة تركيا ( ٢١٥ ، ص ٤٠ ) .

وفي التقارير التي رفعها مصطفى رشيد إلى الباب العالي أشار إلى السؤال الذي طرحه عليه الوزير الفرنسي ، عما إذا كان السفير التركي لدى إنجلترا على علم ببدء المفاوضات بشأن الجزائر . كان مصطفى رشيد يرى أن هذا السؤال يؤكد مخاوف دي ريني من تدخل إنجلترا في المفاوضات الجارية بين تركيا وفرنسا وأن السفير التركي في لندن سوف يسعى لتحقيق هذا التدخل ( ٤٨ ، ص ٧٦ ) .

وفي مساء ذلك اليوم الذي بدأ فيه مصطفى رشيد مفاوضاته بشأن الجزائر ، كما أعلن ذلك السفير التركي في تقريره ، دعاه دي ريني إلى زيارته . وقد تناول الحديث بينهما مختلف مذاهب العقيدة الإسلامية ، وأي هذه المذاهب يوليه السلطان أهمية كبرى ، وكيف يتفق أن يعلن كبار العلماء في البداية أن محمداً علياً خارجاً على السلطان ( فرمانلى ) ثم يتم العفو عنه بعد ذلك ، وتطرق الحديث إلى الأسباب التي شجعت إبراهيم بن محمد على إلى اللجوء إلى يوسكيودار<sup>(١)</sup> في البداية ، ثم تراجعته عن الأمر بعد ذلك .

١- يوسكيودار ( سكوتارى): حتى من أحياء إسطنبول يقع على الشاطئ الآسيوي للبوسفور .

لايحتوى تقرير مصطفى رشيد أى تعليقات عن رأيه فى الدافع وراء الأسئلة التى طرحها عليه دى رينى . من المحتمل الظن أن هذا النقاش كان رد فعل للمفاجأة غير السارة بالنسبة لـدى رينى وهى طلب الباب العالى إعادة الجزائر ، كان دى رينى يريد أن يظهر أن التبرير الذى يفسر رغبة الباب العالى فى استعادة الجزائر بزعم أنه مطلب من مطالب الدين الإسلامى هو تبرير غير مقبول . فقد ذكر دى رينى أن رجال الدين الإسلامى كثيراً ما يقعون فى تناقضات فى أحكامهم بشأن واقعة وأخرى ، وضرب مثلاً بحكمهم على سلوك محمد على المتمرد . وفى نفس الوقت فإن إبراهيم وهو ابن محمد على مسلم الديانة ، كان مستعداً للذهاب بقواته حتى ولو إلى الإمبراطورية العثمانية بينما كان المسيحيون هم الذين يقفون للدفاع عن السلطان .

وفى المباحثات غير الرسمية التى أجراها مصطفى رشيد مع بوتسو دى بورديو السفير الروسى فى باريس والتى عرضها مصطفى رشيد فى تقريره ، ذكر السفير الروسى أنه لم يشك لحظة واحدة فى عدم جدوى المفاوضات ، ولكنه أشار عليه بتكرارها من حين إلى آخر حتى تصبح مطالب الباب العالى المذكورة ذات فائدة فى المستقبل . كان بوتسو يرى أن تحرير الجزائر ممكن إما بالقوة بوساطة إنجلترا أو بغيرها من الدول الأوروبية ( مؤكداً بذلك رأى جيليمينو ) ، وإما بإقناع الشعب الفرنسى بعدم جدوى امتلاك الجزائر لفرنسا وأنه قد كره تبذير أمواله . لكن الحل الأول كان يعنى قيام حرب شاملة ، ولهذا فإنه من غير الممكن السماح لهذا الحل ، أما الحل الثانى فلم يحدث ( ٤٥ ، العدد ٩ ، ص ٢١٠ ) . فيما بعد كان دى رينى يتحاشى الدخول فى مناقشات مع مصطفى رشيد بشأن الجزائر .

وعلى الرغم من أن لورد ويلنجتون رئيس الحكومة الإنجليزية اعترف بحق الإمبراطورية العثمانية فى الجزائر ، إلا أنه أشار إلى أن إعادتها سوف يكون أمراً صعباً ( ٢١٥ ، ص ٤١ ) .

لم تسفر جهود مصطفى رشيد فى عام ١٨٣٤ عن تحقيق النتائج المرجوة . ويعود السبب فى ذلك إلى ضعف الدولة العثمانية التى رأت فرنسا أنه قد أصبح بإمكانها فى الوقت الحالى ألا تعيرها اهتماماً .

كانت إنجلترا والنمسا تستثيران ، عن قصد ، أمل الباب العالى فى استعادة الجزائر . فالأولى ، على حد قول نيكولاى الأول ، تحسد فرنسا على هذا الكسب الرائع ( ٨٥ ص ٥٤٦ ) ، وفى الثلاثينيات كان بالمرستون ومترنيخ يشيران على مصطفى رشيد أن يدلى من حين لآخر بتصريحات مناسبة عن حقوقه فى الجزائر ، وأن يتجنب أى تصريحات يمكن أن تفسر على أنها تخلى عن هذه الولاية . وقد أشار مصطفى

رشيد في أحد تقاريره أنه في الفترة الأخيرة لإقامته في فرنسا بصفته سفيراً ( عام ١٨٣٦ ) لم يصدر أي تصريحات رسمية بشأن الجزائر . على أنه لم يتوقف عن الحديث بشكل غير رسمي عن هذه المشكلة وتوجيه الانتقاد للفرنسيين ( ٤٦ ، العدد ١٦ ، ص ٤٤ ) .

في يناير عام ١٨٣٦ بعث سكان مدينة قسطنطينة الجزائرية وضواحيها برسالة إلى إسطنبول يذكرون فيها نضالهم ضد الفرنسيين ويطلبون الاعتراف بأحمد بك والياً على قسطنطينة . لم يكن الباب العالي يتوقع آنذاك نجاح المذكرات الدبلوماسية ، لكن أعضاء حكومة السلطان لم يتحمسوا لإرسال دعوة مفتوحة لفرنسا لكي تعترف بأحمد بك والياً تركيا ، على الرغم من أنهم لم يتوقفوا عن تشجيعه على مواصلة النضال ضد الفرنسيين . وقد تم إرسال كمال بك سفير الباب العالي إلى الجزائر عبر تونس ، وفي نفس الوقت خرج جزء من الأسطول العثماني إلى عرض البحر المتوسط ولم تتوان الحكومة الفرنسية عن اتخاذ الإجراءات التي ترد بها على هذا التصرف . ففي السابع من يونيو عام ١٨٣٦ بعثت فرنسا بمذكرة أعلنت فيها عن خروج الأسطول الفرنسي إلى عرض البحر للدفاع عن مصالحها السياسية والتجارية . وعلى الرغم من أن الباب العالي أجاب على هذه المذكرة بما يفيد حقه الكامل في تصرفاته ، إلا أنه أعاد الأسطول إلى قواعده . وقد وجه وزير الخارجية الفرنسي مولى تحذيراً لنوري أفندي السفير التركي لدى باريس مفاده أنه في حالة إرسال الباب العالي أسلحة إلى أحمد بك فإن الحرب بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية ستشتعل على الفور ( ٢١٥ ، ص ٤٥ - ٤٦ ، ٥٤ ) .

في صيف عام ١٨٣٧ تعود فرنسا من جديد لتعلن احتجاجها على زيارة أسطول السلطان لسواحل تونس وطرابلس ( ٤٨ ، ص ٨٤ ، أنظر كذلك ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٣٧٨ )<sup>(١)</sup>، وهو الأسطول الذي يعمل تحت إمرة القيادة العليا للسلطان . وقد عللت الحكومة الفرنسية احتجاجها بأن ظهور السفن العثمانية سوف يدفع القبائل الجزائرية إلى التمرد على فرنسا ( ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ ) ، وقد أعلن جرينويل سفير إنجلترا في باريس في معرض دفاعه عن مصالح الباب العالي في هذه القضية ، احتجاجه على الوزير الفرنسي مولى معتبراً أن فرنسا ليس لديها الحق في تصرفاتها ( ٤٨ ، ص ٨٥ ) .

في يوليو عام ١٨٣٧ أبحر الأسطول التركي إلى طرابلس . وهنا أعلنت فرنسا عن إرسال أسطولها إلى تونس . وقد أشار بونسونبي السفير الإنجليزي لدى إسطنبول

١- كان الباب العالي ينوي أن يرسل سراً تعزيزات إلى باي مدينة قسطنطينة عن طريق تونس .

بإعطاء باي تونس ضمانات من السلطان ( ضمان أمن تونس في حالة هجوم الفرنسيين على أراضيه ) . عندما وصلت السفن التركية إلى طرابلس توجه إلى تونس أحمد توفيق ، الذي تسلم من مصطفى باشا بايلر باي تونس ٥٠٠ كيساً لتوصيلها إلى الباب العالي هدية منه . وفي سبتمبر عام ١٨٣٧ تحول الأسطول التركي متجهاً إلى إسطنبول ، وقد رافقه الأسطول الفرنسي حتى تشنكالي (ميناء على مضيق الدردنيل)، وقد أبلغ الباب العالي احتجاجه إلى السفير الفرنسي روسين .

في الثالث عشر من أكتوبر عام ١٨٣٧ سقطت مدينة قسطنطينة ، ولم يقدم باي تونس أي مساعدة لأحمد ، على الرغم من أن الباب العالي طلب منه ذلك ( ٢١٥ ، ص ٥٦ - ٥٧ ) .

وقد أعلن بالمرستون مراراً أن إنجلترا لا تحبذ استيلاء فرنسا على الجزائر ( ٤٨ ، ص ٨٤ ، ٨٧ ) . وفي أغسطس عام ١٨٣٨ أوصى بونسونبي سفير إنجلترا لدى إسطنبول الباب العالي يطالب لويس فيليب بالاعتراف بسيادة السلطان على الجزائر ( ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٣٨٠ ) .

في هذه الظروف ، ظل مصطفى رشيد يتحين الفرصة التي تصطدم فيها مصالح الدول الأوروبية ، وعندها يمكن إجبار فرنسا على إعادة الأراضي المحتلة عن طريق أعداء فرنسا المحتملين ( ٤٨ ، ص ٥٤٦ - ٥٥٥ ) . لكن هذه الفرصة ، كما هو معروف ، لم تحن قط . وفي عام ١٨٤٧ لم يرد ذكر الجزائر للمرة الأولى في قائمة ولايات الإمبراطورية العثمانية المطبوعة في السلطنة<sup>(١)</sup> ، وكان هذا يعني أن السلطان قد تنازل عن حقوقه فيها ( ٢١٥ ، ص ٦٠ ) .

١- السلطنة: المطبوعات الحكومية السنوية ، وكانت تضم المراسيم التي أصدرها الباب العالي وقوائم أهم الأحداث . بدأت في الصدور في الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٨٤٧ .



## الفصل الثامن

### التنافس التركي الفرنسي في تونس

كانت مقاومة السياسة الفرنسية في تونس إحدى المهام التي تطلبت اهتماماً دائماً من جانب الدبلوماسية العثمانية في الفترة من عام ١٨٤١ وحتى عام ١٨٤٥ .  
شجعت الحكومة الفرنسية التوجهات الانفصالية لبאי تونس وسعت لأن يقوم بتوسيع حدود بلاده ، آملة أن يؤدي ذلك إلى تقوية موقف فرنسا في حوض البحر المتوسط .

لقد حاول الباب العالي في أربعينيات القرن التاسع عشر تفادي الأخطاء التي ارتكبها في حينه بالنسبة للجزائر ، وكان دائم التأكيد على الحق الأعلى للسلطان في هذا الإقليم ، وفي الوقت نفسه استمر في محاولاته لتجنب تفاقم علاقاته في فرنسا<sup>(١)</sup>.

كانت تبعية تونس لفرنسا ضعيفة ، وكان البايات حتى عام ١٨٤٥ يدفعون للباب العالي الجزية ، وفي عام ١٨٤٥ أعفت حكومة السلطان ، ظاهرياً ، تونس من دفع الجزية كما ظلت تبعية لها أمراً شكلياً ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١١٠ ) .

وبعد احتلالها للجزائر عام ١٨٣٠ ، ظلت فرنسا متخوفة من استخدام الحكومة التركية لتونس كقاعدة لتقديم المعونات العسكرية للمناضلين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي ( ٤٨ ، ص ٥٢٨ - ٥٣٠ ) ، ولهذا كانت فرنسا تعرب عن احتجاجها المستمر كلما ظهر أسطول السلطان عند سواحل شمال أفريقيا بنفس الحجة التي ترى أن هذا الأمر يعد تحريضاً للجزائريين على القيام بانتفاضات جديدة ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ٩٠ ) .

وفي أربعينيات القرن التاسع عشر استمر نضال الشعب الجزائري ضد المحتلين الفرنسيين تحت قيادة عبد القادر الجزائري ( انظر المرجع ١٤٤ ) ، أما الباب العالي

١- بدأت حدة التنافس بين الباب العالي وفرنسا في تونس في الظهور منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر . يؤكد ذلك ، على سبيل المثال ، التقرير الذي اشترك في كتابته كل من مصطفى رشيد ونوري بك في باريس في سبتمبر عام ١٨٣٦ ( انظر ٤٦ ، العدد ١٤ ، ص ٦٤ / انظر أيضاً ٨٥ ، ص ٩٧ ) .

فلم يفقد الأمل ، كما ذكرنا من قبل ، في الحل الدبلوماسي لإعادة الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية . لقد قرر الباب العالي في الفترة من ١٨٣٥ إلى ١٨٣٧ تحويل تونس إلى ولاية عادية من ولايات الإمبراطورية العثمانية يحكمها وال يمكن تعيينه من قبل إسطنبول . وقد اعترضت فرنسا على ذلك وانتهى الأمر بأن تخطى الباب العالي عن مخططاته ( ١٢٤ ، ج١ ، ص ٢٨٢ - ١٨٤ ، ٧١ ، المجلد ١ ، ص ٤٢٥ ، ١٧٦ ، ص ٢١٠ - ٢١١ ) . آنذاك أكد تيسير أن فرنسا لا تعتزم فرض رقابتها على تونس وطرابلس ، ولكنه رفض في الوقت نفسه الاعتراف بسيادة السلطان على هذه المناطق وأرسل الأسطول الفرنسي إلى تونس تحسباً لظهور الأسطول التركي هناك ( ١٨٢ ، ص ٦٤ - ٦٥ ) . وقد أيدت فرنسا محاولة الباي للحصول على استقلال أكبر عن الباب العالي " إذ ربما كانت تعرف أن معارضته للباب العالي يمكن أن تدفعه للاستسلام للسياسة الفرنسية ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١١٠ ، انظر أيضاً ٢٧١ ، المجلد ١ ، ص ٤٢٥ ) .

وفي ربيع عام ١٨٣٥ وبعد الرفض المستمر لفرنسا وإعادة الجزائر ، أرسل الباب العالي أسطولاً إلى الحدود الواقعة بين الجزائر وطرابلس بقيادة الفريق نجيب باشا ، الذي أعاد تنظيم قيادة طرابلس بعد أن حولها إلى ولاية . وقد أعلن الباب العالي وريث عائلة كارامنيلي ، الذي كان يحكم طرابلس ، والياً معيناً من قبل السلطان عليها ، لكي يقلص بشكل كبير من استقلاليته في إدارة هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية . من هنا كان الباب العالي قد عقد العزم على تقديم المساعدة العسكرية للجزائر سراً . وفي أبريل عام ١٨٣٦ أرسل الباب العالي مبعوثه الخاص إلى تونس ، وكان على هذا المبعوث أن ينقل إلى أحمد بك باي مدينة قسطنطينية ( الجزائر ) خطاباً يشجعه فيه على مواصلة النضال من أجل تحرير الجزائر . وفي ربيع عام ١٨٣٦ كان الأسطولين التركي والفرنسي يشقان عباب البحر المتوسط ( ٢١٥ ، ص ٤٤ - ٦٠ ، ٢٠٧ ، ص ٣١١ - ٣١٦ ) .

وفي تقارير مصطفى رشيد ، السفير السابق لتركيا لدى باريس في الفترة من عام ١٨٤١ وحتى عام ١٨٤٥ ، يتكرر ذكر الاحتجاجات التي أعربت عنها الشخصيات الرسمية الفرنسية ضد نيات الباب العالي إجراء تغييرات ما في الوضع الحكومي لتونس ، أي في حدود استقلالها ( ٤٨ ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٤١ ) . بينما وعد الباب العالي بأنه لن يقوم بأي تغيير . وفي الأربعينيات أولى الباب اهتمامه للحفاظ على وضع تونس وحتى لا تنقطع تلك التبعية الواهية التي تربط باي تونس أحمد بك ( ١٨٣٧ - ١٨٥٥ ) بالإمبراطورية العثمانية ( ١٢٤ ، ج٢ ، ص ١١٠ ) .

كان بايات ( دايات ) تونس يدركون فائدة وضروية تأييد الباب العالي لهم فيما يتعلق بالإدعاءات الأوروبية في تونس ، ولهذا رأوا أن من الضروري ألا يقطعوا تبعيتهم للإمبراطورية العثمانية على الرغم من أنهم دافعوا عن حكمهم الذاتي الداخلي .

حصل أحمد بك باي تونس على حماية فرنسا ، وفي الوقت نفسه أراد الاحتفاظ بعلاقاته مع الإمبراطورية العثمانية . ويؤكد الباحث الإنجليزي ل. براون: " أن الباى أحمد كان يعي أن هناك خطراً يهدده وهو ابتلاع فرنسا له بعد أن تنتهي من الجزائر . وكان سلاحه في الدفاع عن بلاده يتمثل في تأييد التوازن الواهن بين الجارتين العظيمين - الإمبراطورية العثمانية وفرنسا " والمثال الدال على ذلك هو تسوية الحدود عام ١٨٣٨ . فعندما رفض أحمد باشا الموافقة على اقتراح القنصل الفرنسي قال له " أن عليه أن يتشاور مع إسطنبول ، فعلى الرغم من أنه يملك السلطة التامة في إدارة تونس ، إلا أنه لا يملك الحق في تغيير الحدود التونسية القائمة " ( ١٥٤ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ) .

اغتنم بايات تونس أيضاً فرصة الخلافات القائمة بين الدول الأوروبية ، وقد كفل لهم ذلك حمايتهم من التدخل المباشر ( ١٥٤ ، ص ١٣٧ ) . فقد أبدت إنجلترا ، على سبيل المثال ، مقاومة جادة لسياسة فرنسا في تونس ( ٩٧ ، ص ١٦١ - ١٦٥ ) . وفي الوقت نفسه فإن أى مبادرة من جانب العثمانيين ( طلب الجزية ، مشكلة العلم التونسي ، الأمر بتطبيق التنظيمات الإصلاحية ... إلخ ) كانت تؤخذ من جانب باي تونس باعتبارها محاولة لإرساء حكم عثماني مباشر ( ١٥٤ ، ص ٢٥٩ ) .

بعث هذا الموقف من جانب باي تونس ، إلى جانب ضعف الإمبراطورية العثمانية ، الذي ظهر على وجه الخصوص في فترة الصراع التركي المصري ، الأمل لدى فرنسا في إمكانية احتلالها لتونس .

في أول تقرير له من باريس ، والمؤرخ ديسمبر عام ١٨٤١ ، ذكر مصطفى رشيد أن ملك فرنسا قد ساوره القلق من جراء الشائعات التي سارت بشأن قيام إسطنبول بإعداد أسطول لإرساله إلى تونس وأنهم في باريس يتوقعون وصول باي تونس الذي ينوي حل عدد من المشكلات إبان وجوده في العاصمة الفرنسية . هذا ما رواه أحد المسيحيين ويدعى رافو<sup>(١)</sup> للسفارة الفرنسية . وفي الوقت نفسه أكد لويس فيليب ، إبان مراسم الاحتفال المقام بمناسبة وصول السفير التركي إلى باريس ، لمصطفى رشيد أن

١- جوزيب رافو: مسيحي من سردينيا ، كان يعمل لدى باي تونس أحمد وكان يؤدي دور " وزيراً صورياً لخارجية تونس " ، وكان يتمتع بنفوذ كبير ، لكنه لم يكن يتمتع بأي سلطات ، وكثيراً ما قام بدور الوسيط بين حكومة تونس والقناصل الأجانب ( أنظر ١٥٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ ) .

فرنسا تعد صديقاً مخلصاً للإمبراطورية العثمانية ، وأنها تعمل على الحفاظ على وحدة الإمبراطورية واستقلالها . ولهذا فإن على الإمبراطورية ألا تشرع في تدبير المؤامرات في تونس ضد فرنسا . وكذلك أكد جيزو وزير خارجية فرنسا ، والذي واصل مباحثاته مع مصطفى رشيد بشأن هذا الموضوع ، أن فرنسا لا تسعى للقضاء على السلطة العثمانية في تونس ، ولكنها لن تسمح بتغيير وضع الدولة فيها كما فعلت الإمبراطورية العثمانية في طرابلس . وأضاف جيزو أن ما فعله الباب العالي في طرابلس - في رأيه - لم يعد بأى فائدة على الإمبراطورية ، ناهيك عن النفقات الباهظة والعناء الكبير وإن كانت تونس هي المقصودة هنا بهذا التلميح .

- أحاط جيزو مصطفى رشيد علماً بعزم الأسطول الفرنسي مراقبة تحركات السفن التركية إذا ما ظهرت في البحر المتوسط وصرح له بأنه سيتم منعها من الوصول إلى تونس بل واستخدام القوة معها إذا دعت الحاجة لذلك . وأضاف جيزو أنه أبلغ بذلك كل من إنجلترا والنمسا . أجاب مصطفى رشيد بأنه لا يعلم عن مخططات حكومته في هذا الصدد أى شئ ، ولكنه افترض إمكانية إرسال الأسطول التركي إلى المنطقة في حالة قيام باى تونس بإرتكاب مخالفات ضد الإمبراطورية . وأضاف قائلاً أن من غير اللائق أن تقوم فرنسا بحماية أعداء الحكومة الشرعية ( ٤٨ ، ص ٥٢٨ - ٥٣٠ ) ، وكان عليها أن تستخدم نفوذها على الوالى ( باى تونس ) لإرغامه على الوفاء بالتزاماته باعتباره من رعايا السلطان وألا يتوقف عند دفع الجزية . وطالب مصطفى رشيد بإبعاد الأسطول الفرنسي من المياه التركية . وأجاب جيزو على السفير التركي بقوله إن فرنسا سوف تنصح باى تونس بالإستجابة لمطلب السلطان بدفع الجزية ، لكنه عاد مرة أخرى ليؤكد أن الحكومة الفرنسية لا تحبذ بأى شكل من الأشكال إجراء أى تغييرات على الوضع الحالى لتونس . وبخصوص طلب مصطفى رشيد سحب الأسطول الفرنسي أجاب جيزو أن الأسطول سوف يتم استدعاؤه بعد ما ينتفى السبب من جوده . وقد أوضح مصطفى رشيد في تقريره أن التحقيق الذى أجراه أسفر عن أن باى تونس كان يلقى تأييداً من جانب فرنسا فى ألا يدفع الجزية ، على أنه أصبح بالإمكان الحصول عليها من جديد . علاوة على ذلك أشار السفير إلى أنه على الرغم من أن الباب العالي يحصل على الجزية من تونس ، فإن أوروبا كانت تنظر إلى السيادة العثمانية فى تونس باعتبارها حماية عادية ، ولهذا فإن من الضروري تغيير هذا التصور الكاذب حول طبيعة السلطة العليا ( ٤٨ ، ص ٣٥٠ - ٥٣١ ) .

لقد قام باى تونس بإجراء مباحثات مع الحكومة الفرنسية باعتباره حاكماً مستقلاً من خلال مبعوثه رافو ، مخالفاً بذلك وضعه كأحد رعايا الباب العالي . هذا ما أخبر به مصطفى رشيد الباب العالي فى السابع من نوفمبر عام ١٨٤٢ ( ٤٨ ، ص ٥٣٢ ) ، لكنه

رأى أن من غير المجدي الاحتجاج على استقبال الحكومة الفرنسية للسفير التونسي ، إذ أن تونس والجزائر وطرابلس عقدوا آنذاك معاهدات صداقة مع عدد من الدول الأوروبية بما فيها فرنسا ، ولم يول الباب العالي أى اهتمام بهذا الأمر . بالإضافة إلى ذلك فإن رافو كان مسيحي الديانة ولم يكن يعد من رعايا باي تونس - على أن مصطفى رشيد لم يكن يساوره الشك في أن رافو وصل إلى فرنسا باعتباره شخصية رسمية ( وكان مصطفى رشيد قد علم بوصوله من الصحف الفرنسية بشأن دفع تونس للجزية . وفي مباحثاته مع ديزاج مدير الإدارة بوزارة الخارجية الفرنسية ، رأى مصطفى رشيد أن من الملائم توجيه اللوم للحكومة الفرنسية على استقبالها لرافو باعتباره ممثلاً لحاكم مستقل ، وقال إن هذا الأمر يتعارض والقانون الدولي ، وأستند ديزاج في رده بأن رافو وصل إلى فرنسا لإنجاز شئون شخصية ( ٤٨ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ) .

وفي تقريره الذي رفعه للسلطان في التاسع من فبراير عام ١٨٤٤ ، وصف الباب العالي نيات فرنسا إعاقة زيارة الأسطول التركي لتونس بأنها ظالمة وغير لائقة ، لكن الباب العالي اعترف في الوقت نفسه بضرورة أخذ هذه التصرفات بعين الاعتبار نظراً للظروف الدولية المعقدة . لقد وجه السفير التركي في فرنسا نظر الباب العالي إلى أن الدول البحرية أجرت في الأربعينيات مباحثات لإتخاذ قرارات ضد التجار<sup>(١)</sup> . وقد قامت الدول المتفقة بإنشاء أسطول مراقبة له الحق في مراقبة واحتجاز السفن المشتبه فيها ( ٤٨ ، ص ٢٣٤ - ٥٣٥ ) ، وقد استغلت فرنسا هذا الوضع الجديد لكي تعرقل تحرك الأسطول التركي نحو تونس .

عندما دبت الخلافات بين تونس وسردينيا بشكل ينذر بوقوع حرب بينهما ، تدخل الباب العالي بوصفه وسيطاً عن طيب خاطر ، مظهراً حقوقه العليا على تونس . وترجع الخلافات بين تونس وسردينيا إلى شروط الاتفاقية التجارية التي كانت معقودة بينهما ، وقد انفجرت هذه الخلافات بسبب احتجاج سردينيا على الحظر الذي فرضه باي تونس في أكتوبر ١٨٣٤ على تصدير القمح . وقد رأى قنصل سردينيا في هذا العمل خرقاً لشروط الاتفاقية وأعلن أن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ينبغي أن تقطع ، وأن أسطول سردينيا سوف يقوم بالتجمع في مظاهرات . وفي مارس ١٨٤٤ ظهرت بوادر الحرب وأصدر أحمد باي تونس أمراً بتعبئة الجيش . وقد استثمر السلطان هذا الصراع ليؤكد حقوقه في تونس ( انظر ١٥٤ ، ص ١٦ - ١٧ ، ٢٤٣ - ٢٤٥ ، انظر أيضاً ١٢٤ ، ج ١ ، ص ٩٠ ، ١١٠ - ١١١ ، ٤٨ ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧ ) .

في السابع عشر من أغسطس عام ١٨٤٤ يقوم مصطفى رشيد مرة أخرى بإبلاغ

١- انضمت الإمبراطورية العثمانية إلى هذه المعاهدات في عام ١٨٤٦ .

الباب العالي بأن ملك فرنسا ووزير خارجيتها أعربا عن قلقهما تجاه الشائعات التي انتشرت بشأن نية الباب العالي إرسال أسطول له إلى تونس وأنهما حذرا مصطفى رشيد من أن تحقيق ما عزم عليه الباب العالي قد يؤدي إلى وقوع صدام عسكري بين أسطولى تركيا وفرنسا ( ٤٨ ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ ) . بالإضافة إلى ذلك فقد صرح جيزو أن عدد السفن الحربية التركية عند سواحل لبنان تبدو له كبيرة للغاية ( ٤٨ ، ص ٥٣٨ ) . وعلى الرغم من أن رد الباب العالي أكد أن تونس هي أراض عثمانية ، وعليه فإن اعتراض بولة أجنبية على زيارة الأسطول التركي لها اعتراض في غير محله ( ٤٨ ، ص ٥٣٨ ) ، فإن هذا الرد تضمن تأكيداً مهدداً لفرنسا بأن الأسطول التركي لا يعتزم الذهاب إلى تونس ، وقد أحاط جيزو بدوره السفير التركي أن السفن الحربية الفرنسية التي أرسلت إلى تونس سوف يتم إعادتها ( ٤٨ ، ص ٥٣٩ ) وقد أكد مصطفى رشيد مرة أخرى في مباحثاته في أكتوبر عام ١٨٤٤ مع ملك فرنسا أن الحكومة التركية لا تعتزم إرسال أسطولها إلى تونس ( ٤٨ ، ص ٥٣٩ - ٣٤٠ ) .

لم تتوقف فرنسا عن متابعة الأسطول التركي طوال وجوده بالقرب من سواحل بيروت ( على أثر الانتفاضات التي وقعت في لبنان ) بسبب خشيتها أن يتوجه الأسطول التركي إلى تونس ، وقد ظل عدد من السفن الحربية الفرنسية يقوم بمناورات على مقربة منه . وقد نبه السفير التركي جيزو إلى أن مثل هذه المناورات من شأنها أن تخلق شائعات غير مرغوب فيها ، وأن غياب الثقة يعوق قيام علاقات ودية متبادلة بين البلدين . وكرر جيزو في رده أن موافقة أسطول دولة لسفن دولة أخرى هو من تقاليد الدول الأوروبية ( وكان جيزو يشير هنا إلى قيام السفن الإنجليزية بمراقبة السفن الفرنسية ) ، وأن هذا الأمر لا يجب أن يثير قلق الباب العالي . وأشار أيضاً إلى أن فرنسا تفرض حمايتها على باي تونس وأنها تهتم ببقاء وضع تونس دون تغيير . ولهذا فإن فرنسا سوف تدافع عن تونس إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك ، سواء بقواتها البحرية أو البرية . وقد أجاب مصطفى رشيد أن هذا التصريح ليس له ما يبرره وأنه غير ملائم إذ أن الباب العالي لا يعتزم تغيير الوضع الداخلي لآيالة تونس ( ٤٨ ، ص ٥٤٠ ) .

وفي التعليمات التي أرسلها إلى الباب العالي في صيف عام ١٨٤٥ ، يوجه مصطفى رشيد الانتباه إلى أن ملكة إنجلترا استقبلت رافو وأنه قد سلمها إبان المقابلة أوراق اعتماد باي تونس ، مما يؤكد ، كما ورد في التعليمات ، أن إنجلترا كانت حريصة على رؤية باي تونس مستقلاً .

وفي الثامن عشر من أغسطس عام ١٨٤٥ أبلغ مصطفى رشيد الباب العالي أن شائعات ذاعت في باريس ، قبل وصول رافو بفترة قليلة ، مفادها أن حكومة



السلطان، كما يبدو ، تجرى استعدادات على أراضي لبنان ( طرابلس ) لدخول الحرب ضد تونس ، وأن رافو سوف يطلب مساعدة فرنسا . وفي إطار ذلك أشار مصطفى رشيد إلى أن باي تونس ، على الأرجح ، يرى أن قيامه بعقد معاهدات مع دول أجنبية<sup>(١)</sup>، وفي إقامة علاقات مشتركة مع هذه الدول إظهاراً لاستقلاله ، وأنه يحلم بالاستقلال الكامل ، وأن الفرنسيين سوف يخدمونه في المستقبل . كان الباي يخشى الإمبراطورية العثمانية ولذلك اجتهد في أن يوطد علاقاته بأوروبا . وقد دعمت زيارات رافو أحلامه الخاوية . وفي كل مرة كان رافو يذهب فيها إلى باريس ، كان يحمل معه خطابات من الباي إلى ملوك أوروبا ويسلمها رسمياً لهم باعتباره سفيراً لدولة مستقلة . كان باي تونس مرتبطاً بمعاهدات مع معظم الدول الأوروبية الكبرى (فرنسا ، إنجلترا ، إيطاليا وغيرها ) ، وكان يتصرف مع هذه الدول باعتباره حاكماً مستقلاً ، وقد وضع هذا الأمر ، في رأى مصطفى رشيد ، الإمبراطورية العثمانية في وضع حرج . في تلك الفترة لم يكن الباب العالي يحظر على الأيالات الغربية (تونس والجزائر وطرابلس ) أن تعقد معاهدات مع الدول الأوروبية ، والآن فإن الدول الأوروبية يمكنها أن ترفض وساطة الباب العالي في حالة وقوع خلافات بين تونس وإحدى هذه الدول ، وأن تلجأ تونس لإتخاذ قرارات منفردة استناداً إلى هذه المعاهدات . لقد رأى مصطفى رشيد باشا أن من الضروري منع باي تونس من القيام بتبادل الخطابات على نحو رسمي أو أن يدع علاقاته مع الدول الغربية ( ٤٨ ، ص ٥٤١ - ٥٤٣ ) .

في تقرير له مؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٥٤ كتب مصطفى رشيد أن صحيفتي "Deba" و "Courrier" الفرنسيتين نشرتا أن باي تونس أعلن نفسه حاكماً عليها ، وأن نظام الإدارة في تونس هو نظام مستقل . أما باي تونس نفسه فقد راح يوماً بعد الآخر يغير من سلوكه ، استناداً إلى المعاهدات التي عقدها . كان النفوذ الفرنسي في تونس يزداد تدريجياً الأمر الذي أثار قلق إنجلترا بطبيعة الحال . وقد اقترح مصطفى رشيد استغلال ذلك الظرف ، وكذلك دفع علاقات باي تونس مع النمسا إلى القروى بسبب رفض تونس استقبال قنصل النمسا وأشار مصطفى رشيد بضرورة إرغام الباي على دفع الجزية واجباره بمقتضى مرسوم خاص على استقبال قنصل النمسا ( ٤٨ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٤ ) .

لقد قامت حكومة السلطان بإصدار هذا المرسوم ، لكن الحكومة النمساوية علاوة على ذلك ، زودت قنصلها في تونس بأوراق اعتماد باسمها ، وهو أمر يحدث عادة عند إرسال ممثلين رسميين إلى حكومة مستقلة . وقد تحدث سفير النمسا لدى تونس - للإطلاع على حق عقد المعاهدات الذي أعطاه الباب العالي لتونس انظر أيضاً ( ١٢٤ ، ج ٢ ، ص ٩٠ ) .

باريس مع مصطفى رشيد في هذا الأمر وأخبره " أن رياح الاستقلال تدوى في رأس هذا الرجل ( باي تونس - المؤلف ) " ، وعلى الرغم من أن سفير النمسا أدان سلوك الباي ، فإن مصطفى رشيد أكد في تقريره إلى الباب العالي أن قرار النمسا تسليم أوراق إتمام إلى القنصل النمساوي ، كما لو كان متوجهاً إلى دولة مستقلة ، أمر تستكره الإمبراطورية العثمانية ( ٤٨ ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥ )<sup>(١)</sup>.

كان التقرير الذي اعتمدنا عليه آنفاً والمؤرخ ٣٢ أكتوبر ١٨٤٥ هو آخر تقرير أرسله مصطفى رشيد من باريس ، وقد تم تعيينه بعد ذلك مرة أخرى وزيراً للخارجية وسرعان ما عاد إلى الوطن .

١- انتهى الصراع على تونس بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا ، كما هو معروف ، بعد مرور ما يزيد على ثلاثة عقود في عام ١٨٨١ ، عندما احتلت القوات الفرنسية تونس لتدخل تحت الحماية الفرنسية . وكانت الحجة هي الدين الضخم على تونس وإفلاسها نتيجة القروض الأوروبية .

## الخاتمة

بنهاية القرن الثامن عشر أدرك رجال الدولة في الإمبراطورية العثمانية أن تغييرات كبيرة قد طرأت على العالم ، أتاحت للدول الأوروبية أن تتفوق كثيراً على الإمبراطورية العثمانية في النمو الإقتصادي والسياسي .

كان سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) أول سلطان تركي عزم على تحطيم التقاليد البالية ودعم الدولة عن طريق الإصلاحات . على أن الإصلاحات التي قام بها سليم ، وعلى وجه الخصوص إعادة بناء الجيش وإنشاء سفارات دائمة في عواصم أوروبا ، لم يكتب لها النجاح . أولاً: بسبب التناقضات بين الإنكشارية التي دعمتها فئات كثيرة من المجتمع لم تكن مهتمة بهذه الإصلاحات ، ثانياً: بسبب التعقيدات في السياسة الخارجية بالدرجة الأولى بما فيها خيانة نابليون للتحالف مع تركيا .

واصل محمود الثاني ( ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ) الإصلاحات التي بدأها سليم الثاني . وفي عام ١٨٢٦ استطاع أن يقضي على الإنكشارية وأن يقيم جيشاً على الطراز الأوروبي . كما نجح في أن يبذل مساعي كثيرة لقمع التوجهات الانفصالية لحكام الأقاليم وإخضاعهم للسلطة المركزية .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدأ نظام الإقتصاد الرأسمالي في الظهور وخاصة في بلدان البلقان وسوريا وهما المنطقتان اللتان كانتا أكثر ارتباطاً بالأسواق الأوروبية. كما اشتدت حركات التحرر الوطني لدى الشعوب الخاضعة للأتراك ، والتي ارتبطت تطورها بالنظام الاجتماعي المتخلف للإمبراطورية العثمانية ثم لم تعد رغبة في الاكتفاء بوضعها كرعايا " من الدرجة الثانية " .

يعد انفصال اليونان ، التي حصلت في عام ١٨٣٠ على استقلالها بمساعدة الدول الأوروبية ، والهزيمة في الحرب الروسية التركية ( ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ) ، واستيلاء فرنسا على الجزائر ، وتمرد والي مصر الذي لم ينجح السلطان في إخماده بالقوة ، من الأحداث التي أرغمت تركيا على الدخول في علاقات دبلوماسية وثيقة مع الدول الأوروبية ، والتخلي عن سياسة العزلة التي كان الباب العالي ينتهجها ، واتباع التجربة التي بدأها سليم الثالث .

لقد ساعد التنافس القائم بين الدول الأوروبية والذي ازدادت حدته نتيجة لتطور الإنتاج الرأسمالي والحاجة إلى خامات وفتح أسواق للسلع التي أنتجتها الصناعة المتطورة فيها ، الدبلوماسية العثمانية على تحقيق الهدف الذي وضعه الباب العالي والحفاظ على الإمبراطورية .

لقد أفرز إنشاء السفارات والوجود الدائم للدبلوماسيين الأتراك في بلدان أوروبا طرازاً جديداً من رجال الدولة في الإمبراطورية العثمانية . فقد حصل هؤلاء على المعارف العميقة في مهنتهم ، فضلاً عن تعلمهم مبادئ نظام الدولة والمجتمع في الدول الغربية البورجوازية والإقتصاد والنظريات الإقتصادية والثقافة والأيدولوجيا . إن مقارنة مستويات التطور في أوروبا والإمبراطورية العثمانية أظهر بدرجة كبيرة ، مبادرين ومناصرين لتلك الإصلاحات التي استهدفت منذ نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، إدخال عدد من المعايير البورجوازية إلى نظام الدولة والحياة الإجتماعية والإقتصادية وتشريعات البلاد . بالإضافة إلى ذلك ، فإن الإصلاحات التي تحققت بمبادرة مصطفى رشيد ، أحد أبرز الدبلوماسيين ورجال الدولة في الإمبراطورية العثمانية من الثلاثينيات وحتى الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، لم تكن تهدف إلى تدمير نظام الدولة والمجتمع القائمين . لقد سعى الإصلاحيون إلى الإرتقاء بالنظام الإجتماعي بحيث يصبح من الممكن أن تتعايش المؤسسات القديمة والجديدة معاً . ومن هنا نشأ التناقض في سياسة الإصلاحات التي اتخذت طابعاً ازدواجياً انعكست نتائجه على هذا الإصلاح . وقد ساعد على صعوبة الوضع التناقضات الدينية والقومية الحادة ، إلى جانب تبعية البلاد إقتصادياً لرأس المال الأوروبي والتي ازدادت حدتها أيضاً .

كانت الخطوة الهامة في هذا الطريق هي إلغاء نظم اللوائح الحكومية والاحتكارات والشراء الإجباري المميزة للأسلوب الإقطاعي للإنتاج ، وقد جاءت هذه الخطوة في سياق المعاهدة التجارية التي عقدت بين إنجلترا وتركيا . على أن تطبيق مبدأ التجارة الحرة لم يؤدي إلا إلى مجرد نمو طفيف في النظام الرأسمالي في الإقتصاد وكذلك إلى زيادة ملحوظة في التعبئة الإقتصادية للدول الأوروبية على الرغم من زيادة الرواج التجاري . لقد هيا مرسوم خطي شريف جولخانه عام ١٨٣٩ والإصلاحات التي تلتها ، والتي كان مصطفى رشيد المحفز لها ، عدداً من الظروف الضرورية لنمو الرأسمالية في تركيا ، وفي الوقت نفسه ساهمت هذه الإصلاحات في تهيئة البلاد لمتطلبات الإقتصاد الرأسمالي الواعي .

جاءت التغيرات السياسية الداخلية والخارجية للإمبراطورية العثمانية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر مصاحبة لبعضها البعض ، فضلاً عن أنها

جاءت استجابة لنفس الأسباب ( السعى للحفاظ على الإمبراطورية ، تجاوز التخلف عن الدول الأوروبية ، الخروج من العزلة السياسية والثقافية ) بل إن هذه التغيرات جميعها تمت على يد نفس الأشخاص .

لم تكن الإصلاحات الداخلية وسيلة فقط لتجديد الدولة . وإنما كانت أيضاً " سلاماً دبلوماسياً " ، فقد رأى الإصلاحيون أنها ضرورة لغزو الرأي العام الأوروبي وأنها بذلك سوف تساعد على الحفاظ على وحدة الدولة .

لقد نجح الدبلوماسيون الأتراك الجدد في الاستفادة من الوضع الدولي للوصول إلى حل مناسب لعدد من مشكلات السياسة الخارجية . وساهم نشاط أكثر الدبلوماسيين الأتراك حصة ، مصطفى رشيد باشا ، في حل الصراع التركي المصري وتجاوز الخلاف التركي اليوناني مؤقتاً ، وكذلك صعب من تنفيذ مخططات فرنسا في تونس .

لقد أتاح لنا النشاط الدبلوماسي لمصطفى رشيد في الثلاثينيات والأربعينيات أن نحكم على جوانب النجاح والفشل في الدبلوماسية التركية ، وعلى وجه الخصوص على السياسة الخارجية لها ككل . وقد كان الصراع التركي المصري الذي كان يهدد بانفصال مصر يمثل أكثر المشاكل حدة . فقد أصبح هذا الصراع مشكلة مشاكل السياسة الخارجية التركية نظراً لتدخل الدول الأوروبية في أحداثه .

لقد وضع مصطفى رشيد قبل ذلك بكثير في فترة وجوده في باريس ولندن منذ عام ١٨٣٤ وحتى ١٨٣٧ بصفته سفيراً لبلاده تصوراً دقيقاً للوضع الدولي في أوروبا و " للتوازن السياسي للقوى " ، وكذلك المصالح الاقتصادية والإستراتيجية للدول الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية . وفي تقريره الذي رفعه للسلطان ( في نهاية عام ١٨٣٧ ) ، تعرض مصطفى رشيد تفصيلاً لعلاقة الدول الكبرى بالإمبراطورية وموقفها من انتفاضة محمد علي وإستيلاء فرنسا على الجزائر ، عارضاً بشكل جيد التناقضات بين هذه الدول بعضها البعض . وقد نجح مصطفى رشيد في استغلال التناقضات الحادة بين إنجلترا وفرنسا في توقيع اتفاقية أونكيار أيسكيليسى ، كما استغل أيضاً الموقف المعادي لإنجلترا تجاه انتفاضة محمد علي منذ النصف الثاني لثلاثينيات القرن التاسع عشر . لقد قدم الباب العالي عدداً من التنازلات لإنجلترا ، بما فيها توقيع معاهدة التجارة عام ١٨٣٨ ، واتفاقية التجارة الحرة التي سرعان ما انضمت إليها معظم الدول الأوروبية .

عندما تفاقم الصراع التركي المصري من عام ١٨٣٩ إلى ١٨٤١ كانت إنجلترا أول من أيد الباب العالي ثم تلتها النمسا وروسيا . ويفضل ما قدموه ثلاثتهم من دعم

عسكري ودبلوماسي تم إخماد أنتفاضة محمد علي ، أما فرنسا فلم تقف في هذه الحرب إلى جانب والى مصر . لقد أسهمت إنجلترا بشكل رئيسي في توزيع القوى على هذا النحو إلى جانب الدول الأوروبية الأخرى ، على أنه ينبغي ألا نسقط من حسابنا جهود الباب العالي ، الذي كان شريكاً فعالاً في الصراع الدبلوماسي الذي دارت رحاه في الفترة من ١٨٣١ وحتى ١٨٤١ . لقد أظهر مصطفى رشيد صبراً عظيماً حتى نجح في الحصول أولاً على موافقة إنجلترا ثم على تأييدها الدبلوماسي والعسكري من أجل تغيير الوضع القائم بين السلطان ومحمد علي والذي أقرته اتفاقية كوتاهية . وفي النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر حذرت إنجلترا ، والدول الأوروبية الأخرى أيضاً ، الباب العالي من محاولاته الإخلال بالوضع الراهن . أما في النصف الثاني من الثلاثينيات فقد تغير موقف إنجلترا . وقد دفع إنجلترا إلى هذا التغيير عدد من الأسباب على رأسها التنافس القائم بينها وبين روسيا . وكان رفض استبدال معاهدة أونكيار إيسكيليسى الثنائية بأخرى تضم الدول الأوروبية جميعها ، إحدى " الأوراق الرابعة " الرئيسية للدبلوماسية العثمانية ، فقد اعتبر الباب العالي أن توقيع مثل هذه المعاهدة سوف تكون له نتائج وخيمة عليه ، إذ يصبح من الممكن أن تغل هذه المعاهدة يده نهائياً في علاقاته بمحمد علي وقد يفقد الباب العالي بسببها إمكانية الاستفادة من التنافس القائم بين إنجلترا وروسيا ، الذي تزيد معاهدة أونكيار إيسكيليسى من وطأته . ومن الأمور التي كان لها أثرها في تغيير موقف إنجلترا في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن التاسع عشر خلافاتها مع فرنسا فيما يتعلق بمصر .

تمسك مصطفى رشيد بالتوجه الإنجليزى في السياسة الخارجية ، فقد تصرف إنجلترا في الثلاثينيات وحتى الخمسينيات باعتبارها مؤيداً للإمبراطورية العثمانية ، وكانت تعتبر الأخيرة بمثابة رأس جسر ضد روسيا . كانت سياسة إنجلترا الشرقية تتفق ومصالح الباب العالي ولأن إنجلترا كانت تقف حجر عثرة في طريق سياسة فرنسا في مصر والجزائر وتونس واليونان وغيرها من البلاد .

لقد أخفى الباب العالي عن روسيا سعيه لعقد تحالف عسكري هجومي مع إنجلترا ضد محمد علي حتى عام ١٨٣٨ ، إذ لم يكن على ثقة أنه سيتمكن من تحقيقه ، فضلاً عن أنه لم يكن يرغب في خرق التحالف الذي تقضى به معاهدة أونكيار إيسكيليسى بينه وبين روسيا ، طالما أن هذه المعاهدة ما تزال تعمل لصالحه . على أن روسيا كانت تقف بشدة ضد تغيير الوضع القائم بين السلطان ومحمد علي ، وهو ما لم يكن الباب العالي راضياً عنه إطلاقاً . لقد أدى رفض إنجلترا عام ١٨٣٩ توقيع معاهدة ثنائية بينها وبين تركيا ضد محمد علي لزيادة قوة التحالف الروسى التركى . وقد نجح الباب العالي في الاحتفاظ بتأييد روسيا على امتداد فترة الصراع مع باشا مصر ، على



الرغم من التوجه الإنجليزى السرى نحو حل هذه المشكلة .

انتهت المفاوضات التى جرت وقائعها فى كل من لندن وإسطنبول بين ممثلى الدول المعنية ( باستثناء فرنسا فى فترة عزلتها ) باتخاذ القرار الذى ظل السلطان على امتداد فترة الصراع التركى المصرى يسعى لتحقيقه: عدم إعطاء الباشا المصرى الاستقلال ، وانتزاع سوريا من مجال إدارته . على أن أعطاء محمد على حق حكم مصر بالوراثة وكذلك اتفاقية المضايق التى وقعتها الدول الكبرى فى عام ١٨٤١ تدل على ضعف تركيا . فالضمانات المشتركة للدفاع عن المضايق كانت تعنى أن تركيا لم تكن فى حالة تسمح لها بالدفاع عنها على نحو مستقل .

لم تفقد تركيا السلطانية طوال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر الأمل فى إعادة فرنسا للجزائر بعد احتلالها واستعانت فى ذلك بالتأييد الدبلوماسى لكل من إنجلترا والنمسا وروسيا . على أن إنجلترا لم تكن ترغب فى دخول حرب مع فرنسا المنافس الرئيسى لها فى البحر المتوسط . لقد أتيحت للإمبراطورية العثمانية فرصة تقديم العون العسكرى للكفاح المسلح ضد الفرنسيين عن طريق الإقطاعيين الجزائريين المحليين ، بما فيهم أحمد بك ، باى مدينة قسطنطينة . لكن السلطان كان يدخر قوته لمحاربة محمد على ، ولهذا لم يستطع الاستفادة من هذه الظروف ، ناهيك عن الاهتمام الإقتصادى للباب العالى بامتلاك الجزائر كان ضعيفاً . لكن السبب الرئيسى للسلوك الحذر للباب العالى فى هذه القضية تلخص فى سعيه ألا تتعقد علاقاته بفرنسا ، وبهذه الطريقة يمكنه أن يضعف من تأييدها لمحمد على . لكن مصطفى رشيد رأى أن من الضرورى تنبيه فرنسا بشكل دائم إلى أن السلطان لم يتخلى عن حقوقه فى الجزائر . ظل مصطفى رشيد حتى نهاية الأربعينيات يعلق آماله على أن تهئ الظروف وقوع صدام بين مصالح الدول الأوروبية ، بحيث يمكن للإمبراطورية العثمانية أن تستغله فى استعادة الجزائر .

فى هذه الفترة كان موقف فرنسا فى اليونان موقفاً قوياً ، إذ كان الحزب الحاكم هناك نو توجه فرنسى . ولهذا كان على الباب العالى أن يضع فى اعتباره هذا الظرف . وتؤكد التقارير التى رفعها مصطفى رشيد من باريس أن الباب العالى لم يفكر على أى حال فى إرسال أسطول له إلى تونس ، إذ أن هذا العمل كان سيؤخذ على أنه عملاً عدائياً ضد فرنسا التى كانت تخشى أن تقدم تركيا مساعدة للجزائر المحتلة ، على الرغم من النضال المحتدم للإمبراطورية العثمانية ضد النفوذ الفرنسى فى تونس ، حتى يتحقق هدفه الرئيسى وهو عدم السماح لها بأن تدعم الإدعاءات اللاقليمية لليونان. وكما حدث إبان الصراع التركى المصرى فقد ساعد التنافس بين الدول الأوروبية الكبرى وخوفها من الصدمات العسكرية فى الشرق الجهود الدبلوماسية

الباب العالي في هذا الاتجاه .

ظل مصطفى رشيد يتابع باهتمام الوضع الداخلي في اليونان وعلاقتها بالدول الكبرى ، وكذلك نشاط الجمعيات المحبة لليونان في اليونان نفسها أو خارجها ، وكان تقديره للوضع الدولي صحيحاً ، إذ رأى أن سعى اليونان نحو توسيع أراضيها في تلك الفترة لا مستقبل له .

لقد رأى بايات تونس ، الذين كانوا يتمتعون باستقلال إقتصادي وسياسي كبير في إطار الإمبراطورية العثمانية ، والذين كانوا يسعون لزيادة هذا الاستقلال بمساعدة فرنسا ، أن من الأفيد لهم على أي حال أن يظلوا داخل نطاق الإمبراطورية ، طالما كان ذلك يوفر لهم الحماية بدرجة محددة من ابتلاع الدول الأوروبية لهم . على أن محاولات الباب العالي حرمان باي تونس من الحكم الذاتي وتحويل تونس إلى ولاية عادية ( وهو ما حاول أن يفعله في عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٧ ) إلى جانب تشجيع فرنسا لتونس في صراعها للاستقلال عن الباب العالي قد فاقم من العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية وباي تونس . وكما رأينا فقد أصبحت علاقات الباب العالي بعدد من البلاد الخاضعة له هدفاً للعلاقات الدولية .

لقد حاربت الدبلوماسية التركية في الثلاثينيات والأربعينيات من أجل الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية في ظروف احتدام النضال الداخلي للشعوب المقهورة وسعى الدول الأوروبية لاستغلال ضعف الإمبراطورية العثمانية في الحصول على نصيبها من " التركيبة التركية " .

لقد استرشد الباب العالي في صراعاته الدولية بأهدافه السياسية الخاصة ، على الرغم من أن نشاطه اقتصر على محاولة تجنب تفاقم الصراع في مشكلة ما من أجل تحقيق النتائج المرجوة في مشكلة أخرى . على أن هذه القيود التي ميزت أكثر الدول في القرن التاسع عشر قوة لا تعطي أي مبررات لوصف السياسة الخارجية للباب العالي بأنها سياسة تابعة .

لقد أظهر مصطفى رشيد باشا الذي كان على قمة الدبلوماسية التركية الجديدة أنه دبلوماسي قدير موهوب ، استطاع أن يستغل بنجاح التناقضات القائمة بين الدول . ويفضله أدت الدبلوماسية التركية دوراً محدداً في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر وفي إجراء الإصلاحات من أجل تهيئة الدولة لمواكبة الظروف الإقتصادية والسياسية الجديدة في العهد الرأسمالي .

## المصادر والمراجع

### مؤلفات كارل ماركس وفريدريك إنجلز

- ١- ك. ماركس كلمة حول حرية التجارة أُلقيت في الاجتماع العام للجمعية الديمقراطية في بروكسل في التاسع من يناير ١٨٤٨ - المجلد الرابع .
- ٢- ك. ماركس السياسة الروسية تجاه تركيا - المجلد التاسع .
- ٣- ك. ماركس المسألة الروسية . رسائل دبلوماسيّة - المجلد التاسع .
- ٤- ك. ماركس النول الغربية وتركيا - المجلد التاسع .
- ٥- ك. ماركس اللورد بالمرستون - المجلد التاسع .
- ٦- ك. ماركس مناظرات برلمانية - المجلد العاشر .
- ٧- ك. ماركس الثورة اليونانية - المجلد العاشر .
- ٨- ك. ماركس الحرب . مناظرات برلمانية - المجلد العاشر .
- ٩- ف. إنجلز مذهب الحماية الجمركية أم نظام حرية التجارة - المجلد الرابع .
- ١٠- ف. إنجلز حركات عام ١٨٤٧ - الجزء الرابع .
- ١١- ف. إنجلز بداية نهاية النمسا - الجزء الرابع .
- ١٢- ف. إنجلز المسألة التركية - المجلد التاسع .
- ١٣- ف. إنجلز ما الذي سيحدث لتركيا الأوروبية ؟ - المجلد التاسع .
- ١٤- ف. إنجلز تطور الاشتراكية من الطوباوية إلى العلم - المجلد التاسع عشر .
- ١٥- ف. إنجلز مذهب الحماية الجمركية أم نظام حرية التجارة - مقدمة لكتيب: كارل ماركس . كلمة حول حرية التجارة - المجلد الواحد والعشرين .
- ١٦- ف. إنجلز السياسة الخارجية للنظام القيصري الروسي - المجلد الثاني والعشرين .
- ١٧- ف. إنجلز رسالة إلى ن. ف. دانييلسون . ١٥ مارس ١٨٩٢ .

## وثائق من السجلات أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، رصيد المحفوظات

- ١٨- وثيقة ٥٠ ، عام ١٨٣٣ ، مدونات ٤٧٦ - ٤٨٨ .
- ١٩- وثيقة ٤٦ ، عام ١٨٣٩ ، مدونات ٧٠ - ٧٦ ، ٢٧٠ - ٢٨٠ .
- ٢٠- وثيقة ٤٨ ، عام ١٨٣٩ ، مدونات ٤ ب - ٤ ف .
- ٢١- وثيقة ٢٢٩ ، عام ١٨٣٩ ، مدونات ٩٩ أ - ٩٩ ب .
- ٢٢- وثيقة ٤٣ ، عام ١٨٤٠ ، مدونات ١٠٤ - ١٠٦ ، ٣٢٤ - ٣١٨ ، ٣٨٧ - ٣٨٩ .
- ٢٣- وثيقة ١٠٢ ، عام ١٨٤٠ ، مدونات ٢٨ .

## المصادر

- ٢٤- عبدالرحمن الجبرتي . مصر تحت حكم محمد علي ( ١٨٠٦ - ١٨٢١ ) . المجلد الرابع . ترجمة وتقديم وملاحظات خ. إ. كيلبرج . موسكو . ١٨٦٣ .
- ٢٥- السيرة الذاتية لألكسندر أوسيبوفيتش بوجاميل . موسكو . ١٨٦٣ .
- ٢٦- حادثة السفينة الشراعية " ويكسن " بين إنجلترا وروسيا . مقالة افتتاحية للأستاذ س. بوشوييف . مجلة " الأرشيف الأحمر " موسكو ، ١٩٤٠ ، رقم ٥ (مجلد ١٠٢) ، ص ١٨٩ - ٢٢٨ .
- ٢٧- ك. م. بازيلى . سوريا وفلسطين تحت الحكم التركى من الناحيتين التاريخية والسياسية . موسكو . ١٩٦٢ . ( صدرت لهذا الكتاب ترجمة عربية تحت اسم سورية وفلسطين تحت الحكم العثمانى ، دار التقدم ، عام ١٩٨٦ ، طبع فى الإتحاد السوفيتى ، ترجمة طارق معصرانى - المترجم ) .
- ٢٨- ن. بيريزين - تركيا الحديثة . مجلة " حوليات الوطن " المجلد ١٠٤ ، سان بطرسبورج ، ١٨٥٦ ، الجزء الأول ، ص ٢٩ - ٥٨ ، ٣٩٧ - ٤٢٤ .
- ٢٩- أ. فامبيرى - حياتى . ترجمة معتمدة من المؤلف ، ترجمها عن الإنجليزية ف. لازارييف . موسكو ، ١٩١٤ .
- ٣٠- أ. فامبيرى - مقالات حول حياة الشرق وطبائه . ترجمة عن الألمانية ، سان بطرسبورج ، ١٨٧٧ .
- ٣١- ( فدوتشينكو ) - نظرة عامة على آسيا الصغرى كما هى عليه الآن كما سجلها الرحالة الروس . موسكو فى جزأين ، سان بطرسبورج ، ١٨٣٩ ، ج٢ سان بطرسبورج ، ١٨٤٠ .

- ٣٢- أ.أ. جريس - روسيا والشرق الأوسط . مواد حول تاريخ علاقاتنا بتركيا . سان بطرسبورج ، ١٩٠٦ .
- ٣٣- ك. ماك كوان - نظامنا الجديد للحماية . وصف للخصائص الجغرافية والعرقية والاقتصادية لآسيا التركية . ترجمة عن الإنجليزية ، موسكو ، ١٨٨٤ .
- ٣٤- ف. مارتنس - مجموعة البحوث والمعاهدات التي عقدتها روسيا مع الدول الأجنبية . وضع ف. مارتنس . المجلد ٤ ، الجزء ١ ، والمجلدات ١٢ ن ١٥ . سان بطرسبورج ، ١٨٧٨ - ١٩٠٩ .
- ٣٥- ج. مولتكي . خطابات حول أحداث ومغامرات في تركيا في الفترة من ١٨٢٥ وحتى ١٨٣٩ . ترجمة عن الألمانية .
- ٣٦- ن.ن. مورافيف (كارسكي) - تركيا ومصر عامي ١٨٣٢ و ١٨٣٣ . أربعة أجزاء صدرت في موسكو في الفترة من ١٨٧٠ حتى ١٨٧٤ .
- ٣٧- خطابات مولتكي عن تركيا ، مجلة " الكتاب العسكري " ، ١٨٧٧ ، العدد ٨ ، ص ٣٠٨ - ٣٢٩ / العدد ٩ ، ص ١٢٠ - ١٤١ / العدد ١٠ ، ص ٣٢٢ - ٣٥٢
- ٣٨- مجلة " تاريخ روسيا القديم " . المجلد ١٠٣ ، ١٩٠٠ ، ص ٢٠١ - ٢٢٤ ، ٤٣١ - ٤٤٨ ( مذكرات ميخائيل تشايكوفسكي " محمد صادق باشا " . ترجمة عن البولندية ) .
- ٣٩- ( ت. يوزيفوفيتش ) - المعاهدات السياسية والتجارية الروسية مع الشرق . جمعها وأصدرها ت. يوزيفوفيتش . سان بطرسبورج ، ١٨٦٩ .
- ٤٠ - 1841 L., 1 - 3 Correspondence Relative to the Affaire of the Levant, p.
- ٤١ - Hurewitz J. C. Diplomacy in the Near and Middle East. A. Documentary Record: 1535 - 1914. Vol. 1. Princeton, 1956.
- ٤٢ - Noradounghian G. Recueil d'actes internationaux de l'Empire Ottoman. T. 2, 1789 - 1856. P., 1900
- ٤٣ - Testa I. Recueil des Traités de la Porte Ottoman avec les Puissances Etrangères. T. 2 - 3. P., 1872.
- ٤٤ - Barkan O. L. XV. Asrin sonunda bazı büyük şehirlerde eçya ve yiyecek fiyatlarının tesbit ve teftisi hususlarını tanzim eden kanunlar. - "Tarih vesikaları". Cilt 1, No. 5, 1942, c. 326 - 340.
- ٤٥ - Baysun M. C. Mustafa Resit paşanın Paris ve Londra sefareti esnasındaki siyasî yazıları. - "Tarih vesikaları". (İstanbul). Cilt 1 3, No. 1 - 14, 1941 - 1945 (No. 1, c. 30 - 44; No. 2, c. 145 - 155; No. 4, c. 283 - 296; No. 6, c. 430 - 442; No. 7, c. 41 - 55; No. 9, c. 208 - 219, No. 12, c. 452 - 461; No. 13, c. 51 - 59; No. 14, c. 206 - 221).
- ٤٦ - Baysun M. C. Mustafa Resit paşanın siyasî yazıları. - "İstanbul Üniversitesi Edebiyat, Fakültesi Tarih Dergisi". İstanbul 1954 - 1963 (No. 9, c. 39 - 52; No. 14, c. 59 - 70; No. 15, c. 121 - 142; No. 16, c. 43 - 62; No. 17 - 18, c. 175 - 190).

- ٤٧ - Cevdet pasa. Tezakir. No. 1 - 12. Ankara, 1953
- ٤٨ - Kaynar R.Mustafa Resit pasa ve Tanzimat. Ankara, Türk Tarih Kurumu yay-  
inlari. 1954
- ٤٩ - Muahedati umumiyyeyi mecmuasi. Cilt 1, 4. Istanbul, 1294 (1878/79).
- ٥٠ - Sahillioglu. Osmanlılarda narh müessesesi ve 1525 yılı sonunda İstanbulda fiyatlar. - "Belgelerle türk tarihi dergisi". 1967, No. 1, c. 36 - 40.
- ٥١ - Selâhaddin M. Bir türk diplomatının evraki siyaseti. İstanbul, 1889
- ٥٢ - Tarihi Cevdet. Cilt 6 - 8. Dersaadet, 1309
- ٥٣ - Tarihi Lütfi. Cilt 1 - 8. İstanbul, 1290 - 1328.

## المراجع

- ٥٤ - س.ل. أجايف " الثورة من أعلى " : أصل التطور وطرفه - مجلة " قضايا الفلسفة " . ١٩٧٦ ، العدد ١١ ، ص ٧٤ - ٨٤ .
- ٥٥ - ج.ل. أرش جمعية " فيليكي إتيريا " ( جمعية الصداقة ) السورية . من تاريخ نضال اليونان لإسقاط نير العبودية العثمانى . موسكو ، ١٩٦٥ .
- ٥٦ - ف.م. أفسامبا وضع الصناعة وأحوال العمال الأجراء فى مصر فى القرن التاسع عشر - دراسات فى تاريخ البلدان العربية ( مجموع مقالات ) موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ٥ - ٢٢ .
- ٥٧ - ف.أ. بايبورتليان العلاقات التركية الإيرانية ( ١٩٠٠ - ١٩١٤ ) . موجز رسالة دكتوراه . يريفان ، ١٩٧٥ .
- ٥٧(i) - أ.ب. بارسوكوف ، ن.ن. شوفالوفا دراسة التاريخ الحديث والمعاصر لتاريخ تركيا فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية - مجلة " شعوب آسيا وأفريقيا " . ١٩٧٧ ، العدد ٤ ، ص ٢٠٢ - ٢١٢ .
- ٥٨ - ل. بيروف .
- ٥٩ - ك.ب. فينوجرانوف موقف الدول الأوروبية فى بداية أزمة البلقان فى سبعينيات القرن التاسع عشر - دراسات بلقانية . مشكلات التاريخ والثقافة . موسكو ، ١٩٧٦ ، ص ١١٦ - ١٢٢ .
- ٦٠ - ك.ب. فينوجرانوف فردينان دى ليسبس وشق قناة السويس . مجلة " قضايا التاريخ " . ١٩٦٩ ، العدد ١١ ، ص ١٣٩ - ١٥٤ .
- ٦٠(i) - المسألة الشرقية فى السياسة الخارجية الروسية . من نهاية القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين . موسكو ، ١٩٧٨ .
- ٦١ - مجلة " تاريخ العالم " المجلدين ٥ ، ٦ . موسكو ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .
- ٦٢ - ف.أ. جيورجيف الكتابات التاريخية البورجوازية الإنجليزية الأمريكية للمسألة الشرقية . عرض . مجلة " قضايا التاريخ " . ١٩٦٨ ، العدد ٣ ، ص ١٧٢ - ١٨١ .



- ٦٣- ف.أ. جيورجيف السياسة الخارجية الروسية في الشرق الأوسط في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر . موسكو ، ١٩٧٥ .
- ٦٤- ف.أ. جيورجيف ، م.ت. بانتشينكوفا مشكلات السياسة الخارجية الروسية في القرن التاسع عشر في كتابات المؤرخين السوفيت \_مجلة " قضايا التاريخ " ، ١٩٧٠ ، العدد ٧ ، ص ١٣٨ - ١٤٧ .
- ٦٥- س. جوربانيوف البوسفور والدرينيل . بحث في مسألة الممرات استناداً إلى المراسلات الدبلوماسية المحفوظة في الأرشيف الرئيسي لسان بطرسبورج . سان بطرسبورج ، ١٩٠٧ .
- ٦٦- لا يوجد مرجع تحت هذا الرقم في الكتاب الأصلي ( المترجم ) .
- ٦٧- ف.ف. جراتشيف السياسة الشرقية لفرنسا عامي ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ - مشكلات التاريخ الفرنسي الحديث والمعاصر . جزء ٢ ، سياسة فرنسا في الشرق في القرنين التاسع عشر والعشرين . ريزان ، ١٩٧٤ ، ص ٣ - ٣٦ .
- ٦٨- ف.ف. جراتشيف سياسة فرنسا في الشرق عامي ١٨١٠ ، ١٨١١ - المرجع السابق ، ص ٣٧ - ٧٠ .
- ٦٩- ف.ي. جروسول الإصلاحات التي تمت في ممالك الدانوب وروسيا ( في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر ) . موسكو ، ١٩٦٦ .
- ٧٠- ف.ي. جروسول ، ي.ي. تشيريان روسيا وقيام دولة رومانيا المستقلة . موسكو ، ١٩٦٩ .
- ٧١- أ. سييلور تاريخ أوروبا الدبلوماسية من مؤتمر فيينا وحتى مؤتمر برلين ( ١٨١٤ - ١٨٧٨ ) المجلدين ١ ، ٢ . مترجم عن الفرنسية . موسكو ، ١٩٤٧ .
- ٧٢- القاموس الدبلوماسي المجلدات ١ ، ٢ ، ٣ . موسكو ، ١٩٦٠ - ١٩٦٤ .
- ٧٣- ن.أ. نولينغا التغيرات التي طرأت على الدبلوماسية العثمانية ( في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ) - " مجموعة الدراسات التركية ١٩٧٣ " . موسكو ، ١٩٧٥ ، ص ٦٢ - ٨١ .
- ٧٣(أ)- ن.أ. نولينغا حول برنامج إصلاحات مصطفى رشيد باشا - الآثار المكتوبة ومشكلات تاريخ ثقافة شعوب الشرق ، الدورة العلمية الثانية عشر لمعهد الإستشراق بلينتجراد التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي . موسكو ، ١٩٦٧ ، ص ١٢ - ٧١ .
- ٧٣(ب)- ن.أ. نولينغا موقف مصطفى رشيد باشا من مشكلة وضع المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية - " مجموعة الدراسات التركية ١٩٧٦ " - موسكو - ١٩٧٨ ، ص ٦٦ - ٧٤ .
- ٧٣(ج)- الإتفاقية التركية الإنجليزية عام ١٩٣٨ وتأثيرها على التطور الإقتصادي للإمبراطورية العثمانية - مجلة " شعوب آسيا وأفريقيا " ، ١٩٧٦ ، العدد ٣ ، ص ٩٦ - ٨٠ .
- ٧٤- ت.ف. يريميفا المرحلة الختامية للأزمة المصرية في الفترة من ١٨٣١ وحتى ١٨٣٣ والدول الأوروبية - مجلة " البحوث العلمية في التاريخ الحديث والمعاصر لمعهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية " - الإصدار الثاني ، ١٩٥٦ ، ص ٤٧٥ - ٥١٨ .
- ٧٥- ن.أ. يروفيف الصراع الإنجليزي الفرنسي على قناة السويس ( ١٨٥٤ - ١٨٧٥ ) - من تاريخ الحركات الاجتماعية والعلاقات الدولية . مجموعة مقالات في ذكرى الأكاديمي ي.ف. تارلي . موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٥٩٠ - ٦١٤ .
- ٧٦- أ.د. جيلتيكوف حول مسألة تغريب تركيا في العصر الحديث ( وفقاً لمفهوم المؤرخ التركي ت. توناي )

- التاريخ ودراسة المصادر التاريخية لبلدان آسيا وأفريقيا . الإصدار الثاني . لينجراد ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٥ - ١٢٥ .
- ٧٧- أ.د. جيلتيكوف الصحافة في الحياة الاجتماعية السياسية والثقافية لتركيا (١٧٢٩ - ١٩٠٨) . موسكو ، ١٩٧٢ .
- ٧٨- أ.د. جيلتيكوف ، أ.أ. بتروسيان تاريخ التعليم في تركيا ( من نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين ) . موسكو ، ١٩٦٥ .
- ٧٩- أ.إ. جيجالينا مفهوم " قضية آسيا الوسطى " في الدراسات التاريخية الإنجليزية في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر - مجلة " شعوب آسيا وأفريقيا " . ١٩٧٣ ، العدد ٤ ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .
- ٨٠- أ.أ. زونينشتال - بيسكورسكي سياسة التجارة الخارجية التركية - مجلة " الشرق الجديد " . موسكو ، ١٩٢٧ ، العدد ١٦ ، ١٧ ، ص ١٥٤ - ١٧٧ .
- ٨١- إ. بيوزين العلاقات الدبلوماسية التركية مع الدول الأوروبية - مجلة " سوفريمينك " ( المعاصر ) . المجلد ٥١ . ١٨٥٥ ، ( الجزء الثاني ) ، ص ٨٩ - ١١٢ .
- ٨٢- ن.أ. إيفانوف سياسة محمد علي الزراعية ( مدخل لدراسة العلاقات الزراعية في مصر في مطلع القرن التاسع عشر ) - دراسات في تاريخ البلدان العربية ( مجموعة مقالات ) - موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ٣٥ - ٦٠ .
- ٨٣- أ.ج. إندجيكيان حول بعض مقدمات تطور الرأسمالية في الإمبراطورية العثمانية - مجلة " الدراسات الاجتماعية لأكاديمية العلوم السوفيتية " - يريفان ، ١٩٧٢ ، العدد ٧ ، ص ٣٦ - ٤٨ ( باللغة الأرمنية مع ملخص باللغة الروسية ) .
- ٨٤- تاريخ القرن التاسع عشر ( أوروبا الغربية والدول غير الأوروبية ) بإشراف الأستاذين لافيس ورامبو . المجلدات من ١ إلى ٨ . الطبعة الثانية . ترجمة عن الفرنسية ، موسكو ، ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .
- ٨٥- تاريخ الدبلوماسية . المجلد الأول . الطبعة الثانية ، موسكو ، ١٩٥٩ .
- ٨٥(i)- تاريخ الكفاح القومي التحرري لشعوب أفريقيا في العصر الحديث . موسكو ، ١٩٧٦ .
- ٨٦- تاريخ الاتحاد السوفيتي من أقدم العصور حتى اليوم . السلسلة الأولى . المجلد الرابع . موسكو ، ١٩٦٧ .
- ٨٧- تاريخ بلدان آسيا وأفريقيا في العصر الحديث . موسكو ، ١٩٧١ .
- ٨٨- مدخل لقراءة محصلات مناقشة مسألة مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي لبلدان الشرق قبل تحولها إلى مستعمرات وشبه مستعمرات للدول الرأسمالية - حول نشأة الرأسمالية في بلدان الشرق ( من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر ) . موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٣٩٤ - ٤١٥ .
- ٨٩- أ.خ. كاسوموف من تاريخ الدسائس الإنجليزية التركية في شمال القوقاز في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر - مجلة " البحوث العلمية لجامعة كابردين - بالكاريا . الإصدار الرابع ( مدينة تالشيك ) ، ١٩٥٨ ، ص ٩٩ - ١٣٠ .
- ٩٠- ن.س. كينيابيننا السياسة الخارجية الروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر . موسكو ، ١٩٦٣ .

- ٩١- ن. س. كينيدينا معاهدة أونكيار إيسكليس عام ١٨٣٢ - " التقارير العلمية للمدرسة العليا - العلوم التاريخية " . موسكو ، ١٩٥٨ ، العدد ٢ ، ص ٣٠ - ٤٩
- ٩٢- أ. كويمن النزعة الإستعمارية فى التجارة الحرة - الإمبراطورية العثمانية - موسكو ، ١٩٧٠ ، ص ٢١ ( المؤتمر الدولى الخامس للتاريخ الإقتصادى . ليننجراد ، من ١٠ إلى ١٤ أغسطس ١٩٧٠ ) .
- ٩٣- ف. د. كونيوف حركة التحرر القومى البلغارى ، الأيديولوجيا ، البرنامج ، التطور . صوفيا ، ١٩٧٢
- ٩٤- ك. د. كوسيف
- ٩٥- ن. كوشيفا مسألة وسط آسيا والبورجوازية الروسية فى أربعينيات القرن التاسع عشر - " التاريخى " . العدد ٢ . ليننجراد ، ١٩٣٤ ، ص ١٣٣ - ١٦٢ ( أعمال لجنة التاريخ التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية ) .
- ٩٦- ز. إ. ليفين تطور الإتجاهات الرئيسية للفكر الإجتماعى السياسى فى سوريا ومصر ( العصر الحديث ) . موسكو ، ٢٧٩١ . ( ظهرت له ترجمة باللغة العربية فى مصر ) .
- ٩٧- ف. ب. لوتسكى التاريخ الحديث للبلدان العربية . الطبعة الثانية . موسكو ، ١٩٦٦ .
- ٩٨- ن. ماخوفسكى تاريخ القرصنة البحرية . ترجمة عن البولندية . موسكو ، ١٩٧٢ . ( ظهرت له ترجمة باللغة العربية تحت اسم تاريخ القرصنة فى العالم . ترجمة د. أنور محمد إبراهيم ، دار شرقيات ، القاهرة ، ١٩٩٤ ) .
- ٩٩- م. س. ماير أثر " ثورة الأسعار " فى أوروبا على الإمبراطورية العثمانية - مجلة " شعوب آسيا وأفريقيا " - ١٩٧٥ ، العدد ١ ، ص ٩٦ - ١٠٧ .
- ١٠٠- أ. ف. ميللر موجز تاريخ تركيا . موسكو ، ١٩٤٨ .
- ١٠١- أ. ف. ميللر كمال أتابورك . السنوات الأولى - مجلة " شعوب آسيا وأفريقيا " . ١٩٧٠ ، العدد ٦ ، ص ٦٨ - ٨٢ .
- ١٠٢- أ. ف. ميللر مصطفى باشا البيرق دار . الإمبراطورية العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر . موسكو - ليننجراد ، ١٩٤٧ .
- ١٠٣- ج. مولتكى الحملة الروسية التركية فى تركيا الأوروبية عامى ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ تأليف الأمير مولتكى . ترجمة عن الألمانية ن. شيلدر - ملحق " مجلة الهندسة " . سان بطرسبورج ، ١٨٧٦ .
- ١٠٤- ف. ب. موتافتشيفا مدخل لدراسة قضية الإيجار الإقطاعى فى الإمبراطورية العثمانية . ( القدية الإجبارية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ) - " النشرات الموجزة لمعهد الدراسات السلافية " . العدد ٢٤ ، موسكو ، ١٩٥٨ ، ص ٩٠ - ٩٩ .
- ١٠٥- ج. ناتان تاريخ التطور الإقتصادى البلغارى . ترجمة عن البلغارية . موسكو ، ١٩٦١ .
- ١٠٦- ج. نيبولسين التقرير الإحصائى للتجارة الخارجية الروسية الذى وضعه جريجورى نيبولسين . الجزأين الأول والثانى . سان بطرسبورج ، ١٨٥٠ .

- ١٠٧- ب. نيكوف الدبلوماسية العثمانية وعلم الكتابات القديمة ( الباليوجرافيا ) ج١ ، صوفيا ، ١٩٦٦ .
- ١٠٨- التاريخ الحديث لبلدان أفريقيا وآسيا غير السوفيتية . الطبعة الثانية . ليننجراد ، ١٩٧١ .
- ١٠٩- أ.د. نوفيتشيف تاريخ تركيا . المجلد الثاني . العصر الحديث . ج١ . ( ١٧٩٢ - ١٨٣٩ ) . ليننجراد ، ١٩٦٨ .
- ١١٠- أ.د. نوفيتشيف تاريخ تركيا . المجلد الثالث . العصر الحديث . ج٢ . ( ١٨٣٩ - ١٨٥٣ ) . ليننجراد ، ١٩٧٣ .
- ١١١- أ.د. نوفيتشيف الإعداد لإصلاحات سليم الثالث . مجموعة الدراسات التركية . صدر في الذكرى الثلاثين لوفاة أ.ن. كونوفوف . موسكو ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٦ - ٢٢٠ .
- ١١٢- أ.د. نوفيتشيف مقدمات الصراع بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي في الفترة من ١٨٣٩ وحتى ١٨٤١ ( من تاريخ الكفاح المصري من أجل الإستقلال ) - مجلة " بشير جامعة ليننجراد " ، العدد ٢٠ . التاريخ - اللغة - الأدب . الإصدار الرابع . ١٩٧١ ، ص ٥٩ - ٦٩ .
- ١١٣- أ.د. نوفيتشيف دراسات في الإقتصاد التركي قبل الحرب العالمية . موسكو - ليننجراد ، ١٩٣٧ .
- ١١٤- أ.د. نوفيتشيف الطفرات الإقتصادية والإجتماعية في آسيا الصغرى والبلقان في النصف الأول من القرن التاسع عشر وبداية التنظيمات - المؤتمر الأول لدراسات البلقان ( صوفيا ، من ٢٦ أغسطس وحتى ١ سبتمبر ١٩٦٦ ) . نشرات الوفد السوفيتي . موسكو ١٩٦٦ .
- ١١٥- ب.أ. فولدي السياسة الخارجية . دراسات تاريخية . مجموعة مقالات . براغ ، ١٩١٥ .
- ١١٦- س.ب. أوكون مقالات في تاريخ الإتحاد السوفيتي . الربع الثاني من القرن التاسع عشر . ليننجراد ، ١٩٥٧ .
- ١١٧- إ.أ. أوريلي جداول التقويم الهجري وما يقابلها من تواريخ أوروبية - موسكو - ليننجراد ، ١٩٦١ .
- ١١٧(أ)- س.ف. أوريشكوف العلاقات الروسية التركية في بداية القرن الثامن عشر . موسكو ، ١٩٧١ .
- ١١٧(ب)- س.ف. أوريشكوف وثيقة تركية من النصف الأول للقرن الثامن عشر حول الوضع الدولي في أوروبا وأهداف السياسة الخارجية التركية للإمبراطورية العثمانية - التركية ١٩٧٦ . موسكو ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٩ - ١١٩ .
- ١١٨- س. بالازوف مصطفى رشيد باشا - مجلة " وقائع سان بطرسبورج " . ١٨٥٨ ، العدد ١٤ .
- ١١٩- م.ت. بانتشينكوفا الدراسات التاريخية للمسألة الشرقية في النصف الأول من القرن التاسع عشر - قضايا الكتابات التاريخية في مناهج التاريخ العام . الإصدار الأول . موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ٦٦ - ٨١ .
- ١٢٠- ن.ل. بقروفا نظام الإحتكارات التجارية في مصر في عهد محمد علي . مؤتمر الباحثين الشباب وطلاب الدراسات العليا . ( موضوعات التقارير العلمية في التاريخ والإقتصاد ) . موسكو ، ١٩٧٥ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
- ١٢١- ي.أ. بتروسيان حركة تركيا الفتاة ( النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ) . موسكو ، ١٩٧١ .

- ١٢٢- م. ن. بوكروفسكى الدبلوماسية وحروب روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر . مجموعة مقالات . موسكو ، ١٩٢٣ .
- ١٢٣- ثورات ١٨٤٨ - ١٨٤٩ . المجلدين الأول والثانى . موسكو ، ١٩٥٢ .
- ١٢٤- د. ج. روزين تاريخ تركيا من انتصار الإصلاح فى عام ١٨٢٦ وحتى معاهدة باريس عام ١٨٥٦ . الجزأين الأول والثانى . ترجمة عن الألمانية . بيان بطرسبورج ، ١٨٧٢ .
- ١٢٥- ل. س. سميونوف روسيا وإنجلترا . العلاقات الاقتصادية فى منتصف القرن التاسع عشر . ليننجراد ، ١٩٧٥ .
- ١٢٦- ل. س. سميونوف ، ف. إ. شيريميت . العلاقات التجارية الدولية التركية فى فترة حرب القرم - " بشير جامعة ليننجراد " . التاريخ - اللغة - الأدب . الإصدار ٢ ، ١٩٧٣ ، ص ٤٤ - ٤٩ .
- ١٢٧- أ. س. سيلين التوسع الإستعماري الألماني فى الشرق الأوسط عشية الحرب العالمية الأولى ( ١٩٠٨ - ١٩١٤ ) . موسكو ، ١٩٧٦ .
- ١٢٨- إ. م. سميليانسكى مدخل لدراسة انهيار العلاقات الإقطاعية فى سوريا ولبنان وفلسطين فى منتصف القرن التاسع عشر - حول نشأة الرأسمالية فى بلدان الشرق ( من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر ) . موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٢٨١ - ٢١٣ .
- ١٢٩- إ. م. سميليانسكى حركة الفلاحين فى لبنان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . موسكو ، ١٩٦٥ .
- ١٣٠- أ. ف. سولوفيف مدخل لدراسة علاقة روسيا القيصرية بالهند فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - مجلة " قضايا التاريخ " . ١٩٥٨ ، العدد ٦ ، ص ٩٦ - ١٠٩ .
- ١٣١- ي. ف. تارلى حرب القرم . الطبعة الثانية . المجلدين الأول والثانى . موسكو - ليننجراد ، ١٩٥٠ .
- ١٣٢- س. س. تاتيشيف السياسة الخارجية للإمبراطور نيكولاى الأول . مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية الروسية إبان حرب سيفاستوبول . سان بطرسبورج ، ١٨٨٧ .
- ١٣٣- م. أ. تاوبى المسألة الشرقية والسياسة النمساوية الروسية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . براغ ، ١٩١٦ .
- ١٣٤- ف. تيلوف ممثلو الدول الأوروبية لدى القسطنطينية - مجلة " البشير الروسى " . ١٨٩٠ ، المجلد ٢٠٨ ، العدد ٥ ، ص ٣ - ٣٧ ، العدد ٦ ، ص ٣ - ٣٧ .
- ١٣٥- ف. تيلوف ممثلو روسيا لدى تساريجرادى<sup>(١)</sup> من ١٤٩١ وحتى ١٨٩١ . سان بطرسبورج ، ١٨٩١ .
- ١٣٦- ف. تيلوف زمن الفتنة وإنقلاب البلاط فى القسطنطينية . ( مذكرات شاهد عيان ) . سان بطرسبورج ، ١٨٩٧ .
- ١٣٧- ن. توبوروف المدينة البلقانية من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر فى نطاق الإمبراطورية العثمانية - مجلة " دراسات بلقانية " - صوفيا ، ١٩٧١ ، العدد ٤ ، ص ٢٨ - ٥٤ .
- ١٣٨- ن. توبوروف المدينة البلقانية من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر . النمو الإجتماعى الإقتصادى والسكانى . صوفيا ، ١٩٧٢ .

- ١٣٩- ن. تودوروف إتفاقيه كيوتشوك كاينارجى للسلام - مجلة "دراسات بلقانية"، صوفيا، ١٩٧٥، العدد ٢، ص ٧٧ - ٨٢.
- ١٤٠- م. ن. تودوروف أوربة الإمبراطورية العثمانية ( طرح المشكلة وتفسيرها فى الكتابات التاريخية الغربية والتركية المعاصرة ) - مجلة " شعوب آسيا وأفريقيا " ١٩٧٧، العدد ٢، ص ٢٠٤ - ٢١١.
- ١٤١- أ. أوبيتشينى، ب. دى كورتايل الوضع المعاصر للإمبراطورية العثمانية. الإحصاء، الحكم، الإدارة، المال، الجيش، الحالات غير الإسلامية... إلخ. إستناداً للكتاب السنوى ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ( السلطنة " الكتاب السنوى " عام ١٢٩٣ هجرية ) ولوثائق حديثة أخرى. وضع أوبيتشينى وب. دى كورتايل. ترجمة ونشرة أ. إ. باكست. سان بطرسبورج، ١٨٧٧.
- ١٤٢- أ. ف. فانييف روسيا والأزمة الشرقية فى عشرينيات القرن التاسع عشر. موسكو، ١٩٥٨.
- ١٤٣- ن. ج. خميلييف بولة الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر والكفاح الشعبى التحررى للشعب الجزائرى ( ١٨٣٠ - ١٨٤٧ ). موسكو، ١٩٦٣.
- ١٤٤- ن. ج. خميلييف بولة عبد القادر الجزائرى. موسكو، ١٩٧٢.
- ١٤٥- ف. ف. تسيبولاسكى التقاويم الحديثة لبلدان الشرق الأوسط والأدنى. جداول التقاويم الميلادية والهجرية مع شروح. موسكو، ١٩٦٤.
- ١٤٦- ف. ش. شعبانوف نظام الدولة والنظام القانونى فى تركيا فى فترة التنظيمات. باكو، ١٩٧٥.
- ١٤٧- ف. إ. شيريميت تركيا وصلح أدرنة عام ١٨٢٩. من تاريخ المسألة الشرقية. موسكو، ١٩٧٥.
- ١٤٨- أ. شبارو سياسة كانينج الخارجية والمسألة اليونانية ( ١٨٢٢ - ١٨٢٧ ) - مجلة " قضايا التاريخ " - ١٩٤٧، العدد ١٢، ص ٤٣ - ٦١.
- ١٤٩- أ. شبارو دور روسيا فى نضال اليونان من أجل الإستقلال - مجلة " قضايا التاريخ " ١٩٤٩، العدد ٨، ص ٥٢ - ٧٣.
- ١٥٠- ل. شتاينبرج وجهة النظر الإنجليزية حول تهديد روسيا للهند فى القرنين التاسع عشر والعشرين - مجلة " بحوث تاريخية "، ١٩٥٠، العدد ٣٣، ص ٤٧ - ٦٦.
- ١٥١- Bailey Fr. Ed. British Policy and the Turkish Reform Movement. A Study in Anglo-Turkish Relation 1826 - 1853. Cambridge, 1942.
- ١٥٢- Barbier de Meynard A. C. Dictionnaire turk-français. Supplément aux dictionnaires publiés jusqu'à ce jour. Vol. 1. P., 1881; vol. 2.
- ١٥٣- Berkes N. The Development of Secularism in Turkey. Montreal, 1964
- ١٥٤- Brown L. C. The Tunisia of Ahmad bey 1827 - 1855. Princeton, 1974.
- ١٥٥- Charmes G. L'avenir de la Turquie (le panislamisme). P., 1883.
- ١٥٦- Davison R. H. The Advent of the Principle of Representation in the Government of the Ottoman Empire. Beginnings of Modernization in the Middle



- East. Chicago, 1968, c. 93 - 108.
- Davison R. H. Reform in the Ottoman Empire 1856 - 1876. Princeton, 1963. —١٥٧
- Davison R. H. Turkey. Prentice-Hall, 1968. —١٥٨
- Destilhes M. Confidences sur la Turquie. 2-ème éd., P., 1855. —١٥٩
- D'Ohsson M. Tableau général de l'Empire Othoman. T. 1 - 3. 1787 - 1820. —١٦٠
- Driault Ed. La question d'Orient depuis ses origines jusqu'à nos jours. 2-ème éd. P., 1900. —١٦١
- Du Velay A. Essai sur l'histoire financière de la Turquie. Depuis le regne du Sultan Mahmoud II jusqu'à nos jours. P., 1903. —١٦٢
- L'Empire Ottoman 1839 - 1877. L'Angleterre et la Russie dans la question d'Orient par un ancien diplomate. P., 1877. —١٦٢
- Engelhardt Ed. La Turquie et le Tanzimat ou histoire des réformes. P. 1. P., 1882; p. 2. P., 1884. —١٦٣
- Ergil D. Class Relations and the Turkish Transformation in Historical Perspective. - 'Studia islamica', XXXIX. P., 1976, c. 77 - 94. —١٦٤
- Findikoglu Z. F. The Westernization of Economic thought in Turkey. - International Congress of Orientalists, 26th. New Delhi, 1964; Proceedings... vol. 2. New Delhi, 1968, c. 134 - 136. —١٦٥
- Findley C. V. The Legacy of Tradition to Reform: Origins of the Ottoman Foreign Ministry. - "International journal of Middle East Studies". L., 1970, vol. 1, No. 4, c. 334 - 357. —١٦٦
- Gökbilgin T. Un aperçu général sur l'histoire des institutions de l'Empire Ottoman au XVIe siècle. - "Turcica". T. 1. P., 1969, c. 247 - 260. —١٦٧
- Hammer J. Histoire de l'Empire Othoman. T. P., 1841. —١٦٨
- Hurewitz J. C. The Europeanization of Ottoman Diplomacy: the Conversion from Unilateralism to Reciprocity (1835 - 1870). - Tpy XXV Me. —١٦٩
- Karkar Y. N. Economic Development in the Ottoman Empire 1856 - 1914. - "Middle East Economic Papers". American University of Beirut, 1968, c. 97 - 109. —١٧٠

- Karpat K. An Inquiry Into the Social Foundation of Nationalism in the Ottoman State: From Social Estates to Classes, From Millets to Nations. Princeton, 1973. —١٧١
- Köymen O. The Advent and Consequences of Free Trade in the Ottoman Empire. "Etudes balkaniques". Sofia, 1971, No. 2, c. 47 - 55. —١٧٢
- Lane-Poole S. The Life of the Right Honorable Straford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe, from His Memoires and Private and Official Papers. Vol. 1 - 2, L., 1888. —١٧٣
- Lewis B. The Emergence of Modern Turkey. L., 1961. —١٧٤
- Mantran R. Le statut de l'Algérie, de la Tunisie et de la Tripolitaine dans l'Empire Ottoman. - Estratto del volume: Atti del 1. Congresso Internazionale di Studi Nord-Africani. Cagliari, 22 - 25 Gennaio 1965, c. 205 - 216. —١٧٥
- Milev N. Réchid pacha et la reforme ottomane. - "Zeitschrift für Osteuropäische Geschichte". Bd 2. H. 3. B., 1912, c. 382 - 398. —١٧٦
- Mosely Ph. Russian Diplomacy and the Eastern Question in 1838 and 1839. —١٧٧  
 Cambridge, 1934.
- Mosse W. E. The Return of Reschid Pasha. An Incident in the Career of Lord Stratford de Redcliffe. - "The English Historical Review". L., 1953, vol. 68, No. 269, c. 546 - 573. —١٧٨
- Mostras C. Dictionnaire géographique de l'Empire Ottoman. SPb., 1873. —١٧٩
- Puryear V. J. International Economics and the Diplomacy in the Near East. Study of British Commercial Policy in the Levant 1834 - 1853. L., 1935. —١٨٠
- Rodkey F. S. Lord Palmerston and the Rejuvenation of Turkey 1830 - 1841. "The Journal of Modern History". 1929, No. 4, c. 575 - 579. —١٨١
- Rodkey F. S. The Turco-Egyptian Question in the Relations of England, France and Russia, 1832 - 1841. - "University of Illinois studies in the social sciences". Vol. 11, No. 3-4 Urbana, Illinois, 1924. —١٨٢
- E. Rossi. Storia di Tripoli e della Tripolitania della conquista araba al 1911. Roma, 1968. —١٨٣

- under Sultan Selim III 1789 - 1807. The Ottoman Empire - ١٨٤  
 Harvard University Press. Cambridge. Massachusetts,  
 1971.
- Shaw St. J. The Central Legislative Councils in the Nineteenth Century Ot- - ١٨٥  
 toman Reform Movement Before 1876. - "International Journal of Middle East  
 studies". L., vol. 1, 1970, No. 1, c. 51 - 84.
- Temperley H. England and the Near East. The Crimea. L., 1936. - ١٨٦
- Texier Ed. Les Hommes de la guerre d'Orient. P., 1854. - ١٨٧
- Todorova M. The Establishment of British Consulates in the Bulgarian Lands - ١٨٨  
 "Etudes balkaniques". Sofia, 1973, No. 4, c. - and British Commercial Interests.  
 80 - 88>
- Ubicini M. A. Lettres sur la Turquie ou tableau statistique, religieux, poli- - ١٨٩  
 tique, administratif, militaire, commercial etc. de l'Empire Ottoman. Depuis le  
 Khatti-Cherif de Gulistan (1839), p. 1. Les Ottomans. 2-ème ed. P., 1853.
- [Ubicini A.]. La Turquie actuelle par A. Ubicini. P., 1855. - ١٩٠
- Urquhart D. Progress of Russia in the West, North and Channels of Wealth - ١٩١  
 and Power. 4 ed. P., 1853.,
- Yorga N. Istoria comerului Românesc, Bucuresti, 1925. - ١٩٢
- Zeletin St. Burghezia romana. Originea si rolul ei istoric. Bucuresti, 1925. - ١٩٣
- Zimova N. peu. Ha: Ett. Rossi. Storia di Tripoli e della Tripolitania della con- - ١٩٤  
 quista araba al 1911. - "Asian and African studies". VIII> L., 1972, c. 252 - 254.
- Zimova N. Turkish Penetration in the Sahara. - "Asian and African studies". - ١٩٥  
 Department of Oriental Studies of the Slovak Academy of Sciences Bratislava.  
 X.1974. L., 1975, c. 177 - 181.
- Abdurrahman Seref. Tarih musahabeleri. Istanbul, 1339. - ١٩٦
- Ali Fuad bey. Ricali mühimmeyi siyasiye. Istanbul, 1928. - ١٩٧
- Altundag S. Kavalah Mehmet Ali pasa isyani. Misir meselesi 1831 - 1841. 1. - ١٩٨  
 Kisim. Ankara, 1945.
- Altundag S. Kavalah Mehmet Ali pasa isyam esnasinda Namik pasanin yar- - ١٩٩  
 dim talep etmek üzere 1832 senesinde memuriyeti mahsusa ile Londra'ya

- gönderilmesi. - "Belleten". Cilt 4, No. 23 - 24. Ankara, 1942, c. 229 - 251.
- Avcioglu D. Türkiye'nin düzeni (Dün, Bugün, Yarın), Cilt 1 - 2, 4 bs. Ankara, 1969. —۲۰۰
- elçiliği. - III. Türk Baysun M. C. Cezayir meselesi ve Resid pasanın Paris. tarih kongresi. Ankara, 1948, c. 375 - 379. —۲۰۱
- Baysun M. C. Mustafa Resit pasa. Tanzimat. İstanbul, 1940, c. 1 - 24. —۲۰۲
- Bilsel C. Tanzimatın haricî siyaseti. Tanzimat. İstanbul, 1940, c. 1 - 41 —۲۰۳
- Bulutoglu K. 100 soruda Türkiyede yabancı sermaye. İstanbul, 1970, —۲۰۴
- Findikoglu Z. Türk iktisadî tefekkür tarihi ve Mehmet Serif. III. Türk tarih kongresi. Kongreye sunulan tebliğler. Ankara, 260 - 268. —۲۰۵
- Gökbilgin M. T. Tanzimat hareketinin osmanlı müesseselerine ve teskilâtına etkileri. "Belleten". Ankara, 1967, cilt 31, No. 121, c. 93 - 111. —۲۰۶
- İslâm ansiklopedisi. İslâm âlemi tarih, coğrafya, etnografya ve biyografya lûgatı. İstanbul, 1941 - 1966. y —۲۰۷
- Karal E. Z. Osmanlı tarihi. Cilt 5. Nizami cedit ve Tanzimat devirleri. 1789 - 1856. Ankara, 1956. —۲۰۸
- İslahat fermanı devri. 1856 - 1861. Ankara, Karal E. Z. Osmanlı tarihi. Cilt 6. 1954. —۲۰۹
- Karal E. Z. Osmanlı tarihi. Cilt 7. İslahat fermanı devri. 1861 - 1876. Ankara, 1956. —۲۱۰
- Karal E. Z. Ebu Bekir Ratib efendinin "Nizami cedit" islahatında rolü. - V. Türk tarih kongresi. Kongreye sunulan tebliğler. Ankara, 1960, c. 347 - 355. —۲۱۱
- Karamursal Z. Osmanlı malî tarihi hakkında tetkikler. Ankara, 1950. —۲۱۲
- Kuneralp S. Bir Osmanlı diplomati Kostaki Musurus pasa. 1891. - "Belleten". Cilt 34, No. 135. Ankara, 1970, c. 421 - 435. —۲۱۳
- Kuran E. [peu. Ha]: Resat Kaynar. Mustafa Resit pasa ve Tanzimat. Ankara. - "İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Dergisi". Cilt 8, No. 11 - 12, 1956, c. 227 - 230. —۲۱۴
- Kuran E. Cezayir'in Fransızlar tarafından işgali karşısında Osmanlı siyaseti (1827 - 1847). İstanbul, 1957. —۲۱۵

- Kuran E. Fransanın Cezayire tecavüzü (1827). - "İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Dergisi". Cilt 3, No. 5 - 6, 1953, c. 53 - 62 - ٢١٦
- Kurat A. N. Türk-İngiliz münasebetlerine kısa bir bakış (1553 - 1953). Ankara, 1952. - ٢١٧
- Kurat A. N. XVIII. yüzyıl bası "Avrupa umumî harbinde Türkiyenin tarafsızlığı. - "Belleten". Cilt 7, No. 26. Ankara, 1943, c. 245 - 272. - ٢١٨
- On üçüncü asrî hicrîde osmanlı ricali. - "Peyami Sabah gazetesi". No. 4, 5. - ٢١٩
- Sarc O.C. Tanzimat ve sanayimiz. - Tanzimat. İstanbul, 1940, c. 1 - 18. - ٢٢٠
- Soysal I. Türk-Fransız diplomasi münasebetlerinin ilk devresi. "İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Dergisi". Cilt 3, No. 5 - 6, 1953, c. 63 - 94. - ٢٢١
- Süreyya M. Sicillî Osmani (The Ottoman National Biography). Vol. 1 - 4. İstanbul, 1308 - 1315. Printed in offset by Franz Wolf. 1971. - ٢٢٢
- Sapolyo E. B. Mustafa Resit paşa ve Tanzimat devri tarihi. İstanbul, 1954. - ٢٢٣
- Tengirsenk Y. K. Tanzimat devrinde osmanlı devletinin haricî ticaret siyaseti. - Tanzimat. İstanbul, 1940, c. 1 - 24. - ٢٢٤
- Tunaya T. Z. Türkiyenin siyasî hayatında batılilasma hareketleri. İstanbul, 1960. - ٢٢٥
- Türk ziraat tarihine bir bakış. İstanbul, 1938. - ٢٢٦
3. Basım. Ankara, Unat F. R. Hicrî tarihleri milâdî tarihe çevirme kılavuzu, 1959. - ٢٢٧
- Unat F. R. Osmanlı sefirleri ve sefaretnameleri. Ankara, 1968. - ٢٢٨
- yaman T. M. Misir valisi Mehmed Ali paşanın isyanı üzerine Anadolu ve Rumeliye gönderilmiş olan bir eminame. - "Tarih vesikaları". Cilt 1, No. 6. İstanbul, 1942, c. 426 - 429. - ٢٢٩

## قاموس المصطلحات

**الانكشارية :** (من الكلمتين التركيتين «ينى تشيرى» سلاح المشاة الجديد)، قوات خاصة مميزة فى الامبراطورية العثمانية تم تأسيسها فى النصف الأول من القرن الرابع عشر على يد السلطان أورخان. وفى عام ١٨٢٦ قام السلطان محمود الثانى بالقضاء عليها .

**الأيالة :** أكبر وحدة إدارية عسكرية فى الامبراطورية العثمانية يحكمها البايلى . وفى القرن التاسع عشر تم إعادة تشكيل الأيالات لتصبح ولاية يحكمها الوالى .

**الباب العالى :** الاسم الرسمى لحكومة الامبراطورية العثمانية .

**الباديشاة :** الملك ، الحاكم ، القيصر ، اسم رئيس الامبراطورية العثمانية فى المصادر التركية .

**الباشا :** أعلى لقب بين العسكريين والمدنيين فى الامبراطورية العثمانية .

**الباشدفتردار :** رئيس أمناء الخزانة ، وأمين المالية فى الامبراطورية العثمانية (حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر) والمراقب المالى بعد إنشاء وزارة المالية .

**الباشلكة :** أكبر وحدة إدارية عسكرية فى الامبراطورية العثمانية تخضع لحكم الباشا الذى يعينه الباب العالى . وهى أيضاً الأيالة .

**الباى :** السيد ، لقب اقطاعى كان يضاف للاسم الشخصى أو يستخدم مستقلاً، وكان للشخصيات الهامة الحق - بدرجة ما - فى حمله ، وكانت باى تعنى أيضاً الرئيس والحاكم والمحافظ والوالى وهو يعادل لقب داي .

**البايلرباى :** حكام روميلية والأناضول وسوريا وبعض المناطق الأخرى وتنضم إليها بعض الولايات .

**البايليكشى :** رئيس الإدارة (رئيس قلم) .

**البايليكشى قلمى :** أهم وأكثر إدارات الباب العالى عدداً ، وكانت تقوم بتسجيل جميع القرارات التى يتخذها وأرسالها إلى الجهات المعنية . وهما كان يتم إعداد مختلف الوثائق التى تصدر باسم السلطان (عدا ما يخص الأمور المالية) ، كما كانت تتولى تنفيذ القوانين والمعاهدات النولية.

**التنظيمات :** الإصلاحات ، وتعنى فترة الإصلاحات ذات الطابع البورجوازي التى استمرت من عام ١٨٣٩ وحتى عام ١٨٧٨ .

**الداى :** المساعد ، الوالى ، لقب الحكام فى الجزائر وتونس وطرابلس .

**الديرباى :** الاقطاعى الكبير والشخصية ذات النفوذ الواسع .



**الديوان :** المجلس ، المجلس الأعلى للحكومة السلطانية ويدخل ضمن أعضائه الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وغيرهم من كبار الموظفين . وقد أصبح الديوان يحمل اسم مجلس الوزراء في فترة حكم محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩) .

**الرعية :** الاسم العام للسكان الخاضعين للإمبراطورية العثمانية ، ويستخدم في المراجع الأوروبية لوصف السكان غير المسلمين فقط .

**السر عسكر :** القائد الأعلى ووزير الحربية .

**الصدر الأعظم :** رئيس حكومة السلطان والموظف الأول في الإمبراطورية العثمانية وهو رئيس مجلس الوزراء بعد الإصلاحات التي تمت في الثلاثينيات .

**القبوران دار :** أو القبوران باشا : قائد الاسطول .

**الكاز عسكر :** القاضي العسكري ، وكان هناك اثنان في الإمبراطورية العثمانية أحدهما في تركيا الأوروبية – روميلية ، والآخر في تركيا الآسيوية – الأناضول .

**الكياياك :** أحد ثلاثة مساعدين رئيسيين للصدر الأعظم (الوزير الأعظم) كان المؤلفون الأوروبيون كثيراً ما يسمونه بوزير الداخلية ، وذلك قبل الإصلاحات التي جرت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، على الرغم من أن الوظائف تختلفان عن بعضهما البعض إلى حد كبير .

**المتصرف :** رئيس الصنّجق .

**بيرات (بيرولدي) :** مرسوم سلطاني ، مرسوم بخلعة .

**خط :** خطاب ، أو رسالة .

**خطي شريف :** بيان سلطاني تم إصداره عام ١٨٣٩ بشأن الإصلاحات تم إعلانه في حديقة قصر السلطان في مكان يعرف باسم جولخانه (عريشة الورد) .

**خطي همايون :** مرسوم أصدره السلطان التركي عام ١٨٥٦ بشأن الإصلاحات.

رئيس الكتاب (الرئيس افندي) : واحد من المساعدين الرئيسيين الثلاثي للصدر الأعظم ، ويعمل سكرتيراً للباب العالي ورئيساً لإدارته الثلاث ، وفي الفترة من ١٦٩٩ وحتى ١٨٣٦ كان يعمل رئيساً لمصلحة العلاقات الخارجية ومستشاراً للشئون الدولية ، كثيراً ما ورد ذكره في المصادر الأوروبية باعتباره وزيراً للخارجية ، على الرغم من أن هذه الوزارة لم تنشأ إلا في عام ١٨٣٦ .

**فرمان :** مرسوم .

**فرمانلي :** من يخالف إرادة السلطان .

**نظام :** الجيش النظامي الدائم ، الذي تأسس في عصر سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) .

## المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتنكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغييرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرائك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب غلوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إيوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فلروق القلضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب غلوب
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم السوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب غلوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

٢٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . نيكسون	ت : خليل كلفت
٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عبد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عطف أحمد / إبراهيم قحى / محمود ملج
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزوج	أوكتاڤيو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - يعد عدة أصياف	ألوس هكسلي	ت : مارلين تانرس
٤٥ - التراث المنذور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا توما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الجلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التذمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجاتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحيرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نقاشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسيوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - لعالم الإسلامى فى أولال القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمل	داريو فرو	ت : حسين محمود
٧٢ - السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ - نقد استجابة القارئ	جين . ب . تومكينز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ - صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوف	ت : حسن بيومى
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ - شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ - الجماعات المتخيلة	بنكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ - مسرح ميغيل	ميغيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٢ - مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ - طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ - نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ - الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ - الطريق الثالث	أنتونى جينز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ - وسم السيف	ميغل دى ترياس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح	كارلوس ميغل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ - محدثات العولة	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ - الحب الأول والصحة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ - مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بوينو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ - هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ - تاريخ السينما العالمية	نيفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ - مساعلة العولة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحو
١٠٢ - السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإبريسى
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء	عبد الوهاب المؤيد	ت : محمد بنيس
١٠٤ - أويرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ - الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعور

١٠٧ - صورة الغداني في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت . محمد عبد الله الجعدي
١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأثليسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنه بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسييس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادي	أرلين علوي ماركليود	ت . إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى بلانت	ت . أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حصاد كوني وسكان المستنق	ول شوينكا	ت . نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سميه رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلي أبو لغد	ت . نخبة من المترجمين
١٢١ - الليل الصغير في كتلة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت . محمد الجندى ، وايزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم وبموزج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : د/ منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنانولينا	ت. أنور محمد إبراهيم

## ( نحت الطبع )

المختار من نقد ت . س . إليوت	الخوف من المرايا
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل
الأدب المقارن	عدالة الهنود
الفجر الكاذب	جان كوكتو على شاشة السينما
الشعر الأمريكي المعاصر	الأرضة
الشرق يصعد ثانية	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
الجانب الديني للفلسفة	غرام الفراغة
الولاية	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
ثقافة العولة	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
حدث تلتقى الأنهار	صاحبة اللوكاندة
النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	التجربة الإغريقية . حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي
المدارس الجمالية الكبرى	العنف والنبوة
التحليل الموسيقي	خسرو وشيرين
الإسكندرية . تاريخ ودليل	العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)
مخنارات من الشعر اليوناني الحديث	وضع حد
بارسيفال	التليفزيون في الحياة اليومية
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	أنطوان تسبخوف
مصر القديمة التاريخ الاجتماعي	مختارات من المسرح الإسباني المعاصر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

رقم الإيداع ٨٥٣٩ / ١٩٩٩

الترقيم الدولي (5- 128 - 305 - 977 I. S. B. N.)







# ОСМАНСКАЯ ИМПЕРИЯ В МЕЖДУНАРОДНЫХ ОТНОШЕНИЯХ (30—40-е годы XIX в.)

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، دخلت الإمبراطورية العثمانية مرحلة تاريخية جديدة. كانت عوامل التدهور المستشرية داخلها منذ عقود طويلة قد انتهت إلى نتائجها الطبيعية. بينما كانت أوروبا بعد إنجازها لأسس نهضتها الحديثة، تدخل الثورة الصناعية وتنطلق صوب آسيا وإفريقيا عبر مزيج من الغزو العسكري والتغلغل الاقتصادي. ومن تفاعل هذين التيارين تحددت الملامح الأساسية للمرحلة الجديدة. صعود حركات الإستقلال الإقليمي والتحرر القومي، الذي وصل إلى ذروته في حركة حركات على وتوسعاته. وظهور حركة الإصلاح العثماني "التنظيمات" التي سعت إلى تحديثه عليه من تناقضات وصراعات، وبما انتهت إليه من تحولات في السياسة الداخلية والخارجية. وتصاعد التنافس الأوروبي حول الإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها مسجلاً بداية عصر المسألة الشرقية.

يسعى هذا الكتاب إلى دراسة تحولات العلاقات الخارجية العثمانية خلال هذه المرحلة، من حيث تغير بينتها والقوى الفاعلة فيها والأزمات والصراعات التي وجهت مسيرتها.

فيتناول الأزمات المصرية في مرحلتها، واستقلال اليونان، والصراع بين فرنسا والجزائرية، والتنافس التركي - الفرنسي حول تونس، ومعاهدة 1830، والصراع التجاري. وفي سياق ذلك يمنح اهتماماً خاصاً لأعمال ونشاطات الخارجية التركية مصطفى رشيد باشا، ويرصد تحولات الإطار السياسي والموجه للمواجهة للسياسة الخارجية التركية، التي بدأت عام 1834 مع مصطفى رشيد باشا للنظام التركي الجديد.

وتتميز الدراسة باعتمادها المكثف على وثائق الأرشيفات التركية ونشرها المؤرخون الأتراك: رشيد كاينار وأحمد لطفي وغيرهما، والأرشيفات الروسية، ومذكرات ودراسات الدبلوماسيين والكتاب الذين عاشوا في تركيا في فترة الدراسة.